



تأملات في الإسلام

شامات في الإسلام

الأستاذ الدكتور
محمد راتب النابلسي

دار الكتب

الطبعة السادسة 1431هـ - 2010م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا

ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف: ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس: ٢٢٤٨٤٣٢

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي أخرجنا - بهذا الدين القويم - من ظلمات الجهل والوهم ، إلى أنوار المعرفة والعلم ، والصلاة والسلام على سيد الخلق ، وحبيب الحق ، الذي أخرجنا - بسنته المطهرة - من وحول الشهوات إلى جنات القربات .

لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم ، وكرمه أعظم تكريم ، سخر له الكون تسخير تعريف وتكريم ، ووهبه نعمة العقل ، ليتعرف به على خالقه العظيم ، وجعل له فطرة سليمة تدله على خطئه الجسيم ، وأودع فيه الشهوات ليرقى بها صابراً أو شاكراً إلى رب الأرض والسماوات ، وجعل له الشرع الحنيف ميزاناً دقيقاً ، فأحل له من خلاله الطيبات ، وحرم عليه الخبائث ، ومنحه حرية الإرادة ، ليثمن عمله ، كل ذلك . . . ليعرف ربه فيعبده ، فيسعد بعبادته ، في الدنيا والآخرة .

لهذا لا يَسْلَم الإنسان ولا يسعد - وهما مطلبان ثابتان للإنسان في كل زمان ومكان - إلا إذا تطابقت حركته اليومية في حياته الدنيا ، مع الهدف الحقيقي الذي خُلق من أجله ، إذاً تعدُّ معرفة هذا الهدف ،

والتحرك نحوه ، شرطين أساسيين لبلوغ هذين المطلبين الثابتين .
فإن لم يبحث الإنسان عن الهدف الحقيقي الذي خُلق من أجله ، أو توهم هدفاً آخر لم يُخلق له ، أو لم تأت حركته اليومية مطابقة للهدف الصحيح ، كان القلق والاضطراب ، وكان الضلال والشقاء ، وتحققت خسارة كبيرة أبدية .

وجُعل في كيان الإنسان قبضة من طين الأرض ، ونفخة من روح الله ، فإذا سما عقله على شهوته ، أصبح فوق الملائكة المقربين ، وإن سمت شهوته على عقله كان أسفل السافلين ، وخلق فيه حاجات دنيا ، لا يقوم إلا بها ، وخلق فيه حاجات عليا ، لا يسعد إلا بتلبيتها ، ومن أبرز هذه الحاجات العليا « العلم » ، الذي هو القيمة المرجحة بين العباد ، قال تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩] ، وجعل منحة العلم أعظم النعم ، قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣] .

* * *

وانطلاقاً من حديث رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة ؛ صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له » .

فقد تمّ بعون الله وتوفيقه تأليف كتاب جديد هو : « تأملات في الإسلام » ، حيث تنوعت موضوعاته بين :

العقائد ، والعبادات ، والمعاملات ، ومكارم الأخلاق ، وسيرة النبي ﷺ ، وصحابته الكرام ، وفيه أيضاً موضوعات

أصولية ، وتاريخية ، وموضوعات أدبية ، وقضايا معاصرة .
وقد حرصت على أن يكون في الموضوع الواحد ؛ ركن
عقدي فلسفي ، وركن من النقل الصحيح ؛ كتاب وسنة مع الشرح
الأصولي ، وركن من سيرة النبي ﷺ ، وسير صحابته الكرام ،
والجوانب المشرقة من التاريخ الإسلامي ، وركن علمي يؤكد أن
النقل الصحيح يتوافق مع العقل الصريح ، وأن الذي خلق
الأكوان ، وخلق الإنسان هو الذي أنزل على عبده الفرقان ،
ليكون منهجاً للإنسان ، بحيث إذا طبقه لا يضلُّ عقله ، ولا تشقى
نفسه ، ولا يندم على مافات ، ولا يخشى مما هو آت .



وقد بينت في موضوع «العبادة» أن العبادة علة وجودنا ، وسرّ
سعادتنا في الدنيا ، وثمر جنة ربنا في الآخرة . إنها غاية
الخضوع لأمره ، وغاية محبته ، فمن أطاعه ، ولم يحبه ،
لا يكون عابداً له ، ومن أحبه ، ولم يخضع له ، لا يكون عابداً
له . فلا بد لهذه الطاعة الطوعية من معرفة يقينية تسبقها ، كما أنه
لا بد لهذه الطاعة الطوعية من سعادة حقيقية تفضي إليها ، تلك
السعادة التي خلق الإنسان من أجلها .

وبينت في موضوع «الفطرة» أن في القلب شعناً ، لا يلّمه إلا
الإقبال على الله ، وفي القلب وحشة ، لا يزيلها إلا الأُنس بالله ،
وفيه حزن ، لا يُذهب إلا السرور بمعرفة الله ، وفيه قلق ، لا يُسكنه
إلا الاجتماع عليه ، والفرار إليه ، وفي القلب نيران حشرات ،
لا يطفئها إلا الرضا بأمره ، ونهيه ، وقضائه ، وقدره ، والصبر
على ذلك إلى يوم لقائه ، وفي القلب فاقة ، لا تسدها إلا

محَبته ، والإنابة إليه ، ودوام ذكره ، وصدق الإخلاص له .
وأكدت في موضوع « الوسطية » أن الإسلام وسط بين المادية
المقيتة ، والروحية الحالمة ، بين الواقعية المرة ، والمثالية
التخيلية ، بين الفردية الطاغية ، والجماعية الساحقة ، بين الثبات
الرتيب ، والتغير المضطرب ، بين الحاجات الملحة ، والقيم
البعيدة ، بين العقلانية الباردة ، والعاطفية المتّقدة ، بين نوازع
الجسد ، ومتطلبات الروح .

وفي موضوع « فلسفة المال في الإسلام » بينت أن الإنسان
حريص على رزقه ؛ كما هو حريص على حياته ، ولا يقلقه إلا
زوال النعمة عنه ، أو زواله عن النعمة ، فكيف يدفع المرء عن
نفسه القلق من أجل الرزق ؟ وكيف يمتنع الرجل عن ارتكاب
المعاصي من أجل الرزق ؟ وكيف يحترز الإنسان عن أن يقف
موقف مذلة من أجل الرزق ؟ .

وأكدت في موضوع « التوحيد » أنه يملأ نفس صاحبه أمناً
وطمأنينة ، فلا تستبد بها المخاوف ، التي تتسلط على أهل
الشرك ، فقد سدّ الموحد منافذ الخوف ، التي يفتحها الناس على
أنفسهم ؛ الخوف على الرزق ، والخوف على الأجل ، والخوف
على النفس ، والخوف على الأهل والأولاد ، والخوف من
الإنس ، والخوف من الجن ، والخوف من الموت ، والخوف
مما بعد الموت .

وفي موضوع « تأملات في سورة العصر » وضحت أن الإيمان
هو اتصال هذا الكائن الإنساني ، الصغير ، الضعيف ، الفاني ،
المحدود ، بالأصل المطلق الأزلي الباقي ، الذي صدر

عنه هذا الوجود ؛ وعندئذ ينطلق هذا الإنسان من حدود ذاته الصغيرة ، إلى رحابة الكون الكبير ، ومن حدود قوته الهزلية ، إلى عظمة الطاقات الكونية المخبوءة ، ومن حدود عمره القصير ، إلى امتداد الآباد التي لا يعلمها إلا الله ، هذا الاتصال فضلاً عن أنه يمنح الإنسان القوة ، والامتداد ، والانطلاق ، فإنه يمنحه السعادة الحقيقية التي يلهث وراءها الإنسان .

وفي موضوع « ذكر الله » عدت أنواع الذكر . . . فمن الذكر : أن تذكر الله في آياته الكونية ، ومن الذكر أن تذكره في آياته القرآنية ، ومن الذكر أن تذكره في نعمه الظاهرة ، ونعمه الباطنة ، أن تذكره في أمره ونهيه ، أن تذكره لعباده معروفاً به ، وأن تذكره في قلبك مسبحاً ، وأن تذكره في لسانك حامداً ، وأن تذكره ذكراً كثيراً ، ليطمئن قلبك ، ولينجلي همك ، ولينشرح صدرك ، وليتسع رزقك ، ولينصرك الله على عدوك .

وفي موضوع « يوم عرفة » بينت أنه : إذا أطاع المرء مخلوقاً ، كائناً من كان ، وعصى خالقه ، فهو ما قال : الله أكبر ، ولا مرة ، ولو ردها بلسانه ألف مرة ، لأنه إنما أطاع الأقوى في تصوره . وإذا غش المرء الناس ، ليجني المال الوفير ، فهو ما قال : الله أكبر ، ولا مرة ، ولو ردها بلسانه ألف مرة ، لأنه إنما رأى أنَّ هذا المال أكبر عنده من طاعة الله ورسوله . وإذا لم يُقم المرء الإسلام في بيته ، إرضاء لأهله ، ولأولاده ، فهو ما قال : الله أكبر ، ولا مرة ، ولو ردها بلسانه ألف مرة ، لأنه إنما رأى أن إرضاء أهله أكبر عنده من إرضاء ربه .

وفي موضوع « مقام إبراهيم » بينت أن الله جل جلاله ، حينما يخاطب خلقه ، لا يخاطبهم بالتكليف ، افعلوا ولا تفعلوا ، إنما يدعوهم إلى الإيمان به ، فمن آمن به يكلفه ، لذلك تجد كل تكليف مسبوقاً في القرآن الكريم بـ (يا أيها الذين آمنوا) ، لأن الإنسان ، حينما يدخل مع الله في عقد إيماني ، فقد آمن إيماناً قطعياً أن الله الكمال المطلق ، فإذا تلقيت الأمر الإيماني ، ولم تفهمه ، ونفذته فإنك ستجد الراحة في قلبك ، والصفاء في نفسك ، وحينما تقبل على تنفيذ أمر الله ، لثقتك بعلمه ، وحكمته ، ورحمته ، يكشف لك الحكمة منه ، فتعود بثمرتين : ثواب العابد ، وفهم العالم .

وفي موضوع « الصيام » حاولت أن أبين أن الله تعالى لم يصطف زماناً كرمضان من بقية الشهور ، ليكون شهر الطاعة ، والقرب فحسب ، بل أراد به شهراً ، يتدرب فيه الإنسان على الطاعة ، حتى يذوق حلاوة القرب ، وعندها تنسحب هذه الطاعة ، وذاك القرب ، على كل شهور العام ، وحينما يصطفي الله مكاناً ، كبيتة الحرام ، ويدعو المؤمنين إليه ، ليدوقوا حلاوة القرب فيه ، يريد أن ينسحب هذا القرب على كل الأمكنة ، لأن الله مع المؤمن في كل مكان . وحينما يصطفي الله إنساناً كسيد الأنام فيكشف له الحقائق ، إنما يصطفيه ، ليكشف من خلاله الحقائق لكل الناس .

وحينما وصلت إلى « الجانب الاجتماعي » في الإسلام ، بينت أن الإسلام جعل الدافع الاجتماعي في المسلم ينبعث من

عبادة الله ، وطلب مرضاته ، من طريق خدمة عبادته ، لا من طريق تلبية حاجاته المادية والمعنوية ، وجعل الإسلام النشاط الاجتماعي للمسلم يسري في قنوات نظيفة ، حددها الشرع الحكيم ، ضماناً لسلامة الفرد ، و ضماناً لسلامة المجتمع ، من الفساد والانحلال ، وجعل كثيراً من الفضائل الخلقية ، والأعمال الجليلة ، لا تتحقق إلا من طريق العمل الجماعي ، وجعل الفردية ، والانعزالية ، سبباً لكثير من الرذائل الخلقية ، والأعمال الخسيسة ، أما حينما يفسد المجتمع ، وتنهار فيه القيم ، وتداس فيه المبادئ ، بأقدام المصالح ، عندئذ يأمر الإسلام بجفوة هذا المجتمع واعتزاله .

وفي موضوع « التعاون » قدمت صورة للمؤمن الذي رباه الإسلام على التعاون المثمر : فهو إنسان متميز ، يرى ما لا يراه الآخرون ، ويشعر بما لا يشعرون ، يتمتع بوعي عميق ، وإدراك دقيق ، له قلب كبير ، وعزم متين ، وإرادة صلبة ، هدفه أكبر من حاجاته ، ورسالته أسمى من رغباته ، يملك نفسه ولا تملكه ، يقود هواه ولا ينقاد له ، تحكمه القيم ويحكم إليها ، من دون أن يسخرها لمصالحه ، أو يسخر منها ، سما حتى اشأبت إليه الأعناق ، وصفا حتى مالت إليه القلوب .

أما موضوع « الحلال والحرام » ، فهو قوام الإسلام ، ودليل الإيمان ، وميزان الصدق عند الواحد الديان ، فلا إيمان بلا عمل ، ولا عمل إلا على مقتضى الأمر والنهي ، ولا التزام بأمر آمر ، ولا نهي ناهٍ ، إلا عن حب ، والحب دون اتباع كذب ونفاق ، ومن هنا كانت خطورة موضوع الحلال والحرام في الإسلام .

و« محبة الله » هي قوت القلوب ، وغذاء الأرواح ، وهي الحياة التي من حرمها فهو في جملة الأموات ، وهي النور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات ، وهي الشفاء الذي من عدمه حلت به الأسقام ، وهي اللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام ، والحب دون اتباع كذب ونفاق .

وعن « إنسانية » هذا الدين الحنيف ، ذكرت أنه قبل أن تسمع أذن الدنيا ، عن حقوق الإنسان ، لاثني عشر قرناً ، أو تزيد ، ويوم كان العالم كله ، لا ينظر إلى الإنسان ، إلا من جهة ما عليه من الواجبات ، يُطالب بأدائها ، وإلا كان عليه من العقاب ما لا يطيق ، جاء الإسلام ليقرر جهرة ، أن للإنسان حقوقاً ، ينبغي أن تُرعى ، كما أن عليه واجبات ، يجب أن تؤدي ، وكما أنه يُسأل عما عليه ، يجب أن يعطى ما له ، فكل واجب يقابله حق ، كما أن كل حق يقابله واجب .

ومن هذه الحقوق التي أعلنها الإسلام جهرة ، قبل خمسة عشر قرناً ، حق الحياة ، وحق الكرامة الإنسانية ، وحق التفكير ، وحق التدين ، وحق الاعتقاد ، وحق التعبير ، وحق التعلم ، وحق التملك ، وحق الكفاية ، وحق الأمن من الخوف .

وفي موضوع « حقيقة المعجزة » أكدت أنه من رحمة الله بنا أيضاً ، أن تلازم الأسباب مع النتائج يضفي على الكون طابع الثبات ، ويمهد الطريق لاكتشاف القوانين ، ويعطي الأشياء خصائصها الثابتة ، ليسهل التعامل معها ، ولو لم تكن الأسباب متلازمة مع النتائج ، ولو لم تكن النتائج بقدر الأسباب ، لأخذ الكون

طابع الفوضى ، والعبثية ، ولتاه الإنسان في سبل المعرفة ، ولم ينتفع بعقله ، لكن مَن اعتقد أن الأسباب وحدها تخلق النتائج ، ثم اعتمد على الأسباب وحدها ، فقد أشرك ، لذلك يتفضل الله على هذا الإنسان ، الذي وقع في الشرك الخفي ، فيؤدبه بتعطيل فاعلية الأسباب ، التي اعتمد عليها ، فيفاجأ بنتائج غير متوقعة ، ومن ترك الأخذ بالأسباب ، متوكلاً في زعمه على الله ، فقد عصى ، لأنه لم يعبأ بهذا النظام الذي ينتظم الكون كله ، ولأنه طمع ، بغير حق ، أن يخرق الله له هذه السنن .

وحرصت في موضوع « الهجرة » على أن أبين أن الظروف التي أحاطت بالنبي ﷺ ، والأحداث التي واجهها ، هي ظروف وأحداث ، خلقت وقُدرت بعناية تامة ، وبحكمة بالغة ، ليقف النبي ﷺ منها الموقف التشريعي الكامل الذي ينبغي أن يقفه الإنسان ، ليؤكد إنسانيته ، وليحقق غاية وجوده ، إن هذه الظروف ، وتلك الأحداث ، من شأنها أنها تكرر ، بسبب أن طبيعة النفس واحدة .

ومن خلال موضوع « رحمة النبي » الكريم وضحت أن في تاريخ البشرية كلها ، بروادها ، بصفوتها ، بقادتها ، لانكاد نعرف حياة ، نقلت إلينا أنباؤها ، وحفظت لنا وقائعها ، في وضوح كامل ، وتفصيل عميم شامل ، كما حفظت ، وكما نقلت إلينا ، حياة محمد بن عبد الله ، رسول الله رب العالمين ، ورحمته المهداة إلى الناس أجمعين ، فكل كلمة قالها ، وكل خطوة خطاها ، وكل بسمه تألقت على محياه ، وكل دمعة

تحدرت من مآقيه ، وكل نفس تردد في صدره ، وكل مسعى سار لتحقيق أمره ، كل مشاهد حياته ، حتى ما كان منها من خاصة أمره ، وأسرار بيته ، وأهله ؛ كل ذلك نقل إلينا بحروف كبار ، موثقاً بأصدق ما عرف التاريخ الإنساني من وسائل .

وفي « الجانب الإنساني في شخصية رسول الله ﷺ » ذكرت أن النبي ﷺ في نظر المنصفين من خصومه ، الإنسان الأول ، من بين المئة الأوائل في تاريخ البشرية كلها ، من حيث قوة التأثير ، ومن حيث نوع التأثير ، ومن حيث امتداد أمد التأثير ، ومن حيث اتساع رقعة التأثير .

وبينت في موضوع « الإيدز » أنه لحكمة بالغة جعلت علاقة المعصية بنتائجها علاقة علمية ، أي علاقة سبب بنتيجة ، ففي كل معصية بذور نتائجها ، وهذا ما يليق بالتشريع الإلهي ، تشريع الخير ، الذي هو في حقيقته تعليمات الصانع ، لكن هذه النتائج الوبيلة للمعاصي ، ليست هي كل النتائج ، بل بعضها ، فالعاصي - فضلاً عن أنه يخسر الدنيا - يخسر الآخرة ، والعاصي - فضلاً عن أنه يعذب في الدنيا - يعذب في الآخرة ، لكن عذاب الدنيا ليس بشيء ، إذا قيس بعذاب الآخرة .

وفي موضوع « الدخان » ذكرت قصة رجل وسيم جداً ، تتخذه شركات التسويق وسيلة للإعلان عن الدخان ، يرتدي ثياب رعاة البقر ، ويضع قبةً على رأسه ، ويدعوك إلى التدخين ، مات في سن الشباب ، بسبب التدخين ، قال وهو على فراش الموت : كنت أكذب عليكم ، الدخان قتلني ، لذلك لا ينبغي أن نكون

ضحية الكذب ، ولا ضحية إعلان رخيص ، ولا ضحية شركة ، تبحث عن الربح ، ولا تعبأ بصحة الآخرين .

وفي موضوع « القدس » ، ذكرت أن أصحاب النبي ﷺ انطلقوا ينشرون هذه الرسالة السماوية في الآفاق ، متخذين لهذه الأهداف النبيلة وسائل نبيلة من جنسها ، فهذه وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، لأسامة بن زيد ، قائد الجيش الإسلامي ، قال له : « لا تخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاةً ، ولا بقرة ، ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم بالصوامع ، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له . . . اندفعوا باسم الله » .

وفي موضوع « المقالة » بينت أن مهمة الكاتب ليست في إضعاف النفوس ، بل في تحريك الرؤوس ، كل كاتب لا يثير في الناس رأياً ، أو فكراً ، أو مغزى يدفعهم إلى التطور ، أو النهوض ، أو السمو ، على أنفسهم ، ولا يحرك فيهم غير المشاعر السطحية العابثة ، ولا يقرّ فيهم غير الاطمئنان الرخيص ، ولا يوحى إليهم إلا بالإحساس المبتذل ، ولا يمنحهم غير الراحة الفارغة ، ولا يغمرهم إلا في التسلية ، والملذات السخيفة ، التي لا تكوّن فيهم شخصية ، ولا تثقف فيهم ذهنًا ، ولا تربّي فيهم رأياً ، لهو كاتب يقضي على نمو الشعب ، وتطور المجتمع .

وفي موضوع « البطولات » ذكرت أن جيوش الغزو الفرنسي

الثالثة ، يقودها سبعة وعشرون ملكاً وأميراً ، يتقدمهم ريكاردوس ملك إنكلترا ، وقد قال لصلاح الدين قبل التحام الجيوش : « إني أنا ريكاردوس ، والقوة عندنا هي كل شيء ، وسأريك البرهان » ثم دعا بقضيب من حديد ثم سل سيفه وأهوى عليه ، فاخترطه نصفين . فضحك صلاح الدين وقال لريكاردوس : « ليست الحرب صلابة سيف ، وقوة ساعد ، وإنما هي مضاء حدّ وسداد يد ، ثم قذف بمنديل من الحرير الرقيق الشفاف إلى أعلى ، ثم تلقاه بسيفه فشطره وقال لريكاردوس : بمثل هذا السيف سنلقاتكم غداً » .



ولا بد من التنويه بالمنهج العلمي الذي اعتمدته في هذا الكتاب ؛ فانطلاقاً من أن الدين في حقيقته نقل عن الله ورسوله ، وأن أخطر ما في النقل صحته ، لذلك حرصت على اختيار النصوص الصحيحة ، وتخريج النصوص الواردة في بعض أصول الكتاب .

وبما أن العلم - في الأصل - حكم ، مقطوع بصحته ، يطابق الواقع ، وعليه دليل ؛ فلو لم يكن الحكم مقطوعاً بصحته ، كان الوهم والشك والظن ، ولو لم يطابق الواقع كان جهلاً ، لأن حقيقة العلم هو الوصف المطابق للواقع ، ولو لم يؤيده الدليل - ولو كان الحكم صحيحاً - كان تقليداً ، فانطلاقاً من هذا . . . أؤكد أن الحق ما جاء به النقل ، ومن البدهي أن يقبله العقل الصريح ، وأن ترتاح له الفطرة السليمة ، وأن يؤكد الواقع الموضوعي .

فالنص الصريح أولاً والحكم مأخوذ منه ، ومبني عليه ثانياً ، أما إذا عكسنا الأمر ؛ فجئنا بالرأي أولاً ، ثم بحثنا عن نص يؤيده ثانياً ، فقبلنا من النصوص ما يؤيده ، ورفضنا ما لا يؤيده ، وقّعنا

في ضلالات أهل الرأي ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَأَنتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٥٩] ، ويمكن أن نلخص منهج البحث الإسلامي بالقاعدة الذهبية : « إن كنت ناقلاً فالصحة ، أو مدعياً فالدليل » .

وبما أن النبي معصوم بمفرده ، وأمته معصومة بمجموعها ، وأن كل طالب علم تفوق في جانب ، وتفوق غيره في جانب آخر ؛ فلا بد في العلم من الأخذ والعطاء ، لذلك اعتمدت في بعض الموضوعات وهي قليلة ، وفي بعض أجزاءها ، على كتب قيمة ، أشرت إليها في قائمة المصادر والمراجع وذكرت أسماء مؤلفيها .

وبما أن الكمال لله وحده ، وبما أن كل إنسان ، يؤخذ منه ويرد عليه ، إلا صاحب القبة الخضراء سيدنا محمد ﷺ ، فإنني أنتظر من الإخوة القراء - كما عودوني في كتاب النظرات - تنفيذاً لوصية سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما قال : « أحب الناس إلي من رفع إلي عيوبي » ، أن يتفضلوا بإبداء ملحوظاتهم حول مضامين الكتاب وأدلتها ، ونصوصه واستنباطاتها ، وقصصه التاريخية ودلالاتها ، وموضوعاته العلمية وارتباطاتها ؛ لأخذ بها في الطبعات القادمة إن شاء الله تعالى . فالكتاب لا يزيد عن تأملات في الإسلام ، فإن أصبت فمن توفيق الله وفضله ، وإن لم أصب فمن تقصيري وضعف حيلتي .

فالحق فوق الجميع ، والمضامين فوق العناوين ، والحقيقة فوق الأشخاص ، فالمؤمنون بعضهم لبعض نصيحة متوادون ، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون ، ويروى أن إماماً لقي غلاماً وأمامه حفرة ، فقال له : إياك يا غلام أن تسقط ، فقال

له الغلام : بل إياك يا إمام أن تسقط ؛ إني إن سقطت سقطت
وحدي ، وإنك إن سقطت سقط معك العالم ، لذلك مامن أحد
أصغر من أن يُنقد ، وما من أحد أكبر من أن يُنقد .

ولا بد من أن أنوه أيضاً بفضل بعض الإخوة الذين أجلهم
وأحبهم ، والذين شاركوا في تصميم البرامج التي أفرغت فيها أصول
الكتاب ، والذين نفذوها وطوروها ، والذين نقحوا النصوص
ودققوها ، والذين راجعوا الأحاديث الشريفة وخرجوها ، والذين
أخرجوا الكتاب وطبعوه ، وأخص بالشكر دار المكتبي للطباعة والنشر
والتوزيع ، على حرصها أن يقترب الكتاب من درجة الكمال .

ولا يسعني إلا أن أدعو فأقول : جزى الله عنا سيدنا محمد ﷺ
ما هو أهله ، وجزى عنا أصحابه الكرام ما هم أهله ، وجزى عنا
والدينا ، وأساتذتنا ، ومشايخنا ، ومن علمنا ، ومن له حق علينا
ما هم أهله .

أعوذ بك يارب... أن يكون أحد أسعد بما علمتني مني ، وأعوذ
بك أن أقول قولاً فيه رضاك ، ألتمس به أحداً سواك ، وأعوذ بك من
فتنة القول ، كما أعوذ بك من فتنة العمل ، وأعوذ بك أن أتكلف ما
لا أحسن ، كما أعوذ بك من العجب فيما أحسن .

محمد راتب النابلسي

أستاذ محاضر في كلية التربية بجامعة دمشق

خطيب جامع الشيخ عبد الغني النابلسي

مدرس ديني في مساجد دمشق

الباب الأول الحقائق

العبادة

العبادة في الإسلام ، ما حقيقتها ؟ وما غاياتها ؟
وما خصائصها ؟ .

العبادة علة وجودنا ، وسر سعادتنا في الدنيا ، وثمر جنة ربنا
في الآخرة .
قال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

إنها غاية الخضوع لأمر الله ، وغاية محبته ، فمن أطاعه ، ولم
يحبه ، لا يكون عابداً له ، ومن أحبه ، ولم يخضع له ، لا يكون
عابداً له .

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمرى في المقال شنيع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع
في العبادات جانب سلوكي ، إنه الطاعة الطوعية والانقياد
إلى الأمر التكليفي فعلاً وتركاً ، وفي العبادة جانب نفسي ،

هو الحب الغامر للمنعم الذي أنعم ، أنعم بنعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى والرشاد .

لابد لهذه الطاعة الطوعية من معرفة يقينية تسبقها ، كما أنه لابد لهذه الطاعة الطوعية من سعادة حقيقية تفضي إليها ، تلك السعادة التي خلق الإنسان من أجلها ، قال تعالى : ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود : ١١٩] .

السؤال المهم ، لماذا فرض الله علينا عبادته وطاعته ؟ وهو الغني عنا ! إنه تبارك اسمه لا تنفعه عبادة من عبده ، ولا يضره إعراض من صدّ عنه ، ولا يزيد في ملكه حمد الحامدين ، ولا ينقصه جحود الجاحدين ، هو الغني ونحن الفقراء إليه ، هو الودود الكريم ، والبر الرحيم ، لا يأمرنا إلا بما فيه خيرنا وصلاحنا .



إذا انتقلنا من تعريف العبادة إلى غاياتها العظيمة ، وأهدافها النبيلة نجد :

أولاً :

أن العبادة غذاء النفس ، فكما أن الجسم غذاؤه الطعام والشراب فالنفس التي بين جنبيك غذاؤها العبادة ، فليس الإنسان

هو هذا الغلاف المادي الذي نحسه ونراه ، ولكن حقيقة الإنسان هو ذلك الجوهر النفيس الذي صار به سيد المخلوقات ، هذا الجوهر الذي يحيا ويسعد بذكر الله ، والإقبال عليه ، ويهلك ويشقى بالغفلة والبعد عنه ، قال تعالى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ٩-١٠] .

إن القلب الإنساني دائم الشعور بالحاجة إلى الله ، وهو شعور أصيل ، لا يملأ فراغه شيء في الوجود ، إلا حسن الصلة برب الوجود ، وهذا هو جوهر العبادة .

ثانياً :

العبودية الحققة لله سبيل إلى الحرية الحقيقية ، إن العبودية الخالصة لله جل جلاله هي عين الحرية ، وسبيل السيادة الحقيقية ، فهي وحدها تعتق القلب من رق المخلوقين ، وتحرره من الذل والخضوع لكل ما سوى الله من أنواع الآلهة والطواغيت ، التي تستعبد الناس ، وتسترقهم أشد ما يكون الاسترقاق والاستعباد ، ذلك أن في قلب الإنسان حاجة ذاتية إلى رب ، إلى إله ، إلى معبود يتعلق به ، ويسعى إليه ، ويعمل على رضاه ، ويلتجئ إليه ، ويلوذ بحماه ، لأن الإنسان خلق ضعيفاً ، ليفتقر في ضعفه ، فيسعد في افتقاره ، ولو خلق قوياً لاستغنى بقوته ، فشقى في استغنائه . فإذا لم يكن هذا المعبود هو الله الواحد الأحد ، تخبط في عبادة آلهة شتى ، وأرباب آخرون

مما يرى ومما لا يرى ، ممن يعقل ومما لا يعقل ، مما هو موجود وما ليس بموجود إلا في الوهم والخيال ، يقول أحد العلماء : كل من استكبر عن عبادة الله لابد من أن يعبد غيره ، يسترقه ويذله ، ولن ينجو القلب من استعباد المخلوقين واسترقاقهم إلا أن يكون الله خالق السماوات والأرض ، ورب العالمين هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه ، ولا يستعين إلا به ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه ، ولا يكره إلا ما يبغضه ويحرمه ، ولا يوالي إلا من يواليه ، ولا يعادي إلا من يعاديه ، ولا يحب إلا الله ، ولا يبغض إلا الله ، ولا يعطي إلا الله ، ولا يمنع إلا الله ، وكلما قوي إخلاصه لله كملت عبوديته له ، واستغناؤه عن خلقه ، وبكمال عبوديته لله تكمل براءته من الكبر والشرك .

ثالثاً :

من أهداف العبادة ، أنها ابتلاء إلهي ، فالحياة الدنيا التي نحياها طالت ، أو قصرت ، ليست هي الغاية ، ولا إليها المنتهى ، إنها حياة دنيا فانية ، جعلها الله إعداداً لحياة عليا باقية ، وشاءت حكمة الله جل جلاله أن يركب في الإنسان عناصر مزدوجة ، بعضها يسمو به وبعضها يهوي به ، ففيه العقل والإرادة ، وفيه الغريزة والشهوة ، والحفظ التي منحه الله إياها كالجمال والقوة والذكاء حيادية ، يمكن أن يجعلها الإنسان سلماً يرقى بها ، ويمكن أن يجعلها دركات يهوي بها ، تسعده أو تشقيه ، تكون سبباً لدخوله الجنة ، أو سبباً لدخوله

النار ، لقد أودعت فيه الغرائز والشهوات ، ومنح نعمة العقل والإرادة ، ثم رسم له منهج من عند خالقه ، كُلف أن يسير عليه ، وأن يطبق تفاصيله ، فإما أن يحكم عقله ، ويستعمل إرادته ، فيطبق منهج ربه ، فيسعد في الدنيا والآخرة ، وإما أن يحكم غريزته ، ويستجيب لشهوته ، فيعرض عن منهج ربه ، فيشقى في الدنيا والآخرة ، قال تعالى :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

[الكهف : ٧] .

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾

[الإنسان : ٢] .

رابعاً :

العبادة حق الله على عباده ، روى البخاري ومسلم عن معاذ بن جبل قال : « كنت رديف النبي ﷺ فقال لي : يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً »^(١) .

وقد ورد في الأثر القدسي : « إني والإنس والجن في نبأ عظيم ، أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر سواي ! »^(٢) . وفي حديث قدسي آخر عن علي بن أبي طالب : « خيري إلى العباد

(١) رواه البخاري ٤٤/٦ ، ومسلم رقم ٤٩/٣٠ .

(٢) رواه البيهقي والحكيم الترمذي عن أبي الدرداء .

نازل ، وشرهم إلي صاعد ، أتجب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إلي بالمعاصي ، وهم أفقر شيء إلي» (١) .

فليس بمستنكر أن يكون لله علينا حق عبادته وحده ، بل المستنكر أن يكون غير هذا ، المستنكر أن نعبد ما دون الله ، أو من دون الله ، فنؤدي الحق لغير أهله ، إننا لم نكن شيئاً مذكوراً ، خرجنا من ظلمة العدم إلى نور الوجود ، ثم كنا نوعاً مكرماً من الخليقة ، خلّقنا في أحسن تقويم ، وصورنا في أحسن صورة ، علمنا البيان ، أوتينا العقل والإرادة ، سخرت الكائنات لخدمتنا ، فالعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى أنواع النعم ، كنعمة الحياة ، والرزق والهداية ، وأقل القليل من العبادة أكبر من أن يستحقه أي مخلوق كائناً من كان ، لذلك لا يستحق العبادة إلا الله ، العبادة حق الله على عباده .

خامساً :

العبادة طلب للجنة ونجاة من النار ، لا يضير العابد ، ولا يقلل من قيمة عبادته ، أن تكون عبادته طلباً لثوابه ، وخوفاً من عقابه ، طلباً لجنته ، وهرباً من ناره ، لقد وصف الله تعالى صفوته من خلقه ؛ وصف الأنبياء والرسل ، والصديقين والصالحين بأنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ، ولو لم يكن هذا مطلوباً لما وصف الله الجنة للعباد وزينها لهم ، وأخبرهم عن تفصيل ما تصل إليه عقولهم منها ، ولما وصف لهم النار ،

(١) رواه الديلمي والرافعي .

وخوفهم منها ، وأخبرهم عن تفصيل ما تصل إليه عقولهم منها ،
والحقيقة أن الجنة ليست اسماً لمجرد الأشجار والفواكه والثمار
والطعام والشراب والحدود العينية والأنهار والقصور ، بل هي اسم
لدار النعيم المطلق الكامل ، ومن أعظم نعيم الجنة النظر إلى
وجه الله الكريم ، وسماع كلامه ، وقرّة العين بالقرب منه ،
وبرضوانه ، فأيسر اليسير من رضوانه ، والنظر إلى وجهه الكريم
أكبر من الجنان وما فيها ، قال تعالى :

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة : ٢٢-٢٣] .

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة : ٧٢] .

سادساً :

عبادة المؤمن لربه نوع من الأخلاق لأنها من باب الوفاء لله عز
وجل ، والشكر لنعمه ، والاعتراف بالجميل ، والتوقير لمن هو
أهل للتوقير ، والتعظيم ، وكلها من مكارم الأخلاق ، عند
الفضلاء من الناس ، لذلك نجد القرآن الكريم يعقب على أوصاف
المؤمنين ، القانتين ، المطيعين بقوله :

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [البقرة : ١٧٧] .

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات : ٤٩] .

﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم : ٣٧] .

لأن أعلى مراتب الصدق أن يكون الإنسان صادقاً مع الله ،
شاكراً لأنعمه ، وفياً له بخدمة خلقه ، أخلاق المؤمن لون من
عبادته لربه ، أخلاقه أخلاق ربانية ، باعثها الإيمان بالله ،

وحاديها الرجاء في جنته وغرضها رضوان الله ومثوبته ، فهو يصدق الحديث ، ويؤدي الأمانة ، ويفي بالعهد ، وينجز الوعد ، ويغيث اللهفان ، ويعين الضعيف ، ويرحم الصغير ، ويوقر الكبير ، ويصبر في البأساء والضراء وحين البأس .

﴿ إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴾ [الإنسان : ٩] .

أخلاق المؤمن عبادة من زاوية أخرى ، وهي أن مقياسه في الفضيلة والرذيلة هو أمر الله ونهيه ، فالضمير وحده ليس بمعصوم ، وكم من أفراد وجماعات رضيت ضمائرهم بقبائح الأعمال ، والعقل وحده ليس بمأمون ، لأنه محدود بالبيئة والظروف ، ومتأثر بالأهواء والنزعات ، والعرف وحده لا ثبات له ولا عموم ، لأنه يتغير من جيل إلى جيل وفي الجيل الواحد من بلد إلى بلد ، وفي البلد الواحد من إقليم إلى إقليم ، لذلك التجأ المؤمن إلى المصدر المعصوم ، المأمون الذي لا يضل ولا ينسى ، ولا يتأثر ولا يجور ، ذلك هو حكم الله ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون .

سابعاً :

العبادة هي الأداة الوحيدة لتربية الضمير ، أو هي السبب الوحيد لمكارم الأخلاق الأصلية التي لا تنبع من المصالح ، ولا تتأثر بها ، فالله جل جلاله أصل الخير والحق والجمال ، والإنسان من خلال عبادته ، واتصاله بربه ، يشتق من مكارم الأخلاق ، ما يتناسب مع حجم استقامته ، وعمله الصالح

وإخلاصه وصدقه ، فأشد البشر اتصالاً بربه أعلاهم خلقاً ومنزلةً ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهِنَّ أجمعِينَ ﴾ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر : ٩٢-٩٣] .

لذلك ننكر أن يقوم الإنسان فلا يُجعل لعبادته وزنٌ في تقويمه وتقديره ، وهذا ما حذر منه النبي ، ﷺ ، وتنبأ به حينما قال :

« يأتي على الناس زمان يقال للرجل فيه : ما أظرفه ما أعقله ما أجملده ، وما في قلبه مثقال حبة من إيمان » ^(١) .

إننا نقرأ القرآن الكريم فنجد صورة تفصيلية للشخصية المؤمنة :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ
الْغَوْرِ مَعْرُضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾
فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحْفَظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ
يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون : ١-١١] .

انظر كيف جعل الله أول أوصاف المؤمنين ، الخشوع في الصلاة وآخر أوصافهم المحافظة عليها ، وصفهم بفعل الزكاة ،

(١) رواه البخاري ومسلم .

وهي عبادة مع الفضائل الخلقية الأخرى ، إعراضهم عن اللغو ،
عفتهم ، حفظهم للأمانة ، رعايتهم للعهد .

* * *

بعد أن انتهينا من أهداف العبادة الكبرى ، وغاياتها ، ننتقل
إلى خصائصها وشروطها .

أولاً :

لا يعبد إلا الله وحده ، إن توحيد الله ، وعبادته هي مضمون
الرسالات السماوية كلها ، قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

بل إن سرّ الإسلام - على سعة تعاليمه - يتجلى في دستوره
الخالد الذي هو القرآن الكريم ، وسرّ هذا الدستور يتركز في فاتحته
أم القرآن الكريم ، والسبع المثاني ، وسرّ هذه الفاتحة يتلخص في
هذه الآية الكريمة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

أي لا نعبد أحداً غيرك ، ولا نستعين بكائنٍ سواك ، فالعبادة
نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم ، لذلك يعدّ الشرك هواناً
لا يليق بكرامة الإنسان ، وأي هوان يصيب الإنسان ، حينما يعبد
ماسخر له ، من حجر ، ومدر ، وشمس ، وقمر ، وجن ،
وبشر ، كيف يسجد الإنسان لها ، وهي له مسخرة ، وفي

مصلحته وخدمته مذلة ، كيف يسجد لها وقد سجدت له
 الملائكة ، بأمر الله ، تحية له ، واحتفاءً به ؟ ! وقد سد الإسلام
 كل ذريعة تفضي إلى الشرك فقد روى أحمد والبخاري في الأدب
 المفرد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال للنبي ﷺ ،
 ما شاء الله وشئت فقال عليه الصلاة والسلام « أجعلني لله نداً ؟ !
 قل : ما شاء الله وحده » (١) .

وروى الطبراني أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين
 فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ،
 فقال النبي ﷺ : « إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله جل
 جلاله » (٢) .

ثانياً :

لا وسطاء بين الله وخلقه ، بالمعاني المستنبطة من الممارسات
 الخاطئة ، اعتقاد المسلم في الله يقوم على حقيقتين ؛ أنه تعالى
 فوق عباده علواً ، وقهراً ، وسلطاناً ، وتصرفاً ، لا يشبهه شيء ،
 ولا يحكم عليه شيء ، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد ، وهو القاهر
 فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير ، ليس كمثله شيء ، وهو
 السميع البصير ، والخلق جميعاً عبيد في قبضته ، لا يملكون
 لأنفسهم - فضلاً عن غيرهم - ضراً ، ولا نفعاً ، ولا موتاً ، ولا

(١) حديث صحيح .

(٢) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث كما قال
 الهيثمي في مجمع الزوائد ١٥٩/١٠ .

حياةً ، ولا نشوراً ، وهو - مع عظمته ، وعلو شأنه - قريب من خلقه ، بل هو معهم أينما كانوا في جلوتهم ، وفي خلوتهم ، يسمع ويرى ، ويرعى ، ويهدي ، ويعطي من سألته ، ويجيب من دعاه ، هو تعالى قريب في علوه ، عليّ في دنوه ، قد جمع الله تعالى بين العظمة والعلو ، وبين القرب والدنو في آية واحدة ، قال تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤] .

والله أجل وأعلى من أن يكون له وسطاء بينه وبين خلقه ، يعلمونه من أمر الناس ما لم يكن يعلم ، ويوجهون إرادته إلى ما لم يكن يريد ، وهو سبحانه وتعالى أكرم وأجل من أن يدع رحمته وجنته بأيدي أناس يوزعونها بالأسهم والقراريط ، فله وحده الخلق والأمر ، وله وحده الملك ، وله وحده العقوبة والعفو ، وهو على كل شيء قدير .

ثالثاً :

العبادة المقبولة عند الله تعالى ليست هي الشبح الخالي من الروح ، إنما تصاحبها النية الصادقة ، ويسري فيها روح الإخلاص سريان العصارة في الشجرة الناضرة ، فتؤتي في النفس أكلها ، وتثمر في الخلق والسلوك ثمرتها ، روى الطبراني بإسناد صحيح ، قال : كان فينا رجل خطب امرأةً يقال لها أم قيس ، فأبت أن

تتزوج حتى يهاجر إلى المدينة ، فهاجر إلى المدينة وتزوجها ،
فكنّا نسّميه مهاجر أمّ قيس^(١) .

قال عليه الصلاة والسلام :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن
كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن
كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى
ما هاجر إليه »^(٢) .

قال الحافظ في الفتح : « قد تواتر النقل عند الأئمة في تعظيم
قدر هذا الحديث ، فليس في أخبار النبي ﷺ شيء أجمع وأغنى
وأكثر فائدة من هذا الحديث » . واتفق الشافعي وابن حنبل وأبو
داود والترمذي على أنه ثلث الإسلام ، وقال الشافعي : يدخل هذا
الحديث في ستين باباً من أبواب العلم .
اللهم إنا نعوذ بك أن نقول قولاً فيه رضاك نلتمس به أحداً
سواك .

رابعاً :

لا يكفي أن يقصد المسلم بعبادته وجه الله وحده ، وألا يتجه
إلى أحد غيره ، بل لا بد من أن تكون عبادة الله بالصورة التي
شرعها الله ، وبالطريقة التي ارتضاها ، قال تعالى :

-
- (١) قال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح ، وقال ابن حجر : إسناده صحيح على
شرط الشيخين (انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب) .
(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَكُنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] .

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً .

وقال الفضيل بن عياض ، في قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوكُمُ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ قال : أخلصه وأصوبه ، قيل : يا أبا علي ما أخلصه وما أصوبه ؟ قال :

« إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لا يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لا يقبل » ، والخالص ما ابتغي به وجه الله ، والصواب ما وافق السنة ، وجماع الدين أصلاً أن لا نعبد إلا الله وأن لا نعبد إلا بما شرع ، فقد ورد في صحيح مسلم :

« من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد ، ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد »^(١) .

فالله - وحده - هو المشرع ، والنبي - وحده - هو المبلغ ، ونحن المتبعون ، وفي الاتباع الخير كله ، قال تعالى :

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه : ١٢٣] .

(١) متفق عليه من حديث عائشة .

وفي أول خطبة خطبها سيدنا الصديق رضي الله عنه :
قال : « إنما أنا متبع ولست بمبتدع » .

إن الابتداع في الدين ، هو الكوة التي تسلل منها الشيطان إلى عامة المتدينين ، أفسد عليهم دينهم ، وحياتهم ، خرب عليهم عقائدهم وعباداتهم ، فتح عليهم أبواباً من الفساد لم يستطيعوا بعد إغلاقها ، فمن طريق الابتداع ، زحف الشرك ، ودخل الوثنية على أمم أشركوا بالله ، ما لم ينزل به سلطاناً ، وعبدوا من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، قائلين هؤلاء شفعائنا عند الله ، ومن طريق الابتداع جاء الغلو في الدين ، والتنطع فيه ، ودخل الحرج ، والعنت ، والآصار والأغلال ، على أتباعه ، واخترع الناس ألواناً شتى من العبادات ، كلها عنت وإرهاق ، ومن طريق الابتداع ، حرم الغلاة ما أحل الله من الزينة والطيبات ، أهملوا الدنيا باسم الدين ، وخربوا العمران بدعوى الإيمان ، وعذبوا الأجساد بدعوى تصفية الأرواح .

ومن طريق الابتداع في الدين حدثت التحريفات الهائلة ، والانحرافات الشنيعة ، وقع فيها رجال ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

إن مجال الابتداع والابتكار ليس هو الدين ، الدين توقيف من الله ، يجب أن يبقى مصوناً ، منزهاً عن عبث العابثين ، وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

أما مجال الابتداع الحقيقي ، والابتكار ، والتحديث ، والتجديد هو الدنيا وشؤونها ، وما أحوج المسلمين إلى تطوير دنياهم ، وتنويع سبل رزقهم ، وتنمية دخولهم ، واستغلال ثرواتهم ، التي أودعها الله في أرضهم ، وتصنيعها بأيديهم ، ما أحوجهم إلى أن يأكلوا مما يزرعون ، وأن يلبسوا مما ينسجون ، وأن يستخدموا من الآلات ما كان من اختراع عقولهم ، وصنع أيديهم ، ليتحرروا من تحكم الآخرين بهم .

مر عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، ببلدة من رعاياه ، فوجد فيها أن الفعاليات المعيشية ليست بأيدي أبناء هذه البلدة ، فوبخهم ، وعنفهم ، وقال لهم : كيف بكم وقد أصبحتم عبيداً عندهم . لقد أدرك هذا الخليفة الراشد - ببعد نظره - أن المنتج هو القوي ، وأن المستهلك هو الضعيف ، وأن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف ، وقد أمسك رسول الله ﷺ بيد ابن مسعود وكانت خشنه من العمل ، رفعها أمام أصحابه ، وقال : « إن هذه اليد يحبها الله ورسوله » .



الجهة الصانعة ، هي وحدها ، ينبغي أن تُتبع تعليماتها في استعمال الآلة ، وصيانتها وفي تحسين مردودها ، لأنها الخبيرة بما تصنع ، ولا ينبئك مثل خبير ، والعبادة - في جوهرها - انقياد طوعي ، واتباع تفصيلي لمنهج الله خالق الناس ، ورب الناس ،

وإله الناس ، وهذا المنهج - منهج الله عز وجل - مرتبط أشد الارتباط بسنن الخلق وقوانين الكون ، فالعلاقة بين الأمر الإلهي ونتائجه ، وبين النهي ونتائجه علاقة علمية ، أي علاقة سبب بنتيجة ، من بنود هذا المنهج أن الله - جل جلاله - حرم تحريماً مطلقاً تناول لحم الميتة والدم ، فلما أطعم البقر في بلاد أخرى الدماء ، ولحوم الجيف مسحوقاً ومجففة أصيبت بمرض خطير في دماغها اسمه الاعتلال الدماغي الإسفنجي ، من أبرز أعراضه ، عدم التحكم العصبي ، والسلوك العدواني ، لذلك سمي هذا المرض اختصاراً بجنون البقر ، والأخطر من هذا أن هناك احتمالاً كبيراً ، انطلق من حالات عدة ، يعكف الباحثون على دراستها ، بغية التحقق من انتقال المرض من البقر إلى البشر ، من طريق تناول اللحوم المصابة ، ودهونها ، وشحومها ومسحوق عظامها ، ومنتجاتها ، وألبانها ، وأحشائها ، ومخلفاتها والأعلاف المصنوعة منها ، ومواد التجميل المحضرة من دهونها ، ومن أبرز أعراض هذا المرض في بني البشر ، قلق ، واكتئاب ، وفقدان الذاكرة ، وفقد التناسق العضلي ، وفقد التوازن الحركي ، والعمى ، وفقد النطق ، ثم الوفاة بعد عام من ظهور الأعراض .

والعوامل المسببة للمرض بالغة الصغر ، لم تعرف حتى الآن ، ذات دور حضانة طويل ، يمتد إلى عدة سنوات ، وليس له مظهر التهابي مناعي ، هذه المسببات تتحمل حرارة تصل إلى مئة وعشرين درجة مئوية لمدة ساعة كاملة ، هم في تلك البلاد

مضطرون لإحراق أحد عشر مليون بقرة ، قيمتها ثلاثة وثلاثون ملياراً من عملتهم .

لقد صممت البقرة لتأكل علفاً نباتياً ، فلما أطعموها ما حرم الله تناوله ميتة ودماً أصيبت بالجنون ، وما جنون البقر إلا من جنون البشر ، حيث خالفوا تعليمات الصانع ، قال تعالى :
دققوا في هذه الآية . . .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾
وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُمْ فِيهَا مَتَّعُونَ وَمَشَارِبٌ أَفْلا
يَشْكُرُونَ﴾ [يس : ٧١-٧٣] .

إنهم يغيرون خلق الله والأولى أن يتبعوا العليم الخبير ، قال
تعالى :

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ
الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم : ٤١] .

وقد اتخذت - والحمد لله - في بلدنا الطيب احتياطات بالغة ،
لتمنع وصول هذه المشكلة إلينا .

* * *

الفطرة

لقد أودع الله في مدارك الأفكار ، وفي مشاعر الوجدان ، ما تدرك به فضائل الأخلاق ورذائلها ، وهذا ما يجعل الناس يشعرون بقبح العمل القبيح وينفرون منه ، ويشعرون بحسن العمل الحسن ويرتاحون إليه ، وبذلك يمدحون فاعل الخير ، ويذمون فاعل الشر ، لقد أرشدت النصوص الإسلامية إلى وجود الحس الأخلاقي في الضمائر الإنسانية ، وأحالت المسلم المؤمن إلى استفتاء قلبه في الحكم على أي سلوك قد تميل النفس إليه .

قال تعالى :

﴿ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا ۖ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۗ ﴾ [الشمس : ٦-١٠] .

فالنفس الإنسانية - منذ تكوينها وتسويتها - ألهمت في فطرتها إدراك طريق فجورها ، وطريق تقواها ، وهذا هو الحس الفطري الذي تدرك به الخير من الشر .

الإنسان لديه بصيرة ، يستطيع أن يحاسب بها نفسه محاسبةً

أخلاقيةً على أعماله ومقاصده ، ولو حاول - في الجدل اللساني -
الدفاع عن نفسه ، وإلقاء معاذيره على غيره .

قال تعالى :

﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۚ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ ﴾ [القيامة : ١٤-١٥] .

وروى الإمام مسلم ، في صحيحه ، عن النواس بن سمعان أن
رسول الله ﷺ قال :

« البرُّ حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن
يطلع عليه الناس »^(١) .

هذا الحديث يدلّ على أن في النفس الإنسانية حساً خلقياً
بالإثم ، لذلك يكره فاعل الإثم أن يطلع عليه الناس ، لأنه يعلم
أنهم يشعرون بمثل ما يشعر ، وذلك بحسٍّ أخلاقي موجود في
أعماق النفس ، هذا الحس هو ما أسماه الباحثون الأخلاقيون
بالضمير .

روى الإمام أحمد والدارمي بإسنادٍ حسن عن وابصة بن معبد
قال : أتيت رسول الله ﷺ فقال :

« جئتُ تسأل عن البر ؟ قلت : نعم ، قال عليه الصلاة
والسلام : استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه
القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وإن أفتاك
الناس وأفتوك »^(٢) .

(١) أخرجه مسلم ٢٥٥٣ .

(٢) رواه أحمد ٢٢٨/٤ والدارمي ٢٤٥/٢ .

في هذا الحديث الشريف تبيانٌ واضحٌ للحس الأخلاقي ،
وليس هناك ما يمنع أن نسميه بالضمير الأخلاقي ، هذا الضمير إذا
كان نقياً ، صافياً ، سليماً من العلل ، والأمراض ؛ فإنه يستطيع
أن يحس بفضائل الأخلاق ، ومحاسن السلوك ، وأن يحس برذائل
الأخلاق ، ومساوئ السلوك ، وأن يميز بين الصنفين .

البرّ المفسر في كلام رسول الله ﷺ بأنه حسن الخلق ، يفعله
الإنسان السوي ، وهو مطمئن القلب ، مطمئن النفس ، أما الإثم
فإن الإنسان السوي لا يقدم عليه إلا وفي نفسه قلق منه ، وفي
صدره تردد واضطراب ، فالطمأنينة علامة البرّ ، والتردد ،
والاضطراب ، وخوف إطلاع الناس ، علامة الإثم ، ولكن قد
يختلط الأمر في بعض الأعمال على العقل والضمير ، ويلتبس
عليهما وجه الحق ، فيكونان حينئذ في حاجة إلى هداية وتبصير ،
وقد تغطي الأهواء والشهوات ، أو العادات والتقاليد ، أو يؤثر
فيهما الموجهون المضللون ، أو الشياطين الموسوسون ، من الجن
والإنس .

وطريقة المسلم في هذه الحالة هي اتقاء الشبهات ، فإذا كان
اتقاء الشبهات في جانب الترك ، لأن الأمر مشتبّه بين الحلال
والحرام ، كان الأفضل للمسلم أن يترك العمل المشتبّه فيه ،
خشية الوقوع في الحرام ، وإذا كان اتقاء الشبهات في جانب
الفعل ، لأن الأمر مشتبّه بين الحلال والواجب ، كان الأفضل
للمسلم أن يأتي بالعمل المشتبّه فيه ، خشية الوقوع في ترك
الواجب .

والدليل على هذه الطريقة التي ينبغي للمسلم أن يتبعها ،
ما رواه البخاري ومسلم من عدة طرق ، عن النعمان بن البشير ،
قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن بينهما مشتبهات لا يعلمهن
كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ،
ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى
يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله
محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله
وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب »^(١) .

هذا الحديث الشريف الصحيح من أحاديث الأصول الجوامع ،
وفيه كليات عظيمة ، تتصل بأمهات السلوك ، وفيه تقسيم ثلاثي
للأحكام الشرعية ، فالقسم الأول هو الحلال الصرف ، البيّن ،
الواضح الذي لم تخالطه شبهة ، ولا يختلف فيه الناس ، ولا
تتأثم منه النفوس ، ولا تتحرج ، والقسم الثاني الحرام الصرف
البيّن ، الواضح ، لا يختلف فيه عقلاء الناس ، وأصحاب
البصيرة ، ولا يفعل فاعل إلا وفي نفسه حرج وشعور بالإثم ،
وخوف من سوء المصير ، والقسم الثالث المشتبهات ، وسميت
بذلك لأن لها شبهاً بالحلال ، يزيد وينقص ، وشبهاً بالحرام ،
يزيد وينقص ، وهي تلتبس وتختلط على كثير من الناس ، ولكن
لا على كل الناس ، بله العلماء المحققين ، وقد جاءت كلمة

(١) أخرجه البخاري ٥٢ ومسلم ١٥٩٩ .

الشبهات جمعاً ، لأنها كثيرة جداً بالنسبة إلى الحلال والحرام ، وجاءت جمعاً ، لأنها متفاوتة في قربها من الحلال ، وقربها من الحرام ، والأسلم للمسلم الصادق في استسلامه إلى ربه ، أن يدع هذه الشبهات ، استبراءً لدينه عند الله ، وعرضه عند الناس ، وقد قال رسول الله ﷺ :

« دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »^(١) .

وعن عطية بن عروة السعدي ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس »^(٢) .

ولمّا كان الإنسان مزوداً في أصل كيانه بعقل ، إذا أعمله متفكراً في خلق السماوات والأرض ، أوصله إلى الإيمان بالله ، خالقاً ، ومريباً ومسيراً ، موجوداً ، وواحداً ، وكاملاً .

ولمّا كان الإنسان مزوداً - في أصل فطرته - بحسٍّ أخلاقي كافٍ لإدراك الخير والشر ، والحق والباطل ، من دون معلم ، ولا موجه ولا كتاب منير ، إنه مزود بعقل يدلّه على الله ، ومزود بفطرة تدلّه على خطئه ، لذلك بما أنه مزود - في أصل كيانه - بعقل ، وفي أصل فطرته بضمير ، كافيين لمعرفة عظمة الله ، ولمعرفة حال

(١) رواه الترمذي عن الحسن بن علي وقال حديث حسن صحيح رقم ٢٥٢٠ والنسائي ٣٢٧/٨ وأحمد ٢/١ .

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

نفسه ، يُقال له يوم القيامة عندما يُسلم كتاب عمله :

﴿ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : ١٤] .

أي ؛ إنك ستحاسب نفسك ، لأنك تملك ميزانين ، ميزان العقل وميزان الفطرة .

وفضلاً عن الحس الأخلاقي الذي أودعه الله في الإنسان إدراكاً وشعوراً ، هنالك قواعد هادية للبصيرة الأخلاقية ، نبه عليها النبي ﷺ ، من هذه القواعد :

« عامل الناس كما تحب منهم أن يعاملوك » .

وقد جاء هذا المعنى في حديث طويل ، رواه الإمام مسلم ، عن عبد الله بن عمر ، وفيه يقول عليه الصلاة والسلام :

« من أحب أن يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة ، فلتأْتِه مَنِيَّتُهُ وهو يؤمن بالله ، واليوم الآخر ، وليأتِ إلى الناس ، الذي يحب أن يؤتى إليه »^(١) .

فكلما اشتبه على الإنسان أمر السلوك ، عليه أن يضع نفسه مكان الطرف الآخر ، ويفترض أن الأمر كان معكوساً ، فالأمر الذي يستحسنه لنفسه من الآخرين - مما لا معصية فيه - هو الأمر الذي ينبغي أن يفعله معهم ، لذلك على المؤمن أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأن يكره له ما يكره لنفسه .

(١) أخرجه مسلم ١٨٤٤ .

روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أنه قال :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »^(١) .

ومن هنا يندفع المسلم إلى أن يكون صادقاً مع أخيه ، لأنه يحب أن يصدق الناس إذا حدثوه ، ويكره أن يكذبوه ، ويندفع المؤمن إلى أن يكون أميناً على مال أخيه ، وعرضه ، وشرفه ، لأنه يحب أن يعامله الناس بأمانة على ماله ، وعرضه ، وشرفه ، ويكره أن يخونوه بشيء من ذلك ، ويندفع المؤمن إلى مساعدة أخيه ومعاونته ، في مال ، أو علم ، أو جاه ، أو خدمة ، أو نصيحة ، أو دعوة صالحة ، أو شفاعاة حسنة ، لأنه يحب لنفسه مثل ذلك من إخوانه ، ويندفع المؤمن إلى دعوة أخيه إلى الإيمان الصادق ، والعمل الصالح ، لأنه أحب هذا لنفسه ، وهكذا تجد المسلم مدفوعاً إلى الصبر ، والعفو ، والصفح ، والمسامحة ، محاولاً جهده ستر العيوب ، وعدم نشرها بين الناس ، بل يبادر إلى نصيحهم سراً ، ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، إنه يفعل ذلك لأنه يحب أن يُعامل هكذا .

فما الهدف من التزام مكارم الأخلاق التي ترتاح إليها الفطرة والتي أمر بها الإسلام أو رغب بفعلها ؟

وما الهدف من اجتناب نقائص الأخلاق التي تنكرها الفطرة والتي نهى عنها الإسلام أو رغب في تركها ؟

(١) أخرجه البخاري ١٣ ومسلم ٤٥ .

الهدف من هذا وذاك ، هو الفوز بسلامة القلب ، وسعادته ،
ونيل الجزاء المعجل في الدنيا ، والنجاة من العقاب المعجل
فيها ، ثم الفوز العظيم بالسعادة المطلقة الأبدية في الآخرة .

لذات الجسد وآلامه أهون اللذات والآلام قيمة في حياة
الإنسان ، ولكنها تدخل ضمن الوحدات الجزئية التي تمنح
الإنسان قسطاً من السعادة ، لكنها كرهاً سريع الجفاف ، لا يملأ
ساحة النفس ، والقلب والفكر ، وتأتي فوق لذات الجسد لذات
النفس الدنيوية ، وآلامه وهي أعمق ، وأشمل ، وأطول ، ثم تأتي
فوق لذات النفس الدنيوية سعادة النفس الأخروية ، وهي تتغلغل
إلى أعماق أعماق الإنسان ، وتتسع حتى تشمل كل حياته ، وكل
نشاطاته ، وكل حركاته وسكناته ، وهي أبدية لا تزول أبداً ، لها
بداية مع بداية الإيمان ، وليس لها نهاية وهي متنامية دائماً .

قد تطفئ لذة النفس على ألم الجسد ، فلا يشعر الإنسان بألم
الجسد ، وقد تطفئ سعادة النفس الأخروية على ألم النفس
الدنيوي ، فلا يشعر الإنسان بهذا الألم ، وقد تطفئ آلام النفس
على لذات الجسد ، فلا تكون لهذه اللذات أية قيمة .

مجمل القول أن الإنسان إذا لزم مكارم الأخلاق التي ترتاح
إليها الفطرة ، والتي يطمئن إليها القلب ، يحقق الغاية من
وجوده ، ومن سلامة وجوده ، ومن كمال وجوده ، ومن استمرار
وجوده ، ذلك لأن في القلب شعثاً لا يلمه إلا الإقبال على الله ،
وفي القلب وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله ، وفيه حزن لا يذهب

إلا السرور بمعرفة الله ، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه ،
والفرار إليه ، وفي القلب نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا
بأمره ، ونهيه ، وقضائه ، وقدره ، والصبر على ذلك إلى يوم
لقائه ، وفي القلب فاقة لا يسدها إلا محبته ، والإنابة إليه ،
ودوام ذكره ، وصدق الإخلاص له .

ومجمل مجمل القول أن الإيمان أساس الفضائل ، ولجام
الرذائل ، وقوام الضمائر .

وقد بين النبي ﷺ :

أن أحسن الناس إسلاماً أحسنهم خلقاً ، وأن أكملهم إيماناً
أحسنهم خلقاً ، وأن من أحب عباد الله إلى الله أحسنهم خلقاً ،
وأن خير ما أعطي الإنسان خلق حسن ، وأنه ما من شيء أثقل في
ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وأن المؤمن ليدرك
بحسن خلقه درجة الصائم القائم ، بل إن العبد ليلبغ بحسن خلقه
عظيم درجات الآخرة ، والخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب
الماء الجليد ، والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل
العسل .



إليك قصة صحابي جليل ، هو كعب بن مالك ، تخلف عن
غزوة تبوك من دون عذر ، كيف كانت محنته مع نفسه ؟ وكيف
كان موقفه من رسول الله ﷺ ، ثم كيف انتهت محنته إلى منحة

إلهية ، وكيف انتهت شدته إلى شدةٍ إلى الله ورسوله ، هذه القصة متوافقة مع موضوع بحثنا توافقاً دقيقاً ، خرّج البخاري ومسلم حديث الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك ، فقد نزل فيهم قرآنٌ يتلى إلى يوم القيامة ، فقد روى الإمام مسلم عن كعب بن مالك قال :

« لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة قط إلا غزوة تبوك ، ولم أكن حين تخلفت عنه أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت ، لقد غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ، ومفازاً (أي صحارى) واستقبل عدواً كثيراً والمسلمون مع رسول الله ﷺ لا يجمعهم كتاب حافظ ، لقد غزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار ، وانتشرت الظلال ، وأنا إليها أميل ، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض شيئاً ، وأقول لنفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجّد ، وأصبح رسول الله ﷺ غازياً ، والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازي شيئاً ، ثم غدوت ورجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل كذلك يتمادى بي حتى أسرعوا ، وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل وأدركهم ، ولكن يا ليتني فعلت ، ثم لم يقدر لي ذلك ، فطفقت إذا خرجت في الناس ، بعد خروج رسول الله ﷺ إلى الغزو ، يحزنني أنني لا أرى لي أسوة في الناس إلا رجلاً منافقاً أو عاجزاً ضعيفاً ، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال عليه الصلاة والسلام وهو جالس في القوم : ما فعل كعب بن مالك ، فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفه ، فقال له معاذ بن جبل : بئس

ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً ، فسكت رسول الله ﷺ ، فلما بلغني أن رسول الله قد توجه قافلاً من تبوك ، حضرني حزني ، فطفقت أتذكر الكذب ، وأقول بما أخرج من سخطه غداً ، وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي ، فلما قيل لي إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً ، زاح عني الباطل ، حتى عرفت أنني لن أنجو منه بشيء أبداً ، فأجمعت صدقه وصبح رسول الله ﷺ قادماً ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد وصلى فيه ركعتين ، ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً فقبل عليه الصلاة والسلام منهم علانيتهم ، وبايعهم ، واستغفر لهم ووكّل إلى الله تعالى سرائرهم ، ثم جئت فلما سلمت عليه تبسم عليه الصلاة والسلام تبسم المغضب ثم قال : تعال ، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : ما خلفك يا كعب ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهراً (أي ناقة) ! فقلت : يا رسول الله ، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لخرجت من سخطه بعذر يقبله ، ولقد أعطيت جدلاً (أي فصاحةً وقوةً إقناع) ولكنني - والله لقد علمت - لئن حدثتك اليوم حديث كذب ، ترضى به عني ، ليوشكن الله أن يسخّطك عليّ ، ولئن حدثتك حديث صدق ، تجد عليّ فيه (تغضب عليّ فيه) إني لأرجو فيه عقبي الله عز وجل ، والله يا رسول الله ، ما كان لي عذر أبداً ، ووالله ما كنت قط أقوى ، ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، فقال عليه الصلاة والسلام : أما هذا فقد صدق (يعني هؤلاء الذين اعتذروا لم يكونوا صادقين) فقم حتى يقضي الله فيك ، فقمتم فقال لي

رجال من بني سلمة : والله ما علمنا أنك أذنبت ذنباً قبل هذا ، لو اعتذرت إلى رسول الله بما اعتذر إليه المتخلفون ، والله ما زالوا يؤنبوني حتى هممت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي .

للقصة تمة مثيرة ، ارجعوا إذا شئتم إلى كتب السيرة لتابعوا ماذا حدث بعد ذلك ، لكن الفصل الأخير من هذه القصة ، ذكره القرآن في سورة التوبة .

قال تعالى :

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة : ١١٧-١١٨] .

كعب بن مالك أحد هؤلاء الثلاثة الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم .

يقول النبي ﷺ :

« إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة » ^(١)

* * *

(١) رواه البخاري ٦٠٩٤ ومسلم رقم ٢٦٠٧ وأبو داود ٤٩٨٩ .

الوسطية

من خصائص هذا الدين الحنيف ؛ أنه رباني المصدر ، رباني المنهج ، رباني الغاية ، رباني الوجهة ، وأن هذا الدين الحنيف ، إنساني الطابع ، يشمل كل مكان ، وكل زمان ، ويصلح لكل مكان ، ولكل زمان ، وأن هذا الدين الحنيف واقعي ، بمعنى أنه لا يقبل الواقع السيئ ، لكنه يطرده بأدوات واقعية ، وأن هذا الدين الحنيف ، واضح لا يزيغ عنه إلا ضالّ ، وأنه يجمع ، بشكل معجز ، بين الثبات والتطور ، ومن أبرز خصائص هذا الدين الحنيف الوسطية ، أو التوازن ، وسيكون تناول هذا الموضوع ، إن شاء الله تعالى ، من زاوية معاني الوسطية في الإسلام ، ومن زاوية مظاهرها في العقيدة ، والمنهج ، في العبادات والمعاملات ، في الأخلاق والنظم .

من أبرز خصائص هذا الدين القويم الوسطية ، أو التوازن ، ونعني بالوسطية التوسط ، أو التعادل بين طرفين متقابلين ، أو متضادين ، بحيث لا ينفرد أحدهما في التأثير ، ويترد الطرف

الآخر ، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه ، ويطغى على الطرف الآخر ، ويحيف عليه ، فلا إفراط ، ولا تفريط ، ولا غلو ، ولا تقصير ، ولا طغيان ، ولا إفسار ، ولا شطط ، ولا وكس ، بل كلُّ يأخذ حقه بالقسطاس المستقيم ، فالإسلام وسط بين المادية المقيتة ، والروحية الحالمة ، بين الواقعية المرة ، والمثالية التخيلية ، بين الفردية الطاغية ، والجماعية الساحقة ، بين الثبات الرتيب ، والتغير المضطرب ، بين الحاجات الملحة ، والقيم البعيدة ، بين العقلانية الباردة ، والعاطفية المتقدمة ، بين نوازع الجسد ، ومتطلبات الروح .

والوسطية في الإسلام تنطلق من قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

من حكمة الله تعالى ، أنه اختار الوسطية ، أو التوازن شعاراً مميزاً ، لهذه الأمة التي هي آخر الأمم ، ولهذه الرسالة التي ختمت بها الرسالات ، إذ بعث بها خاتم أنبيائه ، رسولاً للناس جميعاً ، ورحمة للعالمين قاطبةً ، وقد فسرت هذه الوسطية بالعدل ، في قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

فالوسطية تعني العدل ، والعدل هو : توسط بين طرفين

متنازعين ، دون ميل ، أو تحيز لطرف ، أو لجهة ، والعدل : إعطاء كل ذي حق حقه ، دون بخس ، أو جور ، قال المفسرون ، في قوله تعالى :

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْزَأَقُلَّ لَكَوَلَا تُسَيِّحُونَ ﴾ [القلم : ٢٨] .

أوسطهم أي أعدلهم ، فأعدل بقاع الشيء وسطه ، ووسط الدائرة مركزها ، ثم استُعير الوسط للخصال البشرية المحمودة ، لأنها وسط بين الخصال المذمومة ، فالشجاعة ، مثلاً ، وسط بين الجبن والتهور .

الوسطية تعني أيضاً استقامة المنهج ، والبعد عن الميل والانحراف ، فالصراط المستقيم هو - كما قال أحد المفسرين - الطريق السوي ، الواقع وسط الطرق المنحرفة عن القصد ، فإذا فرضنا خطوطاً كثيرةً واصلة بين نقطتين متقابلتين ؛ فالخط المستقيم إنما هو الخط الواقع في وسط تلك الخطوط المنحنية أو المنكسرة ، هو وسطها ، أقصرها إلى الهدف ، والمسلم يسأل ربه ؛ أن يهديه إلى الصراط المستقيم ، كل يوم ، مالا يقل عن سبع عشرة مرة ، وذلك حينما يقرأ الفاتحة :

﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٦-٧] .

فالمغضوب عليهم هم الذين أفرطوا ، والضالون هم الذين

فرّطوا ، المغضوب عليهم هم الذين عرفوا وانحرفوا ، والضالون هم الذين جهلوا فانحرفوا .

والوسطية في الإسلام تعني الخيرية ، والفضل ، والتميز ، في الأمور المادية والمعنوية ، فأفضل حبات العقد واسطته ، ورئيس القوم في الوسط ، والأتباع من حوله ، وفي الأمور المعنوية ، نجد التوسط خيراً من التطرف ، ومن حكم العرب ؛ خير الأمور الوسط ، وقال أحد الحكماء : الفضيلة وسط بين رذيلتين ، وقال ابن كثير : في تفسير قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ الوسط هاهنا الخيار والأجود ، كما يقال : قرش أوسط العرب نسباً ، أي خيرها ، وكان عليه الصلاة والسلام وسطاً في قومه ، أي أشرفهم نسباً ، والصلاة الوسطى أفضل الصلوات .

في الإسلام جانب فكري ، وجانب نفسي ، وجانب سلوكي ، فحينما ينمو جانب ، من هذه الجوانب ، نمواً زائداً عن حده الطبيعي ، ويكون هذا - عادة - على حساب الجوانب الأخرى ، عندئذ يكون التطرف ، أما حينما تنمو الجوانب الثلاثة ، نمواً طبيعياً ، متوازناً ، بحيث لا يطغى جانب على جانب ، عندئذ يكون التفوق ، فنحن نتطلع إلى التفوق ، لا إلى التطرف .

الوسطية أيضاً تمثل الأمان ، والبعد عن الخطر ، فالأطراف ، عادة ، تتعرض للخطر ، والفساد ؛ بخلاف الوسط ، فهو محمي

محروس ، بما حوله ، والتوسط أمن ، واستقرار ، والتطرف غلو ، وانحراف ، وفساد .

والوسطية تمثل القوة ، فالوسط هو مركز القوة ، أشعة الشمس ، لا تكون أقوى تأثيراً ، إضاءة ، وحرارة ، إلا وهي في وسط النهار ، وفي وسط قبة السماء ، ولا يكون الإنسان في أقوى حالاته ، إلا في شبابه ، وهو وسط بين ضعف الطفولة ، وضعف الشيخوخة .

والوسطية ، تمثل نقطة الوحدة ، ومركز التلاقي ، فعلى حين تتعدد الأطراف ، تعدداً ، قد لا يتناهى ، يبقى الوسط واحداً ، يمكن لكل الأطراف أن تلتقي عنده ، فهو المنتصف وهو المركز ، مركز الدائرة في وسطها ، فيمكن لكل الخطوط الآتية من المحيط أن تلتقي عنده ، والفكرة الوسطى ؛ يمكن لكل الأفكار المتطرفة أن تلتقي بها ، في نقطة ما ، إذاً فالتوسط ، والاعتدال ، هو طريق الوحدة الفكرية ، ومركزها ، ولهذا تثير الأفكار المتطرفة ، من الفرقة ، والخلاف في أبناء الأمة الواحدة ، مالا تثيره المذاهب المعتدلة ، في العادة ، التي وفق الكتاب والسنة .



هذا عن معاني الوسطية في الإسلام ؛ فماذا عن مظاهر هذه الوسطية ؟

في العقيدة : الإسلام وسط ، بين اعتقاد الخرافيين ، الذين يصدقون كل شيء ، ويؤمنون بكل برهان ، وبين الماديين ، الذين ينكرون كل شيء وراء الحس ، ولا يصغون إلى صوت الفطرة ، ولا إلى نداء العقل ، ولا إلى صراخ المعجزة .

فالإسلام الحق يدعو إلى الإيمان ، والاعتقاد بما قام عليه الدليل القطعي ، والبرهان اليقيني ، ويعد اليقين الحسي ، واليقين الاستدلالي ، واليقين الإخباري ، مسالك يقينية للتلقي ، ويرفض كل ما وراء ذلك من الأوهام .

قال تعالى :

﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ١١١] .

وقال تعالى :

﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٧] .

والإسلام وسط ، بين الذين يعدون الكون هو الوجود الحق ، وما عداه ، مما لا تراه العين ، خرافة ، ووهم ؛ وبين الذين يعدون الكون وهماً ، لا حقيقة له ، وسراباً يحسبه الظمان ماء .

فالإسلام يعد الكون حقيقة ، ولكنه يعبر من هذه الحقيقة إلى حقيقة أكبر منها ، يعبر من الكون إلى المكون ، ومن الخلق إلى الخالق ، ومن النظام إلى المنظم ، ومن الصور إلى المصور ،

ومن التسيير إلى المسير ، ومن التربية إلى المربي ، فالكون حقيقة ينقلنا إلى حقيقة أكبر ، وهي أن لهذا الكون خالقاً ، ومربياً ، ومسيراً ، موجوداً ، وواحداً ، وكاملاً .

الإسلام وسط في نظرته إلى الأنبياء ، فهم بشر مثلنا ، يأكلون الطعام ، ويمشون في الأسواق ، ولكثير منهم أزواج وذرية ، ولكنهم قَمَم في معرفة ربهم ، وطاعتهم له ، وإخلاصهم إليه ، اصطفاهم ، وطهرهم ، وعصمهم ، وامتن عليهم بالوحي ، وأيدهم بالمعجزات ، هذه نظرة الإسلام إلى الأنبياء .

والإسلام وسط بين الذين يؤمنون بالعقل وحده ، أداة لمعرفة حقائق الوجود ، وبين الذين لا يؤمنون إلا عن طريق الإلهام ، أو الأوهام ، ولا يعترفون للعقل بدور في نفي أو إثبات .

إن الإسلام يقرر : أن الدين في الأصل وحي ونقل ، وبما أن أخطر ما في النقل صحته ؛ فللعقل مهمتان ، حيال النقل ، مهمة إثبات صحة النقل ، ومهمة فهم النقل ، تمهيداً لتطبيقه ، فبالعقل تصل إلى الإيمان بالله يقيناً ، وبالعقل تؤمن بكتابه يقيناً ، عن طريق إعجازه ، وبالعقل تؤمن برسوله يقيناً ، عن طريق الكتاب ، وهنا ينتهي دور العقل في البحث ؛ لبدأ دوره في التلقي ، إثباتاً ، وفهماً ، فالحقائق التي عجز العقل عن إدراكها ، لافتقارها إلى آثار تدل عليها ، يتلقاها العقل عن الوحي ، دون أن يكون حكماً عليها ، وهذه وسطية الإسلام في منهج التلقي .

والإسلام وسط في العبادات التي فرضها ، فهو في العبادات الشعائرية ، بين إلغائها ، وبين الانقطاع لها ، فالعبادات الشعائرية في الإسلام ، محدودة ، ومعقولة ، ومعللة بمصالح الخلق ، وهي ، فضلاً عن هذا ، مرتبطة بالعبادات التعاملية ، فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لا يعد مصلياً بالمعنى الإيماني ، ومن لم يدع قول الزور والعمل به ، لا يعد صائماً ، ومن حج بمال حرام ، يقال له عند التلبية ، إذا قال ، لبيك اللهم لبيك ، يقال له : لا لبيك ولا سعديك وحجك مردود عليك ، والإنفاق مع الفسق غير مقبل ، لقوله تعالى :

﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٥٣] .

فالإسلام عبادة وعمل ، عبادة متقبلة ، أساسها العمل الصالح ، وعمل صالح ، ينطلق من عبادة صحيحة .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَتَذَرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أَتَمَّتْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ .

وفي المعاملات ، الإسلام وسط ، بين أن تدير خدك الأيسر لمن ضربك على خدك الأيمن ، وبين أن تكيل له الصاع عشرة أصوع ، قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَرُونَ ﴾ [٣٩] وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿ [الشورى : ٣٩-٤٠] .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ [١٢٦] وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿ [النحل : ١٢٦-١٢٧] .

يتضح من هذه الآيات الكريمة ، أن على المسيء ، أن يدفع ثمن إساءته ، ملزماً ، وأن لصاحب الحق ، أن يعفو عنه مختاراً ، فالعدل قسري ، والعفو والإحسان طوعي .

وفي الأخلاق ، الإسلام وسط ، بين غلاة المثاليين ، الذين تصوروا الإنسان ملاكاً ، أو شبه ملاك ، ليس غير ، فرسموا له مستوى ، لم يستطع أن يصل إليه ؛ وبين غلاة الواقعيين ، الذين حسبوا الإنسان حيواناً ، أو كالحيوان ، يعيش لشهوة .

ولكن الإسلام ينطلق من أن الإنسان ركب من عقل وشهوة ، فإن قاده عقله إلى معرفة ربه ، وضبط شهوته ، وفق منهج خالقه سما ، وسما حتى تجاوز في سموه الملائكة المقربين ، وإن عطل عقله ، أو أساء استخدامه ، ففسي سرّ وجوده ، وجهل منهج

ربه ، وتحكمت به شهواته ، ونزواته ، سقط حتى صار أدنى من الحيوان .

والإسلام وسط في نظرتة إلى الحياة الدنيا ، فهو بين الذين عدّوا الحياة الدنيا هي كل شيء ، وقالوا : إن هي إلا حياتنا الدنيا ، وما نحن بمبعوثين ، فعبدوا شهواتهم ، ومصالحهم المادية ؛ وبين الذين عدوا وجودهم في الدنيا شراً ، فانسحبوا من الحياة ، وحرّموا أنفسهم من طيباتها وزينتها المشروعة ، لقد عد الإسلام الحياتين الدنيا والآخرة متكاملتين ، فالأولى مطية للثانية .

والإسلام يحقق توازناً ، بين الروحية والمادية ، وهو وسط بينهما ، بين الدين والدنيا ، بين القيم والحاجات ، بين الغريزة والعقل ، بين الشهوة والمبدأ ، الإنسان كما أراده الله ، عز وجل ، ليس الذي ينقطع عن العالم ، وينسحب من الحياة ، ويتفرغ للعبادة ، ويتبطل فلا يعمل ، ويتكشف فلا يتمتع ، ويتبتل فلا يتزوج ، ويتعبد فلا يفتر ، ليله قائم ، ونهاره صائم ، يده من الدنيا صفر ، وحظه من الحياة خبز الشعير ، ولبس المرقع ، ليس هذا هو الإنسان الذي أراده الله ، كما أنه ليس كصاحب الجنتين ، يفخر على صاحبه ، متفخاً بثروته ، مختلاً بجنته ، قائلاً : أنا أكثر منك مالاً ، وأعز نفراً ، قال تعالى :

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۖ وَمَا

أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾

[الكهف : ٣٥-٣٦] .

فأرسل الله على جنته حساباً من السماء ، فأصبحت صعيداً زلقاً ، وأصبح ماؤها غوراً .

وليس كقارون الذي آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ، بغى على قومه ، واغتر بماله ، وعزا الفضل إلى نفسه ، وقال : إنما أوتيته على علم عندي ، فخسف الله به ، وبداره الأرض .

الإنسان الحق ليس هذا ولا ذاك ، فالإنسان ، في نظر الإسلام ، مخلوق مزدوج الطبيعة ، يقوم كيانه على قبضة من طين الأرض ، ونفخة من روح الله ، قال تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِّقُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [ص : ٧١-٧٢] .

الإنسان ، بعنصره الطيني المادي ، قادر على أن يسعى في الأرض ، وعلى أن يعمرها ، وعلى أن يكتشف ما أودع الله فيها من كنوز ونعم ، وعلى أن يسخر قواها لمنفعته ، والنهوض بمهمته ، وهو ، بعنصره الروحي ، مهياً للتحليق في أفق أعلى ، والتطلع إلى عالم أرقى ، والسعي إلى حياة ، هي خير وأبقى ، وبهذا يسخر المسلم المادة ، ولا تسخره ، ويستخدم ما على الأرض من ثروات ، وخيرات ، من دون أن تستخدمه ، ومن دون أن تستعبده ، وهذا ما يؤكد البیان الإلهي :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَمُوا طَيِّبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ
 اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ
 بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿المائدة : ٨٧ - ٨٨﴾ .

وقال تعالى :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ
 النُّشُورُ﴾ [الملك : ١٥] .

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَذْكُرُوا
 اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة : ١٠] .

كان النبي ﷺ ، يحرص على الوسطية ، والتوازن ، بين الدنيا
 والآخرة ، وكان يتمثل الدعاء القرآني :

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ
 حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

وكان ﷺ يدعو فيقول :

« اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي
 دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي ،
 واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من
 كل شر » .

كان ، ﷺ ، يأكل من طيبات الحياة الدنيا ، ولم يحرمها على نفسه ، ولكنه لم يجعلها شغل نفسه ، ولا محور تفكيره ، وكان من دعائه « اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا » ، وكان ، ﷺ ، حينما يرى من بعض أصحابه إفراطاً في التعبد ، والصيام ، والقيام على حساب الجسم ، والأهل ، والعمل ، يقول له :

« إن لبدنك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإن لزورك (أي لزوارك - ضيوفك) عليك حقاً ، فأعط كل ذي حق حقه »^(١) .

وكان عليه الصلاة والسلام يقول :

« أما والله إنني أخشاكم لله ، وأتقاكم له ، ولكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي ، فليس مني »^(٢) .

وكان ، عليه الصلاة والسلام ، يحذر أصحابه من أن تفتنهم الدنيا ، فيقول :

« والله لا الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا ، كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم »^(٣) .

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه البخاري .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من أصحاب السنن .

هنا محل الإشارة إلى أن بر الوالدين ، من خلال الأحاديث النبوية العديدة ، يعدل الجهاد في سبيل الله ، وأن حسن تبعل المرأة لزوجها ، يعدل الجهاد في سبيل الله ، وأن حسن تربية الأولاد ، ولاسيما البنات منهم ، طريق إلى الجنة ، وهو العمل الذي لا ينقطع عند موت صاحبه ، بل إن العمل الذي يرتزق منه المسلم ، إذا كان في الأصل مشروعاً ، وسلك فيه الطرق والأساليب المشروعة ، وأراد منه المسلم كفاية نفسه وأهله ، وخدمة المسلمين ، ولم يشغله عن فرض ديني ، أو واجب ، أو طاعة ، أو طلب علم ، إن عمل المسلم ، أو حرفته ، نوع من أنواع العبادة ، يتقرب به إلى الله تعالى .

فبالإسلام ، تلتقي الفردية والجماعية ، في صورة متزنة ، رائعة ، تتوازن فيها حرية الفرد ، ومصلحة الجماعة ، وتتكافأ فيها الحقوق والواجبات ، وتتوزع فيها المغانم والتبعات ، بالقسطاس المستقيم ، إن المشرع ، في الإسلام ، هو خالق الإنسان ، فمن المستحيل ، أن يشرع الخالق الحكيم من الأحكام والنظم ما يعطل فطرة الإنسان ، أو يصادمها ، وقد خلق الله الإنسان على طبيعة مزدوجة ؛ فردية واجتماعية ، في آن واحد ، فالفردية جزء أصيل في كيان الإنسان ، ولهذا يحب الإنسان وجوده ، وسلامة وجوده ، وكمال وجوده ، واستمرار وجوده ، ومع ذلك نرى فيه نزعة فطرية إلى الاجتماع بغيره ، لذلك تضطرب نفسه ، ويختل توازنه ، لو عزل نفسه عن المجتمع ، أو عزل مقهوراً بالحبس

الانفرادي ، والنظام الأكمل لهذا الإنسان ، هو الذي يرمى فيه هذين الجانبين ، الفردية والجماعية ، فلا يطغى أحدهما على الآخر ، لذلك فلا عجب أن يكون الإسلام ، وهو دين الفطرة ، نظاماً وسطاً ، عدلاً ، فلا يجور على الفرد ، لحساب المجتمع ، ولا يحيف على المجتمع من أجل الفرد ، ولا يدلل الفرد بكثرة الحقوق التي تمنح له ، ولا يرهقه بكثرة الواجبات التي تلقى عليه ، وإنما يكلفه من الواجبات في حدود وسعه ، من دون حرج ، ولا إعنات .

والإسلام ، بوسطيته ، يقرر للإنسان من الحقوق ما يكافئ واجباته ، ويلبي حاجاته ، ويحفظ له كرامته ، ويصون له إنسانيته .

لهذا ، ومراعاة للجانب الفردي في الإنسان ، قرر الإسلام حرمة الدم ، فحفظ للفرد حق الحياة ، وأعلن القرآن أنه :

﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة : ٣٢] .

لذلك أوجبت الشريعة القصاص ، في القتل ، وأكدت أن في القصاص حياةً للفرد والمجتمع .

وقرر الإسلام حرية الاعتقاد ، فلا يجوز أن يكره الإنسان على ترك دينه ، واعتناق دين آخر ، قال تعالى :

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ

وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

[البقرة : ٢٥٦] .

وقرر الإسلام حرمة العرض ، أي سمعة الإنسان ، فصان للفرد حق الكرامة ، فلا يجوز أن يهان في حضرته ، ولا أن يؤذى في غيبته ، قال تعالى :

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمَاءُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات : ١١] .

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّهُ بِبَعْضِ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَEْعُضُكُم بَEْعًا أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات : ١٢] .

وأكد الإسلام حرمة المال ، فصان للفرد حق التملك ، فلا يجوز أخذ ماله ، إلا بطيب نفس منه ، قال تعالى :

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾

[النساء : ٢٩] .

وأكد الإسلام حرمة البيت ، فصان بذلك للفرد حق الاستقلال الشخصي ، فلا يجوز لأحد أن يقتحم عليه بيته ، بغير إذنه ، قال تعالى :

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تُذَكَّرُونَ﴾ [النور : ٢٧] .

وأكد الإسلام حرية النقد البناء المخلص ، قال تعالى :
﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

وأكد الإسلام المسؤولية الفردية التي هي ثمرة التكليف ،
وحرية الكسب ، وحتمية الجزاء ، قال تعالى :
﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدرثر : ٣٨] .

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾
[البقرة : ٢٨٦] .

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ
وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ
تَرَكْهُ فَاِتِمَّا بِتَرْكِ لِنَفْسِهِ ۖ وَلِإِلَهِ الْمَصِيرُ ﴾ [فاطر : ١٨] .

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٦﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر : ٩٢-٩٣] .

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨١] .

ثم إن الإسلام ، مراعاة للجانب الاجتماعي للإنسان ، فقد
فرض عليه للمجتمع واجبات ، تكافىء حقوقه عليه ، وقيد هذه

الحقوق والحريات الفردية ، بأن تكون في حدود مصلحة الجماعة ، وأن لا يكون فيها مضرة للغير ، وليس للفرد في مجتمع المسلمين ، أن يستخدم حقه فيما يؤذي الجماعة ، ويضرها ، كما أن حق الفرد ، إذا تعارض مع حقوق الجماعة ، فإن حق الجماعة أولى بالتقديم .

* * *

بما أن هذا الدين ، بأصليه ؛ القرآن والسنة ، أمر الله التكليفي ، وبما أن هذا الكون ؛ بسماواته وأرضه ، أمر الله التكويني ، وبما أن الله واحد في خلقه ، واحد في أمره ، فلا بد من أن نرى الوسطية والتوازن في خلقه كما نراها في أمره ، فأين هي الوسطية في خلقه ؟

من ملامح الوسطية ، أو التوازن في الكون ، أن الكواكب والنجوم ، والمجرات كلها ، تتحرك في مسارات مغلقة ، حول بعضها بعضاً ، وقد لخص القرآن الكريم هذه الحقيقة ، بشكل معجز ، قال تعالى :

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجْعِ﴾ [الطارق : ١١] .

أي إن كل متحرك في السماء ، أي في الكون ، يرجع بعد حين إلى مكان انطلاقه النسبي ، وينشأ من حركة كل نجم حول نجم آخر قوة نابذة تكافئ قوة جذب النجم المركزي ، فلولاً هذه القوة النابذة ، الناشئة عن الحركة المغلقة ، لعملت قوى

التجاذب ، وحدها ، فجمعت الكون كله في كتلة واحدة ، قوى التجاذب تتوازن مع قوى النبذ ، فالكون على حالة الراهنة معجزة وأي معجزة .

وبما أن مسار الأرض حول الشمس بيضوي الشكل ، فحينما تقترب الأرض من الشمس ، تزداد سرعتها ، لئلا تنجذب إلى الشمس فتنشأ قوة نابذة جديدة ، تكافىء القوة الجاذبة الجديدة ، وحينما تبتعد الأرض عن الشمس ، تتباطىء سرعتها ، لئلا تتفلت من جاذبيتها ، أرايتم إلى هذا التوازن بين قوى الجذب وقوى النبذ ، ولو أن الأرض ازدادت أو تباطأت سرعتها فجأة ، لانهدم كل ما عليها ، ولكن تسارعها بطيء ، وكذلك تباطؤها ، وهذا يدل على علم الله ، وعلى حكمة الله ، وعلى رحمة الله ، وعلى لطف الله .

هذه الوسطية ، أو التوازن في الآفاق ، فماذا عن الوسطية ، أو التوازن في الأنفس ، من الثابت أن دم الإنسان ، إذا زادت ميوعته ، نzf كله من جرح صغير ، عندها يموت الإنسان ؛ ولو زادت لزوجته ، عن الحد المعقول ، تجمد في العروق ، كالوحدل في الطرقات ، فإذا وصلت خثرة منه إلى القلب ، أو الدماغ ، قضى الإنسان نحبه ، لذلك يفرز الجسم هرموناً ، يميع الدم ، وهرموناً آخر ، يجلطه ، ومن التوازن الدقيق ، بين إفراز الهرموني ، يحافظ الدم على مستوى من السيولة ، تسمح له بالحركة ، عبر الأوعية الدقيقة ، ويحافظ الدم ، على مستوى من اللزوجة ، تمنع نزيفه من أدق الجروح .

أرأيتم إلى هذا التوازن ، بين هرمون التميع ، وهرمون
التجلط .

ومن الثابت ، أيضاً ، أن الغدة النخامية ، ملكة الغدد
الصماء ، وأن من مفرزاتها ، ما يحث الغدة الدرقية ، المسؤولة
عن الاستقلاب ، (أي تحويل الغذاء إلى طاقة) ، وأن من
مفرزات الغدة الدرقية ، ما يثبط الغدة النخامية ، وأنه من خلال
التأثير المتبادل ، بين الغدتين ، يستقيم التوازن ، بين حاجة
الإنسان إلى الغذاء ، وحاجته إلى الطاقة .

أرأيتم إلى هذا التأثير المتبادل ، بين الغدتين ، وكيف أن كل
إفراز غدة ، يثبط أو ينشط الغدة الثانية .



فلسفة المال في الإسلام

الإنسان حريص على رزقه ؛ كما هو حريص على حياته فكيف يدفع المرء عن نفسه القلق من أجل الرزق ؟ وكيف يمتنع الرجل عن ارتكاب المعاصي من أجل الرزق ؟ وكيف يحترز الإنسان عن أن يقف موقف مذلة من أجل الرزق ؟ .

ما فلسفة المال في الإسلام ؟ من يملكه ؟ وكيف أن الإنسان مستخلف فيه ، ولماذا ينبغي أن نحافظ عليه ؟ ولماذا حرم الله التبذير ، والإسراف ، وإتلاف المال ؟ ولماذا فرض الإسلام على المسلم فرضاً عينياً أن يكسب رزقه بنفسه ؟ وهل هناك مكاسب للرزق محرمة تخفى على كثير من المسلمين ؟ وكيف يزيد الرزق من خلال الكتاب والسنة ؟ أرجو الله سبحانه وتعالى أن يكون في فقرات هذا الموضوع إجابات شافية لهذه الأسئلة ! .

لقد خلق الله السماوات والأرض وما فيهما ، وهو المالك الواحد لكل ما في السماوات الأرض ، وما بينهما ، وما تحت الثرى ، قال تعالى :

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾

[طه : ٦] .

فالمال الذي في أيدي الناس ، من خلال هذه الآية ، ملك لله تعالى وحده .

ودليل آخر في قوله تعالى :

﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور : ٣٣] .

لقد سمى الله المال الذي في أيدي الناس ، مال الله ؛ إلا أن الله جل جلاله تفضل على عباده باستخلافهم فيه ، قال تعالى :

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد : ٧] .

فأصل الملك لله سبحانه وتعالى ، وأن العبد ليس له إلا التصرف ، والله جل جلاله سيحاسبه عن هذا المال ، من أين اكتسبه ؟ وفيه أنفقه ؟ وقد روى الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال :

« إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون » .

أما حينما يضاف المال إلى العباد ، كما في قوله تعالى :

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيْرًا وَإِنْ

تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ [آل عمران : ١٨٦] .

لتبطلون في أموالكم ، (أضيف المال إلى العباد) ،
وأنفسكم ، فهذه الإضافة في - رأي علماء التفسير - لا تعني أن
الإنسان مالك المال ، وإنما تعني أن الإنسان ملك حق الانتفاع
به ، ابتلاء وامتحاناً .

والمال بنص القرآن الكريم نعمة من نعم الله تعالى الدالة على
رحمته بالإنسان ، فقد منَّ الله على نبيه به ، فقال :
﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا
فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ [الضحى : ٦-٨] .

فهو نعمة من نعم الله ، وسمى الله المال في القرآن الكريم
خيراً ، قال تعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ١٨٠] .

وقد امتدح النبي ﷺ المال فقال :

« نعم المال الصالح للرجل الصالح »^(١) .

وقد نقل عن بعض أصحاب رسول الله رضوان الله تعالى عليهم
أنه قال :

(١) رواه أحمد عن عمرو بن العاص وهو صحيح .

« حبذا المال أصون به عرضي وأتقرب به إلى ربي » .

وقد بين الله تعالى أن المال قوام الحياة ، وأن معاش الناس وقيامهم بالمال ، قال تعالى :

﴿ وَلَا تَوْنُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالِكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ [النساء : ٥] .

أي قياماً بها ، قال بعض المفسرين : أي إنكم تقومون بها وتنتعشون ، ولو ضيعتموها ، لضعتم ، فكأن فيها قيامكم وانتعاشكم .

بما أن المال نعمة ، وخير ، وقوام الحياة ؛ فينبغي أن نحفظه ، وأن نحافظ عليه ، كي نلبي به حاجتنا الأساسية ، وأن لا نضيعه ، وآية الدّين - التي هي أطول آية في القرآن الكريم - تؤكد ضرورة حفظ المال ورعايته ، وعدم تضييعه ، من خلال كتابة الدين ، والاستشهاد بالشهود ، وأخذ الرهان ، وقد نهى الإسلام عن إضاعة المال الذي استخلف الله العباد فيه ، يقول عليه الصلاة والسلام :

« إن الله نهى عن ثلاث ، قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال »^(١) .

(١) حديث صحيح ، أخرجه البخاري ومسلم بألفاظ مختلفة .

ويقول الإمام النووي : (في شرح هذا الحديث) إضاعة المال : صرفه في غير وجوهه المشروعة ، وتعرضه للتلف ، وسبب النهي : أنه إفساد ، والله لا يحب المفسدين ، ولأنه من أضاع ماله تعرض لأموال الناس بالاحتيال والعدوان ، وهل بعد هذا الفساد من فساد ؟ ! .

قد حرم الله التبذير أشد التحريم ، حين وصف المبذرين بأنهم إخوان للشياطين ، قال تعالى :

﴿ وَآتَاكَ الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۚ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۖ ﴾

[الإسراء : ٢٦-٢٧] .

والتبذير ، في التعريف الدقيق ، هو الإنفاق في معصية الله ، وفي غير حق ، وقد نقل عن الإمام البخاري الذي نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله : لا تبذر : أي لا تنفق في باطل ، ونقل عن ابن مسعود ، لا تبذر : أي لا تنفق في غير حق ، وقد ذكر الإمام الشوكاني أن الشيطان كفور ، وأن المبذر أخ للشيطان ، فبالقياس المنطقي : المبذر كفور ، لو أخذ الناس بهذا الأمر فامتنعوا عن تبذير أموالهم في المعاصي ، وفي الفساد ، لبقيت أموال ضخمة لتلبية الحاجات الأساسية للناس في الحياة ، هذا عن التبذير فماذا عن الإسراف ؟

قد لا ينفق المرء ماله في المعاصي ؛ لكنه ينفقه في المباحات من طعام ، وشراب ، ومسكن ، وملبس ، وزينة ، متجاوزاً حد الاعتدال ، باعتبار الكم ، أو متجاوزاً حد الاعتدال ، باعتبار النوع ، أو كلاهما معاً ، قال تعالى :

﴿يَبْنِيْءَ اٰدَمَ خُذُوْا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا اِنَّهٗ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ﴾ [الأعراف : ٣١] .

أباح الله سبحانه وتعالى الأكل والشرب ، ونهى عن الإسراف ، قال ابن عباس في تفسيره : « أحل الله تعالى في هذه الآية الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة » ، وقال بعض المفسرين : حذف مفعول ولا تسرفوا في قوله تعالى « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » ، يدل على العموم ، أي لا تسرفوا في الأكل والشرب ، وفي أي شيء آخر ، ويؤيد تعليل النهي بأنه لا يحب المسرفين ، أي لا يحب جنس المسرفين ، لأنهم يظلمون أنفسهم ، ويؤذون أبدانهم ، ويضيعون أموالهم ، ويخسرون آخرتهم ، وفي هذا وعيد للمسرفين بأنه لا يحبهم ، ولا يرضى عنهم ، وإلى جانب هذا نهى الله تعالى عن الإقتار الذي يسبب اللوم ، قال تعالى :

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُوْلَةً اِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوْمًا خَاسِرًا﴾ [الإسراء : ٢٩] .

قال البيضاوي في تفسيره في الآية : تمثيلان لمنع الشحيح

وإسراف المبذر ، نهى عنهما أمراً بالاقتصاد ، والاعتدال بينهما الذي هو الكرم .

وقال ابن كثير في تفسيره : فتقعد ملوماً محسوراً ، أي فتقعد إن بخلت ملوماً ، يلومك الناس ويذمونك ، وتقعد محسوراً متى بسطت يدك فوق طاقتك ، قعدت بلا شيء تنفقه ، فتكون كالحسير أي كالدابة التي عجزت عن السير ، فتوقفت ضعفاً وعجزاً .

النجاة في القصد أي : الاعتدال ، روى البيهقي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال :

« ثلاث منجيات وثلاث مهلكات ، فأما المنجيات فتقوى الله في السر والعلانية ، والقول بالحق في الرضا والسخط ، والقصد (الاعتدال) في الغنى والفقر ، وأما المهلكات ، فهوى متبع ، وشح مطاع ، وإعجاب المرء بنفسه ، وهو أشدهن »^(١) .

وهذا القصد في الإنفاق من صفات عباد الرحمن الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ، ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ، قال تعالى في سورة الفرقان :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾

[الفرقان : ٦٧] .

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧٢٥٢) وهو حديث حسن .

لقد فرض الإسلام على العباد أن يسعوا ، ويبدلوا الجهد ،
لكسب العيش ، فجعل طلب الحلال واجباً على كل مسلم ،
وجوباً فرضياً .

بل إن طلب الحلال فريضة بعد الفريضة ، ومعنى فريضة بعد
الفريضة أي فريضة تأتي بعد فريضة الصلاة والصيام والحج
والزكاة ، أو هي فريضة مستمرة ، وقال بعض الأئمة : القصد :
القدر الذي لا بد منه فريضة ؛ لأن ما يقيم المرء صلبه حتى يؤدي
الفريضة ، يُعد فريضة ، فما لا تؤدي الفريضة إلا به يُعد فريضة ،
وكذلك يعد التكسب فريضة عينية لتأدية الدين ، لأن الدين يجب
أن يقضى ، وكذلك يعد التكسب فريضة عينية للإنفاق على
الزوجة والأولاد ، لأن الإنفاق عليهم واجب ، وكذلك يعد
التكسب فريضة عينية للإنفاق على الأبوين ، لأن الإنفاق عليهما
واجب أيضاً ، وقد نقل ابن الجوزي عن محمد بن عاصم أن
عمر بن الخطاب رضي الله عنه : كان إذا رأى شاباً فأعجبه سأل
عنه هل له من حرفة ، فإن قيل لا سقط من عينه ، وكان ابن
مسعود رضي الله عنه يقول : إني لأكره الرجل فارغاً لا في عمل
الدنيا ، ولا في عمل الآخرة .

هذه هي النصوص التي تؤكد وجوب العمل ، فماذا عن القدوة
في كسب الرزق ؟ لقد كان الأنبياء والمرسلون قدوة في هذا ، فما
من أحد أكبر من أن يكسب رزقه بنفسه ، قال تعالى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ

وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ
وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ [الفرقان : ٢٠] .

أي إنهم بشر ، وتجري عليهم كل خصائص البشر ، وهم قدوة للبشر ، ومن بشريتهم أنهم مفتقرون في وجودهم إلى تناول الطعام ، ومفتقرون من أجل الحصول عليه إلى المشي في الأسواق ، أي إلى كسب الرزق . وقد روى الإمام البخاري عن المقدام بن معديكرب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال :

« ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده » .

ونبينا عليه الصلاة والسلام إمام الأنبياء والمرسلين ، وأكرم الأولين والآخرين ، وحبيب رب العالمين ، كان يرعى الغنم ، على قراريط لأهل مكة ، فقد روى الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال :

« ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم ، فقال أصحابه : وأنت يا رسول الله ، قال : وأنا كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة » ،
فالعامل شرف للإنسان .

النبي ﷺ يبين - من خلال توجيهاته ، ومواقفه - لابوصفه نبي هذه الأمة ، ورسول الله إليها ، ولكن بوصفه ولي أمر المسلمين - يبين لأولي الأمر من بعده ، أن من واجب ولي أمر المسلمين أن يوفر الأعمال للعاطلين ، وأن يؤهلهم تأهيلاً نفسياً ، ومادياً ، فقد روى أبو داود عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن رجلاً من

الأنصار ، أتى النبي ﷺ ، يسأله مالا ، فقال له النبي ﷺ :

أما في بيتك شيء ؟ قال : بلى ، جلس (بساط) نجلس عليه وقعب (إناء) نشرب فيه الماء ، قال : ائتني بهما ، فأتاه بهما ، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده ، وقال لأصحابه : من يشتري هذين ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهم يارسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : من يزيد على درهم ؟ قالها مرتين أو ثلاثاً ، فقال رجل : أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين ، وأعطاهما للأنصاري ، وقال : اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك ، واشتر بالآخر قدوماً ، وائتني به ، فأتاه به ، فشدّ فيه رسول الله ﷺ بيده الكريمة عوداً ، ثم قال : اذهب فاحتطب ، وبع ، ولا أرينك خمسة عشر يوماً ، فذهب الرجل يحتطب ويبيع ، وجاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوباً وبيع بعضها طعاماً ، فقال عليه الصلاة والسلام : هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة ، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة ، لذي فقر مدقع ، أو لذي غرم مفظع ، أو لذي دم موجع » .

ماذا نستفيد من هذه القصة ، ومن توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام ؛ نستفيد أنه ﷺ أهل هذا العاقل تأهيلاً نفسياً ، حيث أمره بتزويد أهله بالطعام ، كي يفرغ من التفكير في شأنهم لبعض الوقت ، ولينقطع عن العمل ، وأهله مادياً ، حيث زوده بآلة العمل ، بعد ما شد عليها عوداً بيده الكريمة ، والأهم من هذا متابعة النتائج ، حيث أعطاه فرصة خمسة عشر يوماً لينظر بعدها

إلى مدى نجاحه أو إخفاقه .

ومن توجيهات عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبعض ولاته ،
قال له : « إن الله قد استخلفنا على خلقه ، لنسد لهم جوعتهم ،
ونستر عورتهم ، ونوفر لهم حرفتهم ، فإذا وفيناهم ذلك
تقاضيناهم شكرها ، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل ، فإذا لم تجد
في الطاعة عملاً ، التمتست في المعصية أعمالاً ، فاشغلها بالطاعة
قبل أن تشغلك بالمعصية » .



هذا عن فلسفة المال في الإسلام ، وعن وجود العمل
المشروع لكسبه ، وتحري الوجوه المشروعة في إنفاقه ، فماذا
عن الكسب الحرام ، وأكل أموال الناس بالباطل ، قال تعالى :
﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا
فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٨] .

لقد أشارت كلمة لا تأكلوا أموالكم إلى حقيقة خطيرة ،
أشارت إلى ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون من إخوة صادقة ،
أو مشاركة وجدانية حانية ، يجسدها الشعور بأن مال أخيك هو
مالك ، من زاوية أنه يجب أن تحافظ عليه وكأنه مالك ، وأن
تصونه من التلف والضياع ، فلأن تمتنع عن أكله بالباطل من باب
أولى ، وتشير هذه الكلمة ولا تأكلوا أموالكم ، أن هذا المال هو
مالك من زاوية أخرى ، من زاوية أنه إذا أكلت مال أخيك

أضعفته ، وفي إضعافه إضعاف لك ، فأنت بهذا كأنك قد أكلت مالك .

وقد ثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ قال :
« كل المسلم على المسلم حرام ماله ودمه وعرضه »^(١) .

وقال تعالى :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٨] .

ومن أكل أموال الناس بالباطل ، الربا ، حيث يلد المال المال ، وتتعطل الأعمال ، وتفسو البطالة ، وترتفع الأسعار ، ويصبح المال دولة بين الأغنياء ، وتتسع الهوة بين الأغنياء والفقراء ، وروى مسلم عن جابر قال :

« لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ، وموكله وكاتبه ، وشاهديه ، وقال : هم سواء » .

ومن أكل أموال الناس بالباطل ، الغش ، وللغش أنواع كثيرة ، وصور شتى ، ترجع في معظمها إلى المخادعة في إظهار شيء وإخفاء شيء في باطنه .

من ذلك الكذب في التعريف بالشيء ، فيعرف الرديء بأنه

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجه ، وهو صحيح .

جيد ، وذو السعر الرخيص بأنه من الصنف ذي السعر العالي ، ومن الغش دس الرديء في ثنایا الجيد ، وبيعه جميعاً بقيمة الجيد ، دون بيان الواقع والحقيقة ، ومن الغش أن يقول البائع اشتريته بكذا كذباً ، ليخدع المشتري في هامش ربحه ، ومن الغش إخفاء العيب والتلاعب بالوزن ، والكيل ، والعدد ، والطول ، والمساحة ، والحجم ، ومن الغش تزوير منشأ البضاعة ، ومصدرها ، أو الكذب في صفاتها ، وفي تاريخ صلاحيتها ، ومن الغش عرضها بطريقة تزيد من مزاياها ، وتخفي عيوبها ، ومن الغش توجيه المشتري إلى بضاعة رديئة كاسدة ، استغلالاً لجهله ، في نوع البضاعة ، ومن الغش استغلال جهل المشتري بثمان البضاعة ، ورفع السعر أضعافاً مضاعفة ، وهذا الاستغلال استغلال جهل الشاري ، في نوعية البضاعة وفي ثمنها ظلم من أشد أنواع الظلم .

وكما يكون البائع غاشاً ، يكون المشتري أيضاً غاشاً ، حينما يستغل جهل البائع بقيمة بضاعته الحقيقية ، لذلك نهى النبي ﷺ عن تلقي الركبان ، لأنهم يجهلون قيمة بضاعتهم ، ولا يعرفونها إلا إذا دخلوا السوق .

ومن أكل أموال الناس بالباطل ، الاحتكار ، وهو بالتعريف الدقيق حبس مال ، أو منفعة ، أو عمل ، والامتناع عن بيعه ، وبذله حتى يغلو سعره ، غلاء فاحشاً غير معتاد ، بسبب قلته ، أو انعدام وجوده في مظهره ، مع شدة الحاجة إليه ، قال الإمام أبو

يوسف : كل ما أضر بالناس حبسه فهو احتكار ، وقال بعض الفقهاء المحدثين : كل إيهام أو كل تضليل من شأنه أن يزيد في الطلب على السلعة مع قلة العرض تمهيداً لرفع السعر فهو احتكار ، وهذا الربح الزائد الذين يجنيه المحتكر حرام ، لأنه ليس نظير زيادة في البضاعة ، ولا في صفاتها ، أو نظير خدمة خاصة ، يقدمها البائع ، ولم يؤخذ هذا المبلغ الزائد بالرضا الحقيقي من المشتري ، إنما هو إلجاء أصحاب الحاجات إلى شراء حاجاتهم بأكثر من أثمانها الحقيقية ، والمحتكر من خلال أحاديث رسول الله ﷺ ، ملعون ، وخاطيء ، وقد برئت منه ذمة الله ، وقد توعد الله بالنار ، فقال عليه الصلاة والسلام :
« لا يحتكر إلا خاطيء »^(١) .

فالجالب مرزوق ، والمحتكر ملعون ، ومن احتكر الطعام ، يريد به الغلاء ، وإرهاق المسلمين ، ليحقق ربحاً فاحشاً ، فقد برىء من الله وبرىء الله منه ، فبئس العبد المحتكر ، إن أرخص الله الأسعار حزن وإن أغلاها فرح ، ومن ترك الاحتكار خوفاً من الله ، وإشفاقاً على خلقه ، وتيسيراً لهم ، فقد حقق المعاني السامية التي ينبغي أن تكون عليها أخلاق المسلم وعباداته التعاملية .

قد تخفى بعض المكاسب المحرمة على كثير من المسلمين ، لكن الميسر ، والسرقه ، والغلول ، والرشوة ، والغصب ،

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم وغيره .

والنهب ، هذه أنواع كثيرة من أكل أموال الناس بالباطل ، لكنها لا تخفى على المسلمين .

* * *

والآن هل من وسيلة ، ذكرها القرآن الكريم ، وبينتها السنة المطهرة ، تزيد في الرزق ، وكل واحد من الخلق حريص على زيادة رزقه ، أضعكم بين النصوص ، وأترك لكم الاستنباط :

السؤال الأول : هل من علاقة بين الرزق والاستقامة ، قال تعالى :

﴿وَالْوِاسْتِقَامَةُ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن : ١٦] .

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

آيتان قرآنيتان من عند خالق الكون ، هل من علاقة بين الرزق والاستقامة ؟

هل من علاقة بين الرزق والصلاة ، انظروا في قوله تعالى :
﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ
لِلنَّافِقِينَ﴾ [طه : ١٣٢] .

هل من علاقة بين الرزق والاستغفار ، انظر في قوله تعالى :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح : ١٠-١٢] .

هل من علاقة بين الرزق والشكر ، انظروا في قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

هل من علاقة بين الرزق وصلة الرحم ، انظروا في هذا الحديث الشريف ، قال عليه الصلاة والسلام :

« من أحب أن ييسر له في رزقه وينسأ له في أثره (أي في أجله) فليصل رحمه »^(١) .

هل من علاقة بين الرزق والصدقة ، لقد ورد في الأثر : أن استنزوا الرزق بالصدقة فالصدقة تجلب الرزق .

هل من علاقة بين الرزق والأمانة ، انظروا في هذا الحديث الشريف ، « الأمانة غني » بالمعنى المادي ، والأمين ينال أثمن شيء وهو ثقة الناس .

(١) متفق عليه .

هل من علاقة بين الرزق والإتقان ، انظروا في هذا الحديث الشريف ، « إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه » ، من أتقن عمله أحبه الله - بنص هذا الحديث - وأحبه الناس بديهياً ، ومن أحبه الله وأحبه الناس كان رزقه وفيراً .

* * *

المبادئ والقيم والمثل لا تعيش إلا بالمثل الحي ، والمثل الحي يؤكد المبادئ ، ويحقق القيم ، ويجعل المثالية واقعاً ، والمثل الحي حقيقة مع البرهان عليها ، والمثل الحي نموذج إنساني خالد ، والمثل الحي نبراس للأجيال من بعده .

* * *

التوحيد

عقيدة التوحيد هي لب الإسلام ، بل هي محور رسالات السماء ، قال تعالى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

إله واحد ، خالق كل شيء ، ورب كل شيء ، له الخلق والأمر ، وإليه المصير ، في السماء إله ، وفي الأرض إله .

﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود : ١٠٧] .

﴿وَالِلَّهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود : ١٢٣] .

هو وحده الجدير ، أن يعبد فلا يجحد ، وأن يشكر فلا يكفر ، وأن يطاع فلا يعصى .

روى الشيخان البخاري ومسلم : عن معاذ بن جبل ،

رضي الله عنه قال : كنت رديف النبي ، ﷺ ، فقال لي :
 « يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ، قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ، ثُمَّ
 سَارَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُعَاذُ قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ ،
 وَسَعْدَيْكَ ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُعَاذُ ، قُلْتُ : لَبَّيْكَ
 رَسُولَ اللَّهِ ، وَسَعْدَيْكَ ، قَالَ : هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟
 قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ ، وَلَا
 يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ، قُلْتُ
 لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ ، وَسَعْدَيْكَ ، فَقَالَ : هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى
 اللَّهِ - إِذَا فَعَلُوهُ - قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى
 اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ » .

قال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

حق الله على عباده أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً ، وحق
 العباد على الله ، أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً .

من لوازم التوحيد :

أن لا يتخذ الإنسان من دون الله ، رباً يعظمه ، كما
 يعظم الله .

﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِيَّ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٦٤] .

فلو اعتقد أن جهة ، غير الله ، يمكن أن تعطي ، أو أن تمنع
يمكن أن تخفض ، أو أن ترفع ، يمكن أن تعز أو تذل ، مستقلة
عن إرادة الله فقد أشرك .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ
وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

[آل عمران : ٢٦] .

ومن لوازم التوحيد أيضاً :

أن لا يتخذ الإنسان من دون الله ولياً ، يحبه كحب الله .

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخِذُوا لِيَأْطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ١٤] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا
تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا
مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَزَالُ مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٠-٣٢] .

ومن لوازم التوحيد أيضاً :

أن لا يتخذ الإنسان غير الله حكماً ، يطيعه كما يطيع الله .

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتَغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾

[الأنعام : ١١٤] .

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

من ثمار التوحيد اليانعة :

أن التوحيد هو في الواقع تحرير للإنسان ، من كل عبودية ، إلا لربه الواحد الديان ، الذي خلقه فسواه ، وكرمه ، التوحيد تحرير لعقله من الخرافات والأوهام ، التوحيد تحرير لضميره من الخضوع والذل والاستسلام ، التوحيد تحرير لحياته من تسلط الأرباب والمتألهين .

ومن ثمار التوحيد اليانعة :

أن التوحيد يعين على تكوين الشخصية المتزنة التي توضحت في الحياة وجهتها ، وتوحدت غايتها ، وتحدد طريقها ، فليس لها إلا إله واحد ، تتجه إليه في الخلوة ، والجلوة ، وتدعوه في السراء والضراء ، وتعمل على ما يرضيه ، في الصغيرة ، والكبيرة ، ففي القرآن :

﴿يَصَدِّجِي السِّجْنَءَ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

[يوسف : ٣٩] .

وفي آية أخرى :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر : ٢٩] .

ومن ثمار التوحيد اليانعة :

أن التوحيد يملأ نفس صاحبه أمناً وطمأنينة ، فلا تستبد بها المخاوف ، التي تتسلط على أهل الشرك ، فقد سد الموحد منافذ الخوف ، التي يفتحها الناس على أنفسهم ، الخوف على الرزق ، والخوف على الأجل ، والخوف على النفس ، والخوف على الأهل والأولاد ، والخوف من الإنس ، والخوف من الجن ، والخوف من الموت ، والخوف مما بعد الموت .

أما المؤمن الصادق ، الموحد فلا يخاف إلا الله ، ولا يخشى إلا الله ، ولهذا تراه آمناً إذا خاف الناس ، مطمئناً إذا قلق الناس ، هادئاً إذا اضطرب الناس .

قال تعالى :

﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨١-٨٢] .

وقال تعالى :

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٣] .

من ثمار التوحيد اليانعة :

أن التوحيد مصدر لقوة النفس ، إذ يمنح التوحيد صاحبه ، قوة نفسية هائلة ، حيث تمتلئ نفسه من الرجاء بالله تعالى ،

والثقة به ، والتوكل عليه ، والرضا بقضائه ، والصبر على بلائه ، والاستغناء به عن خلقه ، فهو راسخ كالجبل ، لا تزعزعه الحوادث ، ولا تزعزعه الكوارث .

﴿وَأَن يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

[يونس : ١٠٧] .

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ ربي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود : ٥٥-٥٦] .

ومن ثمار التوحيد اليانة :

أن التوحيد أساس الأخوة الإنسانية ، والمساواة البشرية ، لأن الأخوة والمساواة ، لا تتحققان في حياة الناس إذا كان بعضهم أرباباً لبعض ، أما إن كان الناس جميعاً عباداً لله ، والله فوق الخلق فيها وحده ، هو الخالق ، المربي ، المسير ، الرازق هو الحكم ، إليه المصير ، عندئذ تتحقق المساواة بين الناس ، ويأتلف بعضهم بعضاً .

وهذه بعض ثمار التوحيد ، وقد قيل ما تعلمت العبيد ، أفضل من التوحيد ، وقيل أيضاً : نهاية العلم التوحيد ، ونهاية العمل التقوى .

* * *

تأملات في سورة العصر

في القرآن الكريم سورة قصيرة ، كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ ، إذا التقيا لم يتفرقا حتى يتلو أحدهما على الآخر هذه السورة ، وكان الإمام الشافعي رحمه الله تعالى يقول : لو فكر الناس في هذه السورة لكفتهم .

هذه السورة : ترسم حدود منهج كامل للحياة البشرية ، كما يريد لها خالق البشرية ، فعلى امتداد الزمان في جميع العصور ، وعلى امتداد المكان في جميع الدهور ، ليس أمام الإنسان إلا منهج واحد رابع وطريق واحد سالك ، إلى جنة الخلد ، وكل ما وراء ذلك ، ضياع وخسار وشقاء .

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ [العصر : ١-٢] .

لقد أقسم الله جل جلاله بمطلق الزمن : العصر ، للإنسان الذي هو في حقيقته ، زمن ، فهو بضعة أيام ، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه ، وما من يوم ينشق فجره ، إلا وينادي يا بن

آدم ، أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد ، فتزود مني ، فإني لا أعود إلى يوم القيامة .

لقد أقسم الله بالزمن ، للإنسان ، أنه في خسر بمعنى أن مضي الزمن وحده ، يستهلك عمر الإنسان ، الذي هو رأس ماله ، ووعاء عمله الصالح ، الذي هو ثمن الجنة التي وعد بها .

وهل الخسارة في العرف التجاري ، إلا تضييع رأس المال من دون تحقيق الربح المطلوب ، لكن الإنسان إذا استثمر الوقت فيما خلق له ، يستطيع أن يتلافى هذه الخسارة ، وذلك بالإيمان والعمل الصالح ، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر .

قال تعالى :

﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر : ١-٣] .

أولاً :

« إلا الذين آمنوا »

الإيمان هو اتصال هذا الكائن الإنساني ، الصغير ، الضعيف الفاني ، المحدود ، بالأصل المطلق الأزلي الباقي ، الذي صدر عنه هذا الوجود وعندئذ ينطلق هذا الإنسان من حدود ذاته الصغيرة ، إلى رحابة الكون الكبير ، ومن حدود قوته الهزلية ، إلى عظمة الطاقات الكونية المخبوءة ، ومن حدود عمره القصير ، إلى امتداد الآباد التي لا يعلمها إلا الله ، هذا الاتصال فضلاً على أنه يمنح الإنسان القوة ، والامتداد والانطلاق ، فإنه يمنحه

السعادة الحقيقية التي يلهث وراءها الإنسان وهي سعادة رفيعة ، وفرح نفيس ، وأنس بالحياة ، كأنس الحبيب لحبيبه وهو كسب لا يعدله كسب ، وفقدانه خسران لا يعدله خسران ، وعبادة إله واحد يرفع الإنسان عن العبودية لسواه ، فلا يذل لأحد ، ولا يحني رأسه لغير الواحد القهار ، فليس هناك إلا قوة واحدة ، ومعبودٌ واحد وعندئذ تنتهي من حياة الإنسان المصلحة ، والهوى ، ليحل محلها الشريعة والعدل والاعتقاد بكرامة الإنسان وهو من لوازم الإيمان ، الاعتقاد بكرامة الإنسان عند الله يرفع من قيمته في نظر نفسه ، ويثير في نفسه الحياء ، من التدني عن المرتبة التي رفعه الله إليها .

ثانياً :

« وعملوا الصالحات » ، ولأن الإيمان حقيقة إيجابية متحركة كان العمل الصالح هو الثمرة الطبيعية للإيمان ، فما إن تستقر حقيقة الإيمان في ضمير المؤمن حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها ، في صورة عمل صالح ، فلا يمكن أن يظل الإيمان في نفس المؤمن خامداً لا يتحرك ، كامناً لا يتبدى ، فإن لم يتحرك الإيمان هذه الحركة الطبيعية ؛ فهو مزيف ، أو ميت ، شأنه شأن الزهرة ينبعث أريجها منها ، انبعاثاً طبيعياً ، فإن لم ينبعث منها أريج ، فهو غير موجود ، والزهرة غير طبيعية .

والعمل الصالح ليس فلتةً عارضة ، ولا نزوةً طارئة ، ولا حادثةً منقطعة ، إنما ينبعث عن دوافع ، ويتجه إلى هدف ، ويتعاون عليه المؤمنون .

فالإيمان ليس انكماشاً ، ولا سلبيةً ، ولا انزواءً ، ولا تقوقعاً بل هو حركةٌ خيرةٌ ، نظيفةٌ ، وعمل إيجابي ، هادف ، وإعمار متوازنٌ للأرض ، وبناء شامخ للأجيال ، يتجه إلى الله ، ويليق بمنهج يصدر عن الله .

ثالثاً :

« وتواصوا بالحق » ، ولأن النهوض بالحق عسير ، والمعوقات كثيرة ، والصوارف عديدة ، فهناك هوى النفس ، ومنطق المصلحة ، وظروف البيئة ، وضغوط العمل ، والتقاليد ، والعادات ، والحرص والطمع ، عندئذ يأتي « التواصي بالحق » ، ليكون مذكراً ، ومشجعاً ومحصناً للمؤمن الذي يجد أخاه معه يوصيه ، ويشجعه ، ويقف معه ويحرص على سلامته ، وسعادته ، ولا يخذله ، ولا يسلبه ، وفضلاً عن ذلك ، فإن « التواصي بالحق » ينقي الاتجاهات الفردية ويوقئها ، فالحق لا يستقر ، ولا يستمر إلا في مجتمع مؤمن ، متواص ، متعاون ، متكافل ، متضامن .

فالمرء بالإيمان ، والعمل الصالح يكمل نفسه ، وبالتواصي بالحق يكمل غيره ، وبما أن كيان الأمة مبني على الدين الحق الذي جاءنا بالنقل الصحيح ، وأكده العقل ، وأقره الواقع ، وتطابق مع الفطرة ، فلا بد من أن يستمر هذا الحق ويستقر ، حتى تشعر الأمة بكيانها ، ورسالتها ، فالتواصي بالحق ، قضية مصيرية فما لم تنام دوائر الحق في الأرض ، تنامت دوائر الباطل

وحاصرته ، فالتواصي بالحق : يعني الحفاظ على وجوده ،
والأداء لرسالته .

رابعاً :

« وتواصوا بالصبر » ، وقد شاءت حكمة الله ، جل جلاله أن
تكون الدنيا دار ابتلاء بالشر والخير ، ودار صراع بين الحق
والباطل لذلك كان التواصي بالصبر ضرورة للفوز بالابتلاء ،
والغلبة في الصراع إذ لا بد من التواصي بالصبر على مغالبة هوى
النفس ، وعناد الباطل ، وتحمل الأذى ، وتكبد المشقة ، لذلك
يعد الصبر وسيلة فعالة لتذليل العقبات ، ومضاعفة القدرات ،
وببلوغ الغايات ، إن تكونوا تآلمون ، فإنهم يآلمون كما تآلمون
وترجون من الله ما لا يرجون .

* * *



الباب الثاني

العبادات

ذكر الله

الله ، جل جلاله ، الذات الكاملة ، واجب الوجود ، صاحب الأسماء الحسنی ، والصفات الفضلی ، واحدٌ أحدٌ ، في ذاته ، وفي أفعاله ، وفي صفاته ، خالق كل شيء ، رب العالمين ، لا إله إلا هو ، لا يدرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس ، فوق كل شيء ، وليس فوقه شيء ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ، ليس بجسم ، ولا صورة ، ولا محدود ، ولا متبعض ، ولا متجزء ، ولا متناه ، ولا متلون ، وهو منزّه عن الزمان والمكان ، وكل ما خطر ببالك ، فالله خلاف ذلك .

علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، لا يخفى عليه إغماض الجفون ، ولا لحظ العيون ، ولا ما استقر في المكنون ، يحتاجه كل شيء ، في كل شيء ، وهو غنيٌّ عن كل شيء ، لأنه متصف بالكمال التام ، في كل شيء ، فلم يسبق وجوده عدم ، ولم يلحق به فناء ، وهو غني عن أن يمدّه بالبقاء ، أو النفع ، أحد ، ذلكم الله ربكم ، خالق كل شيء ، لا إله إلا هو ، فأنى تؤفكون .

أما الإنسان فهو المخلوق الضعيف ، الذي يفتقر إلى ربه ، في كل شيء ، فجسمه مفتقر إلى الطعام والشراب ، حتى يبقى ، وقلبه مفتقر إلى الذكر ، حتى يحيا ، وعقله مفتقر إلى العلم ، حتى يرقى ؛ أغذية ثلاثة لا بد منها ، حتى يحقق الإنسان وجوده ، وسلامة وجوده ، وكمال وجوده ، واستمرار وجوده .

ولترك لعلماء التغذية شؤون تغذية الجسد ، ولندع لعلماء العقيدة شؤون تغذية العقل ، ولنتحدث عن غذاء القلب ألا وهو الذكر .

روى الإمام مالك في موطئه أن رسول الله ﷺ قال : « ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكم ، وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : ذكر الله »^(١) .

يبدو من خلال هذا الحديث الشريف ، أن الذكر له شأن كبير في حياة المؤمن ، كيف لا ؟ وقد ورد الذكر في القرآن الكريم ، في أكثر من ثلاثمئة آية ، تؤكد في مجموعها ، أن الذكر ينبغي أن يدور مع الإنسان ، في كل شأنه ، وفي كل أحواله ، وفي كل أطواره ، لأنه عبادة القلب ، ولأنه عبادة الفكر ، ولأنه عبادة اللسان .

(١) رواه مالك ٢١١/١ والترمذي ٣٣٧٤ وأحمد في المسند والحاكم في المستدرک .

من الذكر أن تذكر الله في آياته الكونية ، ومن الذكر أن تذكره في آياته القرآنية ، ومن الذكر أن تذكره في نعمه الظاهرة ، ونعمه الباطنة ، أن تذكره في أمره ونهيه ، أن تذكره لعباده معرفاً به ، وأن تذكره في قلبك ، وأن تذكره في لسانك ، مسبحاً ، وحامداً ، وموحداً ، ومكبراً ، وأن تذكر ربوبيته ، فتوحده في أحوالك كلها ، وأطوارك جميعها ، وأن تذكره ذكراً كثيراً ، ليطمئن قلبك ، ولينجلي همك ، ولينشرح صدرك ، وليتسع رزقك ، ولينصرك الله على عدوك .

ورد الذكر في القرآن الكريم ، على عشرة أوجه ؛ منها الأمر به مطلقاً ومقيداً ، قال تعالى :

﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب : ٤١] .

ومن هذه الوجوه ، النهي عن ضده ، قال تعالى :

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

[الحشر : ١٩] .

قال بعض المفسرين : نسيانهم لله عز وجل هو سبب نسيانهم أنفسهم ، فلم يعرفوا حقيقة أنفسهم ، ولا حقيقة مهمتهم في الدنيا ، ولا ما ينتظرهم من سعادة أبدية ، إذا هم أطاعوه .

ومن وجوه الذكر تعليق الفلاح والفوز بدوام ذكر الله ،

وكثرت ، قال تعالى :

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة : ١٠] .

ومن هذه الوجوه التي وردت في القرآن الكريم ، أن الله سبحانه وتعالى ، جعل الغفلة عن ذكر الله ، سبباً لأكبر خسارة ، تنزل بالإنسان .

قال تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون : ٩] .

ما من عطاء ، يناله المؤمن من ربه ، أعظم من أن يذكره الله عز وجل ، وذكر الله للعبد ، جزاءً على ذكر العبد لربه ، أو تذكير العبد عباد الله بربهم ، قال تعالى :

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة : ١٥٢] .

ذكر الله غاية الغايات ، وعلة العبادات ، ومآل الطاعات ، لذلك جعله الله أكبر من كل عباده ، وأعظم من كل قربة ، وغاية كل عمل قال تعالى :

﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف : ٢٧] .

وللعلماء المفسرين ، عند قوله تعالى ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾

مذاهب شتى في التفسير ، فذكر الله عبادة ، هي أكبر من أية عبادة ، هذا هو المعنى الأول ، وإذا ذكرتموه في الصلاة ذكركم ، فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له ، والمعنى الثالث ، وذكر الله عز وجل أكبر من أن يكون معه فاحشة ، ومنكر .

وقال بعض المفسرين : ذكر الله على حقيقته ، أكبر ما في الصلاة ، استنباطاً من قوله تعالى :

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه : ١٤] .

وفي مجمل القول ، جعل الله الذكر قرين الأعمال الصالحة ، وروحها ، فمتى خلا العمل من الذكر ، كان هذا العمل كالجسد بلا روح .

الذكر حياة للقلب ، ففي الصحيحين عن النبي ﷺ :

« مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره مثل الحي والميت »^(١) .

ولفظ مسلم : « مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت » .

وقد قال بعض العلماء : الذكر للقلب مثل الماء للسماك ، فكيف يكون حال السمك ، إذا فارق الماء .

وفي الحديث القدسي « أنا عند ظن عبدي بي ، إن ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلي شبراً ، تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري .

ذراعاً ، تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي ، أتيته هرولاً»^(١) .
ولو لم يكن في الذكر إلا هذه ، وحدها ، لكفى به فضلاً
وشرفاً .

الذكر يطرد الشيطان ويقمعه ، ويرضي الرحمن ويدني منه ،
يزيل الهم ، والغم عن القلب ، يجلب له الفرح ، والغبطة ،
يقوي القلب ، والبدن ، ينور الوجه ، والقلب ، يجلب الرزق ،
يكسو الذاكراً المهابة ، والحلاوة ، والنضرة ، يورث الذكر
محبة الله ، التي هي روح الإسلام ، وقطب رحي الدين ، ومدار
السعادة والنجاة .

الذكر يطرد الشيطان ، ويقمعه ، يروي ابن عباس رضي الله
عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« الشيطان جائم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل ،
وسوس ، فإذا ذكر الله تعالى خنس » (أي تراجع) ولهذا سُمي
الشيطان بالوسواس الخناس ، فعن معاذ بن جبل ، عن
رسول الله ﷺ ، أنه قال :

« ما عمل آدمي عملاً قط ، أنجى له من عذاب الله ، من
ذكر الله عز وجل »^(٢) .

وفي الاشتغال بالذكر اشتغال عن الكلام الباطل ؛ من غيبة ،

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة .

(٢) رواه مالك في الموطأ والترمذي ٣٣٧٤ .

ونميمة ، ولغو ، ومدح ، وذم ، فإن اللسان لا يسكت البتة ،
فإما لسان ذاك ، وإما لسان لاغ ، فالنفس إن لم تشغلها بالخير ،
شغلتك بالشر ، والقلب إن لم تسكنه محبة الله ، سكنته محبة
المخلوقين ، واللسان إن لم تشغله بالذكر ، شغلك باللهو .

قال تعالى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ
اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِقُرُوبِهِمْ
حَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون : ١-٥] .

من فوائد الذكر ، أن في القلب قسوة ، لا يذيبها إلا ذكر الله
عز وجل ، فالقلب كلما اشتدت به الغفلة ، اشتدت به القسوة ،
فإذا ذكر الله ذابت تلك القسوة ، كما يذوب الرصاص بالنار ،
فالذكر شفاء للقلب ، ودواء له ، والغفلة مرض للقلب ، وهلاك
له ، قال أحد العلماء : ذكر الله تعالى شفاء وذكر الناس داء .
إذا مرضنا تداوينا بذكركم فترك الذكر أحياناً فنتكس

الذكر أصل مؤالة الله عز وجل ، والغفلة أصل معاداته ، فإن
العبد ما يزال يذكر ربه حتى يحبه ، فيواليه ، وما يزال العبد يغفل
عن ربه حتى يبغضه ، فيعاديه ، وما عادى عبد ربه بشيء ، أشد
عليه من أن يكره ذكره ، ويكره من يذكره ، وما استجلبت نعم الله
عز وجل ، ولا استدفعت نقمه ، بمثل ذكر الله تعالى ، فذكر الله
تعالى جلاب للنعم ، دافع للنقم .

ذكر الله تعالى جنة الدنيا ، فقد قال أحد العارفين : في الدنيا جنة من لم يدخلها ، لا يدخل جنة الآخرة ، إنها ذكر الله ، وأشار أحد العلماء إلى هذه الجنة فقال « ماذا يستطيع أن يصنع أعدائي بي ، جنتي وبستاني في صدري ، إن رحلت فهي معي ، لا تفارقني ، إن حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة » .

وقال آخر : « مساكين أهل الدنيا ، خرجوا منها ، وما ذاقوا أطيب ما فيها ، قيل له : وما أطيب ما فيها ؟ قال : معرفة الله تعالى ، ومحبه ، ودوام ذكره » .

وقال أحد الذاكرين : إنه لتمر بي أوقات ، أقول : إذا كان أهل الجنة في مثل هذا ، إنهم لفي عيش طيب .

ويُروى أن شاباً من الذاكرين ، بدرت منه هفوة حجبته عن الله عز وجل ، فضاقت نفسه ، وانقبض قلبه ، وبات ينتظر العقاب من الله ، والتأديب ، ولكن لم يحدث شيء من هذا ، فكان من مناجاته لربه أن يا رب : لقد عصيتك فلم تعاقبني ، فوقع في قلبه أن يا عبدي : لقد عاقبتك ولم تدر ، ألم أحرمك لذة مناجاتي وذكرني .

وقال الحسن البصري : « تفقدوا الحلاوة في ثلاثة ، في الصلاة ، وفي الذكر ، وفي قراءة القرآن ، فإن وجدتم وجدتم ، وإلا فالباب مغلق ، فابحثوا عن السبب » .

الذكر سبب لعطاء الله عز وجل ، فالله عز وجل يعطي الذاكر

أكثر مما يعطي السائل ، في الحديث القدسي الذي رواه سيدنا عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ عن ربه :

« من شغله ذكرى عن مسألتي ، أعطيته فوق ما أعطي السائلين » .

الذكر سبب لرحمة الله ، ولسكينة القلب ، ففي صحيح مسلم ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

« لا يقعد قوم يذكرون الله فيه ، إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » ، وبالمقابل « ما جلس قوم مجلساً ، لم يذكروا الله فيه ، ولم يصلوا على نبيهم ، إلا كان عليهم ترة يوم القيامة » (أي نقصاً في حسناتهم ، وتبعاً يحاسبون عليها) .

وعن عائشة رضي الله عنها ، عن رسول الله ﷺ ، أنه قال :
« ما من ساعة تمر بابن آدم لا يذكر الله فيها إلا تحسر عليها يوم القيامة »^(١) .

وإذا أراد العبد أن يقتدي برجل ، فلينظر هل هو من أهل الذكر ، أم من أهل الغفلة ، وهل يحكمه الوحي ، أم الهوى ، فإن كان من أهل الغفلة والهوى ، كان أمره فرطاً .

قال تعالى :

﴿ وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾

[الكهف : ٢٨] .

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في شعب الإيمان وهو حسن .

ذكر الله سبحانه وتعالى يؤنس المؤمن ، ويرقى به ، وذكر الله تعالى يجب أن يكون كثيراً ، لقوله تعالى :

﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۖ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝١٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿١٤﴾

[الأحزاب : ٤١-٤٤] .

من أنواع الذكر ؛ أن تذكر اسم الله ، أن تقول الله ، الله ، لقوله تعالى : ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ [المزمل : ٨] ، ومن أنواع الذكر ، أن تسبحه ، أن تقول سبحان الله ، ومن أنواع الذكر ، أن تحمده ، أن تقول الحمد لله ، ومن أنواع الذكر ، أن توحده ، أن تقول لا إله إلا الله ، ومن أنواع الذكر ، أن تكبره ، أن تقول الله أكبر ، فالعبرة للمقاصد والمعاني ، وليس للألفاظ والمباني ، فسبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، تلك هي الباقيات الصالحات ، التي قال الله تعالى عنها :

﴿أَمْوَالٌ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف : ٤٦] .

وعندما وصف الله تعالى تسبيحه ، وحمده ، وتوحيده ، وتكبيره ، بأنها باقيات صالحات ، وصف زينة الحياة الدنيا ، بشكل ضمني ، بأنها الفانيات الزائلات ، فالدنيا عرض حاضر ،

يأكل منه البر والفاجر ، وأن هذه الفانيات قد تكون سبباً لشقاء الإنسان ، وهلاكه ، إذا ألهمته عن ذكر الله .

قال تعالى :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون : ٩] .

ومن أنواع الذكر أن تستغفره ، قال تعالى :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح : ١٠-١٢] .

ومن أنواع الذكر أن تدعوه ، فالدعاء هو العبادة ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۚ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

ومن أنواع الذكر ، أن تذكر أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، ووعدته ووعيده ، وجنته وناره .

ومن أنواع الذكر ، أن تذكر أعمال الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وأن تبتعد عن المغضوب عليهم ، وعن الضالين ، والمضلين ، كي تصح عبادتك .

ومن أنواع الذكر ، أن تذكر آياته القرآنية ، قال تعالى :

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٨] .

فلا يحزن قارئ القرآن ، ومن تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت .

ومن أنواع الذكر ، أن تذكر آياته التكوينية ، أي أفعاله ، قال تعالى :

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر : ٥١] .

ومن أنواع الذكر ، أن تذكر آياته الكونية ، فالمؤمنون الصادقون يتفكرون في خلق السماوات والأرض ، ويقولون : ربنا ما خلقت هذا باطلاً ، سبحانه فبقنا عذاب النار ، والله تعالى يقول :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

* * *

من الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل ، والتي بثها في الآفاق ، التجاذب الحركي فيما بين الكواكب والنجوم ، هذا

التجاذب ينتظم الكون كله ، بدءاً من الذرة ، وانتهاء بالمجرة ، فالشمس مثلاً تجذب الأرض إليها بقوة هائلة ، بحيث تجري الأرض في مسار مغلق حول الشمس ، ولو انعدم جذب الشمس للأرض ، لخرجت الأرض عن مسارها حول الشمس ، ولاندفعت في متاهات الفضاء الكوني ، حيث الظلمة والتجمد ، وبزوالها عن مسارها ، أي بانحرافها عنه ، تزول وتنعدم الحياة فيها ، إذ تصل حرارتها إلى درجة الصفر المطلق ، قال تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر : ٤١] .

ولو أردنا من باب الافتراض ، أن نستعيض عن قوة جذب الشمس للأرض بأعمدة من فولاذ ، نربط بها الأرض بالشمس ، لاحتجنا إلى مليون مليون حبل ، أو عمود فولاذي ، طول كل حبل مئة وستة وخمسون مليون كم ، وقطره خمسة أمتار ، وكل حبل من هذه الجبال ، يتحمل من قوى الشد ، ما يزيد على مليوني طن ، أعرفتم ، كم هي قوة جذب الشمس للأرض ، ثم إذا زرعنا هذه الجبال على سطح الأرض المقابل للشمس ، لفوجئنا أننا أمام غابة من الأعمدة الفولاذية ، بحيث تقل المسافة بين العمودين عن قطر عمود ثالث ، هذه الغابة من الأعمدة ، تحجب عنا أشعة الشمس ، وتمنعنا من كل حركة ونشاط ، كل هذه القوة ، قوة جذب الشمس للأرض ، والتي تزيد على مليوني طن ، مضروبة بمليون مليون ، من أجل أن تنحرف الأرض عن

مسارها المستقيم ، ثلاث ميليمترات في كل ثانية ، من أجل أن تشكل مساراً مغلقاً حول الشمس ، الآن لندقق في قوله تعالى :

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد : ٢] .

أي بعمد لا ترونها ، إنها قوى التجاذب ، كلمة « ترونها » صفة لعمد ، وهي قيد لها ، وهي تفيد فيما تفيد ، أن الله رفع السماوات بعمد ، لانراها ، إنها قوى التجاذب الحركي ، التي تنظم الكون كله قال تعالى :

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت : ٥٣] .

﴿كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر : ٢٨] .

هذه آية من آيات الآفاق ، فماذا عن بعض آيات النفس .

لو أن رجلاً كان يتنزه في بستان ، ولمح فجأة حشرة مؤذية قاتلة ، فما الذي يحدث في جسمه ، ينطبع خيال هذه الحشرة على شبكية العين إحساساً ، وينتقل هذا الإحساس الضوئي إلى المخ إدراكاً ، وعندها يأمر المخ الغدة النخامية ، ملكة الجهاز الهرموني ، يأمرها أن تواجه هذا الخطر بحكمتها ، هذه الملكة الغدة النخامية التي لا يزيد وزنها على نصف غرام ، هذه الغدة

تصدر أمراً هرمونياً لغدة الكظر فوق الكليتين ، كي تعطي الجسم الجاهزية القصوى ، لمواجهة الخطر والكظر بدوره يعطي أولاً أمراً هرمونياً إلى القلب ليسرع نبضاته ، فالخائف تزداد نبضات قلبه ، ويعطي الكظر أمراً هرمونياً ثانياً إلى الرئتين ، ليتوافق وجيهما مع ازدياد نبضات القلب ، الخائف يزداد وجيب رئتيه (أي يلهث) ويعطي الكظر أمراً ثالثاً هرمونياً إلى الأوعية الدموية المحيطة فتضيق لمعتها ، ليتجول الدم في العضلات بدل الجلد ، الخائف يصفر وجهه ، ويعطي الكظر أمراً هرمونياً رابعاً للكبد ، لي طرح في الدم كمية إضافية من السكر ، لأنه وقود العضلات ويعطي الكظر أمراً هرمونياً خامساً فترتفع نسبة هرمون التجلط لئلا ينزف الدم سريعاً ، كل هذا يتم في لمح البصر ، والإنسان لا يعلم ماذا يجري في جسمه ، هذا خلق الله ، فأروني ماذا خلق الذين من دونه ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون .

من أنواع الذكر ، أن تذكر العباد بربهم ، أن تدعو إليه معرفاً إياهم ، بوجوده ، وكماله ، ووحدانيته ، معرفاً إياهم بكتابه الذي يهدي للتي هي أقوم ، معرفاً إياهم برسوله صاحب الخلق العظيم ، وبسنة رسوله ، وبسيرته ، مخاطباً عقولهم تارة ، وقلوبهم تارة أخرى ، أن تذكرهم ، وأن تكون قدوة لهم ، قال تعالى :

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رُسُلًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيْكُمْ

وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿

[البقرة : ١٥١] .

* * *

كما اهتديت إلى الله ؛ اسع في هداية الخلق ، كن هادياً مهتدياً ، كن صالحاً مصلحاً ، وهذا من أعظم أنواع الذكر ، إنه عمل الأنبياء والمرسلين ، إنه عمل الصديقين والموحدين ، إنه عمل العلماء العاملين المخلصين ، إنهم السابقون السابقون في جنات النعيم ، وقد وسع الإمام النووي ، رحمه الله تعالى ، مفهوم الذكر ، فقال : اعلّموا أن فضيلة الذكر ، غير منحصرة في التسبيح ، والتهليل ، والتحميد والتكبير ، ونحوها ؛ بل كل عامل لله تعالى بطاعته ، هو ذاكر له ، أية طاعة تطيع الله بها ، فأنت ذاكر له .

* * *

يوم عرفة

العبادات الشعائرية : ومنها الحج ، وسائل ينتظر أن ينعقد ، خلالها ، اتصال بين هذا الإنسان ، الحادث ، الفاني ، المحدود ، الصغير ؛ وبين الخالق ، المطلق ، الأزلي ، الباقي ، الذي خلق هذا الوجود ، وعندها ينطلق الإنسان من حدود ذاته الصغيرة إلى رحابة الكون الكبير ، ومن حدود قوته الهزيلة إلى عظمة الطاقات الكونية ، ومن حدود عمره القصير إلى امتداد الآباد التي لا يعلمها إلا الله ..

هذا الاتصال لا ينعقد إلا أن يكون الإنسان ملتزماً بالمنهج التعبدي ، والتعاملي ، والأخلاقي ، فيما بينه وبين الخلق ، هذا الاتصال هو جوهر الدين ، فالصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين .

الصلاة هي الفرض المتكرر الذي لا يسقط بحال ، وفيها طرف من كل ركن من أركان الإسلام ؛ ففيها النطق بالشهادتين ، وهي

أول أركان الإسلام ، وفيها من الصيام ، فضلاً عن ترك الطعام والشراب ، امتناع عن الحركة والكلام ، وفيها من الزكاة إنفاق الوقت ، والوقت أصل في كسب المال ، وإذا كان المال الذي يؤدي للفقير صوتاً للمال من التلف ، ونماء له ؛ كذلك الوقت الذي ينفق للصلاة ، يصون بقية الوقت من الهدر ، ويبارك فيه ، بمعنى أن المصلي يحقق في الوقت القصير الإنجاز الكبير ، وفيها من الحج التوجه نحو بيت الله الحرام ، محرماً بتكبيره الإحرام .

من ثمار هذا الاتصال ، أنه يطهر الإنسان من عوامل انحطاطه ، وشقائه ، الصلاة طهور ، كما قال عليه الصلاة والسلام ، ومن ثمار هذا الاتصال ، أنه ينور قلب المتصل ، بنور علوي ، يريه حقائق الأشياء ، فلا ينخدع بصورها ، الصلاة نور كما قال عليه الصلاة والسلام ، ومن ثمار هذا الاتصال ، أنه يسعد المتصل سعادة ، تنبع من ذاته ، قال أحد العارفين : « ماذا يصنع أعدائي بي ، بستاني في صدري ، إن حبسوني فحبسي خلوة ، وإن أبعدونني فإبعادي سياحة ، وإن قتلوني فقتلي شهادة » ، المتصل بالله طاهر السريرة ، مستنير البصيرة ، منغمس في سعادة ، لا تستطيع سبائك الذهب اللامعة ، ولا سياط الجلادين اللاذعة ، أن تصرفه عنها ، هذا الاتصال يتفاوت كمّاً ونوعاً ، وأمداً ، من عبادة إلى أخرى .

ففي الصلاة يشحن المصلي شحنة روحية تطهره ، وتنوره ، وتسعده إلى الصلاة التي تليها

لكن فريضة الجمعة ، وخطبتها ينبغي أن تشحنه شحنة أكبر وأطول ، ينبغي أن تشحنه إلى الجمعة التي تليها .

أما الصيام ، فقد أراده الله ثلاثين يوماً ، يترك فيها الصائم طعامه وشرابه ، لتكون الشحنة الروحية كافية لعام كامل .

أما الحج فهو عبادة ، تؤدي في العمر مرة واحدة ، فرضاً ، وهو عبادة شعائرية ، مالية ، بدنية ، تؤدي في أوقات معلومة ، وأمكنة مخصوصة ؛ لذلك تحتاج إلى تفرغ تام ، من تعلقات الدنيا كالوطن ، والأهل ، والأولاد ، والعمل ، وتفرغ كامل من كل الحجب ، والأقنعة ، التي تبعد النفس عن خالقها ، فلا بد للحاج من أن يخلع ثيابه ، التي تعبر بشكل أو بآخر عن دنيائه ، ولا بد من أن يبتعد عن أكثر المباحات ، التي تشده إلى الدنيا ، كل هذا من أجل أن يشحن المؤمن في الحج شحنة روحية كبيرة ، تكفي لأن يلتزم بمنهج الله ، وأن يقبل عليه ، وأن يعمل للدار الآخرة ، إلى أن يلقي ربه .

ركن الحج الأكبر هو الوقوف بعرفة ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « الحج عرفة »^(١) .

لذلك يعد يوم عرفة ، يوم اللقاء الأكبر ، بين العبد المنيب المشتاق ، وبين ربه التواب الرحيم ، فيوم عرفة يوم المعرفة ، ويوم عرفة يوم المغفرة ، ويوم عرفة يوم تنزل فيه الرحمات على العباد ، من خالق الأرض والسموات ، ومن هنا قيل : من وقف

(١) جزء من حديث أخرجه أصحاب السنن الأربعة والبيهقي والحاكم وأحمد وغيرهم وهو صحيح انظر إرواء الغليل رقم ١٠٦٤ .

في عرفات ولم يغلب على ظنه أن الله قد غفر له فلا حج له .

عن جابر رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ :

« ما من أيام عند الله أفضل من عشر ذي الحجة ، فقال رجل هن أفضل ، أم من عدتهن جهاداً في سبيل الله ؟ قال : هن أفضل من عدتهن جهاداً في سبيل الله ، وما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة ، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا ، فيباهي بأهل الأرض أهل السماء ، يقول انظروا إلى عبادي جاؤوني شعثاً غبراً ضاحين ، جاؤوا من كل فج عميق ، يرجون رحمتي ، ولم يروا عذابي ، فلم يُر يوم أكثر عتقاً من النار من يوم عرفة »^(١) .

وروى ابن المبارك ، عن سفيان الثوري ، عن الزبير بن عدي ، عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، قال : وقف النبي ﷺ بعرفات ، وقد كادت الشمس أن تؤوب ، فقال : يا بلال أنصت لي الناس ، فقام بلال ، فقال : أنصتوا لرسول الله ﷺ ، فأنصت الناس ، فقال عليه الصلاة والسلام : « معشر الناس . . . أتاني جبريل عليه السلام آنفاً ، فأقرأني من ربي السلام ، وقال : إن الله عز وجل غفر لأهل عرفات ، وأهل المشعر الحرام ، وضمن عنهم التبعات » ، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : يا رسول الله هذه لنا خاصة ؟ قال : هذه لكم ، ولمن أتى من بعدكم ، إلى يوم القيامة ، فقال عمر رضي الله عنه : كثر خير الله وطاب^(٢) .

(١) قال المنذري رواه أبو يعلى والبزار وابن خزيمة وابن حبان واللفظ له .

(٢) الحديث مذكور في الترغيب والترهيب للمنذري وإسناده حسن .

وروى الإمام مسلم ، وغيره عن عائشة رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ قال : « ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة ، وإنه ليدنو عز وجل ، ثم يباهي بهم الملائكة ، فيقول ماذا أراد هؤلاء » .

وعن أبي الدرداء ، رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : ما رأيي الشيطان يوماً ، هو فيه أصغر ، ولا أدحر ، ولا أغيط منه ، من يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب العظام ، إلا ما أرى من يوم بدر ، قيل : وما رأى يوم بدر يا رسول الله ؟ قال : أما إنه رأى جبريل يزع الملائكة أي : يقودهم^(١) .

روى الإمام أحمد ، والترمذي ، أن النبي ﷺ قال : « خير الدعاء دعاء يوم عرفة ، وخير ما قلت - أنا والنبیون من قبلي - لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير »^(٢) .

ويروى عن حسين المروزي قال : سألت سفيان بن عيينة عن أفضل الدعاء يوم عرفة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، فقلت له : هذا ثناء وليس بدعاء ، فقال : أما تعرف حديث مالك بن الحارث ، هو تفسيره ، قلت : حدّثني أنت ، فقال :

(١) رواه الإمام مالك مرسلاً والحاكم موصولاً . انظر مشكاة المصابيح ٢٦٠٠ .

(٢) أخرجه الترمذي وهو حسن انظر سنن الترمذي رقم ٢٨٣٧ .

حدثنا مالك بن الحارث ، قال : يقول الله عز وجل : إذا شغل عبدي ثناؤه علي عن مسألتي ، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين ، قال : وهذا تفسير قول النبي ، ثم قال سفيان : أما علمت ما قال أمية بن أبي الصلت ، حين أتى عبد الله بن جدعان ، يطلب نائله ، (أي عطاءه) ، قلت : لا ، قال : قال أمية :

أذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء وعلمك بالحقوق وأنت فرع لك الحسب المهذب والثناء إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناء

ثم قال : يا حسين ، هذا مخلوق يكتفى بالثناء عليه دون مسألة ، فكيف بالخالق ؟ ! .

قصة سيدنا يونس عليه السلام ، خير ما يؤكد هذا المعنى ، ما من مصيبة أشد من أن يجد الإنسان نفسه فجأة في ظلمة بطن الحوت ، وفي ظلمة أعماق البحر ، وفي ظلمة الليل ، وما من مصيبة انقطعت معها كل أسباب الخلاص ، كهذه المصيبة ، فنادى يونس عليه السلام :

﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ [الأنبياء : ٨٧ - ٨٨] .

فاستجبنا له ، دقق في كلمة « فاستجبنا » ، أي إن الله جل

جلاله ، عد ثناء يونس دعاء ، « فاستجبنا له ، ونجينا من الغم » ، انتهت القصة ، ولئلا يظن قارئ القرآن أنها قصة تاريخية ، وقعت مرة ، ولن تقع مرة أخرى ، جعلها الله قانوناً ، بهذا التعقيب ، جعلها الله قانوناً ، ساري المفعول ، في كل زمان ومكان ، إلى أن يرث الله الأرض ، ومن عليها ، التعقيب :

﴿وَكَذَلِكَ نُنْشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٨] .

أي مؤمن ، إذا دعا الله عز وجل مضطراً ، فإن الله سبحانه وتعالى يجيبه ، يجيبه لبحسب حال الداعي ، بل برحمة الله التي وسعت رحمته كل شيء ، فالمؤمن الحق ، لا يقنط من رحمة الله ، ولا ييأس من نصر الله .

لذلك... لا يسع الحاج بعد أن أفاض من عرفات ، وقد حصل له هذا اللقاء الأكبر ، وأشرق في نفسه أنواره ، واصطبغت نفسه بصبغة الله ، لا يسعه وقد ذكر فضل الله عليه ، عند المشعر الحرام ، ذكره وشكره على نعمة الهدى والقرب ، لا يسعه ، وقد عبر تعبيراً رمزياً ، عن عداوته للأبدية للشيطان ، برمي جمرة العقبة ، لا يسعه ، بعد أن لبي دعوة ربه ، وحظي بقربه ، ورأى طرفاً من جلال ربه وكماله وإكرامه ، لا يسعه إلا أن يكبر الله على نعمة الهدى والقبول والقرب ، لذلك قطع النبي ﷺ التلبية ، بعد رمي جمرة العقبة ، والحلق ، وبدأ بالتكبير ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، مع أخواتها سبحانه الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، هي الباقيات الصالحات ، في قوله تعالى :

﴿أَلَمَالٌ وَلَٰبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف : ٤٦] .

فالمرء إذا سبَّح الله حقيقة ، وحمده ، ووحده ، وكبره ، فقد عرفه ، وإذا عرفه أطاعه ، وإذا أطاعه استحق جنته ، وما عند الله خير ، وأبقى من الدنيا ، الدنية الفانية .

والله أكبر ، يفتح بها الأذان ويختم بها ، ليشعر المسلم ، وهو يسمع الأذان ، وهو منغمس في عمله ، وتجارته ، أن ما عند الله ، حينما يمثل العبد أمره ، بتلبية النداء ، أكبر من كل شيء بين يديه ، مهما يكن كبيراً .

والله أكبر نفتتح بها صلاتنا ، ونردها في أثناء الصلوات الخمس ، ما يزيد على مئتين وخمسين مرة ، في اليوم الواحد ، وقد أصاب بعض الفقهاء ، حين عدها أقرب إلى الشرط ، الذي ينبغي أن يستمر طوال الصلاة ، منها إلى الركن ، الذي ينقضي بأدائه ، فالمصلي ينبغي أن يلحظ في أثناء صلاته ، أن الله أكبر من كل شيء ، يشغله عن الخشوع لربه .

والله أكبر نردها عقب انتصارنا على أنفسنا ، عقب عبادة الصيام ، في عيد الفطر السعيد ، وعقب عبادة الحج ، في عيد الأضحى المبارك ، لذلك سن لنا النبي ، ﷺ ، التكبير في العيدين ، لأنه تحقيق للعبودية لله ، والعودة إليه .

إذا رجع العبد إلى الله ، نادى مناد في السماوات والأرض : أن هتؤا فلاناً ، فقد اصطَلَحَ مع الله .

والله أكبر نردها ، ونحن نواجه أعداءنا ، وبعد أن نتنصر عليهم ، من أجل أن نشعر ، أن الله أكبر من كل كبير ، وأن النصر من عند الله ، قال تعالى :

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال : ١٠] .

والله أكبر يردها المؤمن السالك إلى الله ، فتعني عنده أنه كلما كشف له جانب من عظمة الله ، جانب من قدرة الله ، جانب من رحمة الله ، جانب من إكرام الله ؛ تعني ، عنده ، أن الله أكبر مما رأى . وكما قال الإمام الشافعي : « كلما ازدادت علماً ازدادت علماً بجهلي » .



ومجمل القول ، إن المؤمن ، مهما ازدادت معرفته بربه ، فالله أكبر مما عرف ، والعبرة كل العبرة لا في ترديد لفظها ، بل في معرفة مضمونها ، ومضمون هذا الكلمة يؤكد ، ويحدده سلوك المؤمن ، والنبى ﷺ ، قمة البشر في معرفة مضمون كلمة « الله أكبر » .

أرسلت قريش عتبة بن ربيعة إلى رسول الله ﷺ ليقول له : « لقد أتيت قومك بأمر عظيم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً ، لعلك تقبل بعضها ، إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالا ، جمعنا

لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد شرفاً ،
سودناك علينا ، فلا تقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ،
ملكناك علينا » ، فلم يفلح في هذا المحاولة .

ثم حاولت قريش ، عن طريق عمه أبي طالب ، أن تكفه عن
دعوته ، فقال له عمه أبو طالب : « يا بن أخي أبقِ على نفسك
وعليّ ولا تحمّلني من الأمر مالا أطيع » ، فما كان من
رسول الله ﷺ إلا أن قال قوله الشهيرة ، « والله يا عم ، لو
وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في شمالي ، على أن أترك هذا
الأمر ، ما تركته ، حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه » .

الله أكبر ، قالها أصحاب رسول الله ، قالوها بألسنتهم ،
وامتلاأت بها قلوبهم ، وصدقته أعمالهم ، ففعلوا ، وهم قلة ،
ما نعجز عن فعل معشاره ، ونحن كثرة ، فالواحد ممن يقولها ،
ويصدقها عمله كألف ، والألف ممن يقولها ، ولا يصدقها
عمله ، كأف .

سيدنا سعيد بن عامر ، أرادت زوجته أن تحمله على الكف
عن الإنفاق في سبيل الله ، قال لها : « لقد كان لي أصحاب
سبقوني إلى الله ، وما أحب أن أنحرف عن طريقهم ، ولو كانت
لي الدنيا وما فيها ، وقد خشي أن تدل عليه بجمالها ، وهو سلاح
النساء ، فقال لها : تعلمين أن في الجنة من الحور العين ، ما لو
أطلت واحدة منهن على الأرض ، لغلب نور وجهها ضوء الشمس

والقمر ، فلأن أضحي بك من أجلهن ، أخرى ، وأولى من أن أضحي بهن من أجلك ، قال هذا الصحابي الجليل الله أكبر بلسانه ، وامتلأ بها قلبه ، وصدقها عمله .

راع ، من عامة المسلمين ، يرعى شياهاً ، قال له ابن عمر ، ممتحناً : بِعْني هذه الشاة ، وخذ ثمنها ، قال : ليست لي ، قال : قل لصاحبها ماتت ، أو أكلها الذئب ، وخذ ثمنها ، قال : والله ، إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها : ماتت ، أو أكلها الذئب لصدقني ، فإني عنده صادق أمين ، ولكن... أين الله .

قال هذا الراعي : الله أكبر بلسانه ، وامتلأ بها قلبه ، وصدقها عمله .

إذا أطاع المرء مخلوقاً ، كائناً من كان ، وعصى خالقه ، فهو ما قال : الله أكبر ، ولا مرة ، ولو ردها بلسانه ألف مرة ، لأنه إنما أطاع الأقوى في تصوره .

وإذا غش المرء الناس ، ليحني المال الوفير ، فهو ما قال الله أكبر ، ولا مرة ، ولو ردها بلسانه ألف مرة ، لأنه إنما رأى أنما هذا المال أكبر عنده من طاعة الله ورسوله .

وإذا لم يقم المرء الإسلام في بيته ، إرضاء لأهله ،

ولأولاده ، فهو ما قال الله أكبر ، ولا مرة ، ولو ردّها بلسانه
ألف مرة ، لأنه إنما رأى أن إرضاء أهله أكبر عنده من إرضاء
ربه .

كلمة الله أكبر ، لو عرف المسلمون مضمونها ، فرددوها
بألسنتهم ، وامتألت بها قلوبهم ، وصدقته أعمالهم ، لكانوا في
حال آخر مع الله ، وموقف آخر مع الخلق .

لنردد الله أكبر ، بألسنتنا ، ولنتعرف إلى مضمونها ، ولتكن
أعمالنا مصدقة لها ، حتى نستحق أن يرحمنا الله ، وأن ينصرنا
على أعدائنا .



الأضحى : شعيرة من شعائر المسلمين ، في عيد الأضحى
المبارك ، فمشروعيتها ، أن رسول الله ﷺ قال : « من وجد سعة
لأن يضحي ، ولم يضح ، فلا يقربن مصلانا »^(١) .

وقد استنبط أبو حنيفة ، رحمه الله تعالى ، من هذا الحديث ،
أنها واجبة ، فمثل هذا الوعيد ، لا يلحق بترك غير الواجب ،
وقال غير الأحناف : إنها سنة مؤكدة ، ولهم أدلتهم .

(١) أخرجه الإمام أحمد ، وابن ماجه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو حسن .

فهي واجبة ، مرة في كل عام ، على المسلم ، الحر ، البالغ العاقل ، المقيم ، الموسر .

ومن حديث أنس رضي الله عنه ، قال : ضحى رسول الله ﷺ ، بكبشين ، أملحين ، أقرنين ، فرأيته واضعاً قدميه على صفاحهما ، يسمي ويكبر ، فذبحهما بيده الشريفة^(١) .

وحكمتها : أن المسلم الموسر ، يعبر بها عن شكره لله تعالى على نعمه المتعددة ؛ منها نعمة الهدى ، ومنها نعمة البقاء على قيد الحياة ، من عام إلى عام ، فخيركم من طال عمره ، وحسن عمله ، ومنها نعمة السلامة والصحة ، ومنها نعمة التوسعة في الرزق .

وهي : فضلاً عن ذلك ، تكفير لما وقع من الذنوب ، وتوسعة على أسرة المضحي ، وأقربائه ، وأصدقائه ، وجيرانه ، وفقراء المسلمين .

ومن شروط وجوبها اليسار ، فالموسر هو مالك نصاب الزكاة ، زائداً عن حاجاته الأساسية ، أو هو الذي لا يحتاج إلى ثمن الأضحية أيام العيد فقط ، أو هو الذي لا يحتاج إلى ثمن الأضحية خلال العام كله ، على اختلاف بين المذاهب ، في تحديد معنى الموسر .

وينبغي أن يكون الحيوان المضحي به سليماً من العيوب الفاحشة ، التي تؤدي إلى نقص في لحم الذبيحة ، أو تضر

(١) أخرجه البخاري في باب [ذبح الأضاحي بيده] .

بآكلها ، فلا يجوز أن يضحي بالدابة ؛ البين مرضها ، ولا العوراء ، ولا العرجاء ، ولا العجفاء ، والجرباء ، ويستحب في الأضحية ؛ أسمنها ، وأحسنها ، وكان ﷺ ، يضحي بالكبش الأبيض الأقرن .

ووقت نحر الأضحية ، بعد صلاة عيد الأضحى ، وحتى قبيل غروب شمس اليوم الثالث من أيام العيد ، على أن أفضل الأوقات هو يوم العيد ، ما بعد صلاة العيد ، وحتى قبل زوال الشمس . ويكره ، تنزيهاً ، الذبح ليلاً .

ولا تصح الأضحية إلا من النعم ؛ من الإبل ، والبقر ، والغنم من ضأن ومعرز ، بشرط أن يتم الضأن ستة أشهر ، وأن تتم المعز سنة كاملة عند بعض الأئمة .

ويُجزىء المسلم أن يضحي بشاة عنه ، وعن أهل بيته ، المقيمين معه ، والذين ينفق عليهم ، وهم جميعاً مشتركون في الأجر .

ومن مندوبات الأضحية أن يتوجه المضحى نحو القبلة ، وأن يباشر الذبح بنفسه ، إن قدر عليه ، وأن يقول « باسم الله ، والله أكبر ، اللهم هذا منك وإليك ، اللهم تقبل مني ، ومن أهل بيتي » .

وله أن يوكل غيره وعندها يستحب أن يحضر أضحيته .

ويستحب أن يوزعها أثلاثاً ، فياكل هو وأهل بيته الثلث ، ويهدي لأقربائه ، وأصدقائه ، وجيرانه الثلث ، ويتصدق بالثلث

الأخير على الفقراء والمسلمين ؛ لقوله تعالى :

﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ [الحج : ٣٦] .

قال تعالى :

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْتِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْنَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾

[الحج : ٣٦-٣٧] .

* * *

مقام إبراهيم

إن المقصد الأول من العبادات هو الامتثال لأمر الله ، والوفاء بحقه ، ومع هذا لا يخفى أن وراء العبادات آثاراً طيبة ، ومنافع جمّة في حياة الفرد ، والجماعة ، والحج هو أكثر هذه العبادات اشتمالاً على الأمور التعبدية ، التي لا تُعرفُ حكمتها ، معرفة تفصيلية على وجه التأكيد ، لكن الحج أوضح هذه العبادات أثراً في حياة المسلمين - أفراداً وشعوباً - كيف لا ؟ وقد قال الله عز وجل :

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج : ٢٧ - ٢٨] .

إن هذا التعليل القرآني ، لهذه الرحلة المباركة ، التي يقطعها الناس ، قادمين من كل فج عميق ، يفتح لنا باباً رحباً للتأمل في هذه المنافع المشهودة ، التي قدمها القرآن الكريم .

الحج شحنة روحية كبيرة ، يتزود بها المسلم ، فتملاً جوانحه

خشيةً وتقىً وعزماً على طاعة الله ، وندماً على معصيته ، وتغذي فيه عاطفة الحب لله ، ولرسوله ، ولمن عزَّروه ، ونصروه ، واتبَعُوا النور الذي أُنْزِلَ معه ، وتوقظ في المسلم مشاعر الأخوة لأبناء دينه ، في كل مكان ، وتوقد في صدره شُعْلَةَ الحماسة الدينية لدينه ، والغيرة على حرماته .

إن الأرض المقدسة ، وما لها من أثرٍ في النفس ، وقوة الجماعة وما لها من إحياء في الفكر والسلوك ، كل هذا يترك أثراً واضحاً في أعماق المسلم ، فيعود من رحلته ، أصفى قلباً ، وأطهر مسلكاً ، وأقوى عزيمةً على الخير ، وأصلب عُوداً أمام مغريات الشر ، وكلما كان الحجُّ مبروراً ، خالصاً لله عز وجل ، كان أثره في حياة المسلم المستقبلية واضحاً ، لأن هذه الشحنة الروحية العاطفية تهز كيانه المعنوي هزاً ، بل تُنشِئُه خلقاً آخر ، وتعيده كأنما هو مولود جديد ، يستقبل الحياة - وكله طُهرٌ ونقاء - لهذا قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه »^(١) .

أداء فريضة الحج ، تمام نعمة الله على المؤمن ، لقد جعل الله البيت الحرام قبلةً للمؤمن ، يتجه إليه كل يوم خمس مرات في صلاته ، وهكذا شاءت إرادة الله أن ينشغل فؤاد المؤمن بهذا البيت ، وهو بعيدٌ عنه ، إلى أن يؤدي فريضة الحج ، والحج تمام

(١) متفق عليه .

نعمة الله على المؤمن ، لأن المؤمن لا يحج إلا إذا كان مستطيعاً ببدنه ، الذي سلّمه الله له وقوّاه ، وبماله الذي ادخره للحج فائضاً عن حاجاته الأساسية ، وبنفقة أهله وعياله في غيبته ، فهو نوع من الغنى ، ومن تمام نعمة الله على المؤمن في الحج ، أن إيمانه بالله ورسوله ، كان في المستوى الذي حمله على مغادرة الأوطان ، وترك الأهل والخلان ، وإنفاق الأموال ، ومن تمام نعمة الله على المؤمن ، أنه ما حج بيت الله الحرام ، إلا وهو مؤدّ لجميع ما كلف به ، من عبادات شعائرية ، كالصلاة والزكاة والصيام ، وعبادات تعاملية ؛ من توبة نصوح ، وأداء لجميع الواجبات ، ووفاء لكل الحقوق .

الحج عبادة شاملة لكل أركان الإسلام ، ففيه من الصلاة : أنك تذهب إلى بيت الله الحرام ، لتصلي فيه ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

« صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مئة ألف صلاة فيما سواه »^(١) .

وفي الحج من الزكاة : إنفاق الأموال في التنقل ، والسكنى والطعام ، والشراب ، والرسوم ، وفي الحديث الشريف :

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد (٣/٣٤٣ ، ٣٩٧) وابن ماجه (١٤٠٦) عن جابر .

« النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله سبعة ضعف » (١) .

وفي الحج من الصوم : أنك تبتعد عن المباحات ؛ من لبس المخيط ، والتطيب ، والحلق ، والتقليم ، وكلها مباحة خارج الحج .

وفي الحج من معنى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله : أنك تحج بيته الحرام ، تلبيةً لأمره ، وطاعةً له ، ولا أدل على ذلك من قولك في التلبية : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، وتؤدي مناسك الحج ، كما علمنا إياها رسول الله ﷺ حينما قال : « خذوا عني مناسككم » (٢) .

الحج عبوديةٌ لله عز وجل ، عبوديةٌ لخالق السماوات والأرض رب العالمين ، إنَّ عبودية الإنسان لله تقتضي أن يبتعد عن التعالي على أخيه الإنسان ، ففي المسجد - مثلاً - من يَصِلُ أولاً يجلس في الصف الأول ، ومن يأتي متأخراً يجلس في الصف الأخير ، والذي يحدث أنك تجد من كان في مجتمعه في الصف الأخير ، قد تجده في المسجد في الصف الأول ، إنَّ هذه المساواة في العبودية لله عز وجل ، تخرج الإنسان عن التعالي ، وتجعله يتواضع ، بحيث يُحسُّ جميع المؤمنين أنهم يقفون أمام إله واحد ، لا ينظر إلى صورهم ، وهيئاتهم ؛ وإنما ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم ، هذا في بيئة المسجد .

(١) أخرجه أحمد في مسنده وتصحيح السيوطي له : صحيح .

(٢) حديث صحيح رواه مسلم .

ولكن الله جل جلاله أراد أن يجعل هذه المساواة ، وهذا الخضوع ليس في بيئة محدودة ، ولكن في نطاق عالمي ، وفي بيئة عالمية ، تجمع كل أجناس البشر ، نتميز كما نشاء في بلادنا ، وبين أهلينا ، ولكن عندما نصل إلى بيت الله الحرام ، لا بد من أن نقف أمام الله متساوين ، كما خَلَقْنَا ، وكما سنقف أمامه يوم القيامة .

الحج أدبٌ رفيع مع عناصر الكون كلها ، فمن لوازم العبودية لله في الحج أن الله ألزم الحاج بالتأدب مع كل أجناس الكون ، مع الجماد في تقبيل الحجر الأسود ، ومع النبات في النهي عن قطعه ، ومع الحيوان في تحريم صيده ، ومع الإنسان في حرمة التشاجر معه ومجادلته .

البكاء في بيت الله الحرام من لوازم العبودية لله في الحج ، فالحاج حينما يدخل بيت الله الحرام ، ويطوف حول الكعبة المشرفة تنهمر عيناه بالدموع ، هذا البكاء تعبيرٌ عن الندم على ما سبق منه من ذنوب ، وتضرعٌ إلى الله أن يقبل توبته ، وأن يعفو عنه ، هذا البكاء تعبيرٌ عن ترك العُجْب والكبرياء ، والتذلل لخالق الأرض والسماء ، هذا البكاء تعبير عن أن الحاج تخلى عن كل شيء ، وخضع إلى الله في كل شيء ، ومع أن البكاء في الأصل ، مظهرٌ من مظاهر الضعف ، والحزن ، فإنه في الحج ليس كذلك ، هذا البكاء في الحج إحساسٌ عميق بأن السعادة الحقيقية هي في

القرب من الله ، « لو يعلم الملوك ما نحن عليه ، لقاتلونا عليه بالسيوف » ، « ياربّ ماذا وجد من فقدك ، وماذا فقد من وجدك » ، هذا القرب الشديد من الله عز وجل في أثناء البكاء ، هو الذي يجعل لهذا البكاء روحانية مفعمة بالفرح ، فرح التخلص من الآثام ، ونيل رضا خالق الأكوان ، فرحة الانضمام إلى عباد الله الصالحين .

في بيت الله الحرام ، آياتُ بينات ، مقام إبراهيم ، أي إن هناك آيات كثيرة في مقام إبراهيم .

من هذه الآيات : أنَّ إبراهيم عليه السلام كان أمة وحده ، فقد اجتمعت فيه من خصال الخير ، ما لا تجتمع إلا في أمة . . . ، تقول هذا أمين ، وهذا صادق ، وهذا كريم ، ولكن خصال الخير كلها اجتمعت في إبراهيم عليه السلام ، ومن هذا مقولة : أن أمة محمد ﷺ معصومةٌ بمجموعها ، بينما النبي صلى الله عليه وسلم معصومٌ بمفرده .

ومن هذه الآيات البينات أنَّ حجم الإنسان عند الله بحجم عمله ، وأن إبراهيم عليه السلام ، من حيث العمل الذي أجراه الله على يديه ، عمله يساوي عمل أمة ، فإذا أردت أن تعرف مقامك ، فانظر فيما استعملك ، وهذا يذكرنا بقول الله عز وجل يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

من هذه الآيات البينات ، أنَّ إبراهيم عليه السلام أقبل على بناء الكعبة ، وإعلائها تنفيذاً لأمر الله تعالى ، بإتقانٍ شديد ، والإتقانُ في تنفيذ الأمر ، دليل قطعي على محبة الأمر ، وهذا يذكرنا بقول النبي ﷺ :

« إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه »^(١) .

من هذه الآيات البينات في مقام إبراهيم : أن الله خلق الكون وجعله يعمل بالأسباب ، فالذي يأخذ بالأسباب ، ويتقنها ، تعطيه هذه الأسباب النتائج - مؤمناً كان أو كافراً - لكن هناك حقيقة كبرى هي أن خالق الأسباب فوق الأسباب ، بل هو مسببها ، إن شاء أعطاك من دون سبب ، وإن شاء منعك وأنت آخذٌ بالسبب ، فالسبب في علم التوحيد لا يخلق النتيجة ، لذلك في حركة الإنسان في الحياة ، ينبغي ألا يغفل عن أن خالق الأسباب ، ومسببها هو كل شيء ، سيدنا إبراهيم عليه السلام جاء بزوجه هاجر ، وابنه إسماعيل إلى موقع الكعبة ، الذي لا زرع فيه ، ولا ماء ، ولا وسائل للحياة ، في هذا المكان الخالي من وسائل بقاء الحياة ، ترك إبراهيم زوجته ، وابنه الرضيع إسماعيل ، وانطلق راجعاً ، فأمسكت هاجر بزمام دابته ، وقالت له : يا إبراهيم لمن تتركنا ، فلم يجب إبراهيم ، قالت هاجر : أالله أمرك بهذا ؟ فأشار إليها أن نعم ، قالت : إذاً لن يضيعنا ، هذه قضية إيمانية كبرى ، وهي أن الله إذا أمرك بأمرٍ فبدى لك أنه يضر بمصالحك أو يحول

(١) رواه أبو يعلى والحاكم والبيهقي ، وهو صحيح بشواهد ، انظر السلسلة الصحيحة رقم ١١١٣ .

بينك وبين ما تتمناه فاعلم علم اليقين أن الأمر ضامن ، وأن العاقبة للمؤمن ، وأن الدنيا تأتي وهي راغمة ، فمن أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه ، وشتت عليه شمله ، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له ، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة ، جعل الله غناه في قلبه ، وجمع عليه شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة . وما من مخلوقٍ يعتصم بمخلوقٍ دوني ، أعرف ذلك من نيته ، إلا جعلت الأرض هويّاً تحت قدميه ، وقطعت أسباب السماء بين يديه ، وما من مخلوقٍ يعتصم بي من دون خلقي ، أعرف ذلك من نيته ، فتكیده أهل السماوات والأرض ، إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً .

من هذه الآيات البينات في مقام إبراهيم ، أنه أُمِرَ أن يذبح ابنه الوحيد إسماعيل ، وهو في سن الشباب ، (فلما بلغ معه السعي) وأبوه شيخٌ كبير وزوجته عاقر ، فلم يتباطأ في التنفيذ ، ولم يدعُ الله أن يرحم شيخوخته ، وأن يعفو عن ابنه ، وعلى الرغم من قسوة الابتلاء ، فقد شرَعَ في التنفيذ ، أن يقدم الإنسان على ذبح ابنه ، الوحيد ، الشاب ، والأب شيخٌ كبير ، والزوجة عاقر لا تنجب ، إنَّ من يفعل هذا ، يحب الله حباً يفوق الدنيا ، وما فيها ، حباً أعلى من كلِّ حب ، يقول عليه الصلاة والسلام :
« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين »^(١) .

(١) متفق عليه .

هذا ابتلاء حادّ ما كلف به المؤمن ، ولكن نستفيد من هذه القصة أنه لو استقبلنا كل حكم من الله بالرضا ، نأخذ ثواب الطاعة ، لأمر الله ويرفع الله عنا القضاء .

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٦﴾ وَتَدَيْنَهُ أَنْ يَتَابِعَهُمْ ﴿١٠٧﴾ قَدْ صَدَقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٨﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٩﴾ وَتَدَيْنَهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ ﴾

[الصافات: ١٠٣-١٠٧] .

حينما يقبل المؤمن على تنفيذ أمر الله ، وهو يرى رؤيةً قاصرة أن تنفيذ هذا الأمر يضر بمصالحه المادية ، والمعنوية ، لكنه يؤثر طاعة الله ، والقرب منه على دنياه ، ينال عندئذ ثواب الطاعة ، وسعادة القرب ، وبقانون خفي ، لا نعرفه ، تتحقق مصالحه الدنيوية ، في أعلى مستوى ، وهذا معنى القول المأثور : من أثر دنياه على آخرته خسرهما معاً ، ومن أثر آخرته على دنياه ربحهما معاً .

إذا كلفك مساوٍ لك ، ندُّ لك ، إذا أمرك بأمر تسأله دائماً لماذا أفعل هذا ؟ ولكن إذا أمرك الله جل جلاله ، خالق السماوات والأرض ، العليم الحكيم ، الرحمن الرحيم ، إذا أمرك الله أمراً ، ينبغي أن تأخذ أمره بالطاعة ، بمقدار ثقتك في علمه ، ورحمته ، وحكمته ، فالله جل جلاله لا يريد لنا إلا الخير ، ولا يقضي لنا إلا بالخير ، وكلما قصر الفكر البشري عن إدراك الخير ، كان

الخير أضخم وأكبر ، لأن الخير في هذه الحالات أكبر من أن يدركه الإنسان بعقله القاصر ، قال تعالى :

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

الله جل جلاله ، حينما يخاطب خلقه ، لا يخاطبهم بالتكليف ، افعلوا ولا تفعلوا ، إنما يدعوهم إلى الإيمان به ، فمن آمن به يكلفه ، لذلك تجد كل تكليف مسبوقاً في القرآن الكريم بيا أيها الذين آمنوا ، لأن الإنسان ، حينما يدخل مع الله في عقد إيماني ، فقد آمن إيماناً قطعياً أن الله الكمال المطلق ، فإذا تلقيت الأمر الإيماني ، ولم تفهمه ، ونفذته فإنك ستجد الراحة في قلبك ، والصفاء في نفسك ، وحينما تقبل على تنفيذ أمر الله ، لثقتك بعلمه ، وحكمته ، ورحمته ، يكشف لك الحكمة منه ، فتعود بثمرتين : ثواب العابد ، وفهم العالم .



بيت الله الحرام ، مركز لدائرة ، تمر بأطراف قارات العالمين ؛ القديم والجديد ، والأرض اليابسة موزعة حول بيت الله الحرام ، بصورة منتظمة ، هذه الحقيقة أكدتها أحدث الدراسات العلمية ، لمركز البحوث الفلكية في أحد الأقطار العربية الشقيقة ، وذلك باستخدام الحاسب الآلي في حساب المسافات بين مكة

المكرمة ، وعدد من المدن التي تقع في أطراف العالمين القديم والحديث ، وقد ثبت بعد الحسابات التي أجريت على الحاسب الآلي أن أقصى أطراف الأرض ، في إفريقيا وأوربا ، وآسيا ، وهذا العالم القديم تقع على مسافة ثمانية آلاف كيلو متر من مكة المكرمة ، وأما بالنسبة لأطراف العالم الجديد ، وهو القارة الأميركية شمالاً ، وجنوباً ، وأستراليا ، والقارة المتجمدة الجنوبية ، جميع أطراف هذه القارات الثلاث ، تقع على مسافة ثلاثة عشر ألف كيلو متر من مكة المكرمة ، ولا يقابل مكة المكرمة على سطح الأرض من الطرف الآخر يابسة ، بل بحرٌ إنه المحيط الهادي ، إذاً - بحسب هذه الدراسة التي أجريت على الحاسب الآلي - تبين أن بيت الله الحرام هو المركز الهندسي لليابسة .

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَى سَبِيلٍ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧] .

* * *

الصيام

شهر رمضان ، شهر التوبة والغفران ، شهر الطاعة والإحسان ، شهر الذكر والحب ، شهر التقوى والقرب ، قال عليه الصلاة والسلام :

« رغم أنف عبد (أي خاب وخسر) أدرك رمضان فلم يغفر له »^(١).

فينبغي للمرء في رمضان ، وفي غير رمضان ، أن يخرج من ظلمات الجهل والوهم ، إلى أنوار المعرفة والعلم ، ومن وحول الشهوات ، إلى جنات القربات ، ومن مدافعة التدني ، إلى مدافعة الترفي .

وهذه محاولة متواضعة ، لفهم آيات الصيام ، في القرآن الكريم ، وقبل الحديث عن حَكَم الصيام ، وعن أسرارهِ ، لابد من وقفة قصيرة عند حقيقة العبادة ، وجوهرها ، لأن الصيام عبادة كبرى ، من العبادات الشعائرية .

(١) حديث صحيح رواه الترمذي عن أبي هريرة رقم ٣٥٣٩ .

الإسلام دين الله ، الذي ارتضاه لعباده ، والمنهج القويم الذي اختاره الله لخلقه ، فينبغي للإنسان أن يسير عليه ، وتطبيق هذا المنهج عن إيمان وإخلاص ، هو جوهر العبادة ، التي هي علة وجودنا ، قال تعالى :

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

من العبادات ما هو تعاملي ؛ كالأمر بالصدق ، والأمانة ، والعفاف ، وإنجاز الوعد ، والوفاء بالعهد ، وتحري الحلال ، وضبط الجوارح والأعضاء ، هذه العبادات التعاملية ، تقوم أصولها على حسن العلاقة مع الخلق ، وأما العبادات الشعائرية ؛ كالصلاة ، والصوم ، والحج فتقوم أصولها على حسن العلاقة مع الله عز وجل ، إقبالاً ، واتصالاً ، واستنارة ، وطمأنينة .

لا تصح العبادات الشعائرية ، ومنها الصيام ، إن لم تصح العبادات التعاملية ، وقد قال رسول الله ﷺ :

« ومن لم يدع قول الزور ، والعمل به فليس لله حاجة ، في أن يدع طعامه وشرابه »^(١) .

(١) حديث صحيح رواه البخاري في الصوم ٩٩/٤ وأبو داود رقم ٢٣٦٢ والترمذي ٧٠٧ عن أبي هريرة .

ولقد لخصت الآية الكريمة شطري الدين ، فقال تعالى على
لسان سيدنا عيسى ، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام :

« وأوصاني بالصلاة (حسن العلاقة مع الحق) والزكاة (حسن
العلاقة مع الخلق) ما دمت حياً » .

ولكن حينما يقبل المسلم على تطبيق أمر تكليفي ، لعله فيه
تتفق مع مصلحته ، أو لما فيه من أسرار وحكم ، يكون إيمان هذا
المرء بالأمر لا بالآمر ، والمفروض أن يكون الإيمان بالآمر ،
والقصد عبادة الله ، وطلب مرضاته ، لا الوصول إلى السلامة ،
وبلوغ السعادة في الدنيا ، فالمؤمن بالله يقبل على امتثال أمره ،
لأنه أمر من خالقه ، ذي القدرة المقتدرة ، والحكمة البالغة ،
والكمال المطلق ، يقبل على الائتمار بالأمر ، لأنه أمر من خالقه
وكفى ، فُهمت العلة ، أم لم تُفهم ، والمهم أن يكون الدافع إلى
فعل الأمر ، وترك النهي ، هي عبادة الله ، وطاعته لا جني ثمار
الأمر ، واجتناب تبعات النهي ، وإن كان هذا يحصل ممن
يطيع الله عز وجل ، لكن الله جلت حكمته ، حينما يرى عبداً من
عباده المتقين ، يقبل على الطاعات ، لأنها أوامر خالقه ، حينما
يراه كذلك ، يكشف له بعد تطبيق الأمر ، علته المعجزة ،
وحكمته البالغة ، وأسراره العظيمة ، وبهذا يحقق العبد عبوديته
لربه ، وتفقهه لعله الأمر ، وحكمته وأسراره ، أما الذي يعلق
تطبيق الأمر على فهم حكمته ، ورؤية ثمرته ، فهو لا يعبد الله ،
ولكن يعبد ذاته ، فعلة كل أمر إلهي ، أنه أمر إلهي ، هذه اللفتة

من أجل أن يرتقي صيامنا ، من سلوك ذكي ، إلى عبادة خالصة ،
يقول الله تعالى :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

لقد جرت سنة الله في خطابه ، أن يخاطب الناس جميعاً
بأصول الدين :

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ ءَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ٢١] .

بينما جرت سنة الله أيضاً ، أن يخاطب المؤمنين ، الذين آمنوا
بوجوده ، وكماله ، ووحدانيته ، يخاطبهم بفروع الدين ؛ كالأمر
والنهي ، والحلال والحرام ، فكأن الله جل في علاه ، في هذه
الآية الكريمة ، يرقق الأمر بالصيام ، كأنه يقول : يا من آمتم
بي ، يا من آمتم بعلمي ، وحكمتي ، يا من آمتم برحمتي ،
ومحبتني ، يا من أحببتموني ، لقد كتبت عليكم الصيام ، وحينما
يأتي الحكم ممن آمتت به ، وممن وثقت برحمته ، وحكمته ،
تثق أن هذا الأمر تأتي منه فائدة لك ، لكن لا ينبغي أن تقيس هذا
الأمر بمقياس عقلك المحدود ، بل ينبغي أن تقيسه بعلم
خالقك ، وحكمته ، ورحمته ، فالله يعلم ، وأنتم لا تعلمون .

فقد يقول الأب الرحيم : يا بني أأست والدك ؟ ألا تثق

بخبرتي المديدة ، ورحمتي الأكيدة ، وحرصتي على سلامتك ، وسعادتك ، دع هذا الأمر ، ولا تقسه بعقلك الفتي ، ولا بخبرتك المحدودة ، ولا بنظرك القاصر ، بل قسّه بعقل أبيك ، وخبرته ، ومحبه ، لعل في هذا الشرح توضيحاً لارتباط قوله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] بالموضوع الذي نحن بصدد الحديث عنه .

الصيام إمساك عن الطعام والشراب ، وسائر المفطرات ، من الفجر وحتى الغروب ، بنية العبادة والطاعة ، ولأن هذا النهي عن شهوة الطعام والشراب ، وشهوة أخرى ، شهوات مباحة وفق منهج الله عز وجل ، ومحبة للإنسان ، ورد في الحديث القدسي :

« إن كل عمل ابن آدم له ، إلا الصوم ، فإنه لي ، وأنا أجزي به ، وفي رواية ، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي ، الصيام لي وأنا أجزي به »^(١) .

أما قوله تعالى : ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ فتشير هذه الآية إلى أن مبدأ الصوم لا يختلف من زمن إلى آخر ، فهو ركن تعبدي موجود في الديانات السماوية السابقة للإسلام ، إنه منهج الله في تربية الإنسان .

أما قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أي لعلكم تدعون المعاصي ،

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري .

وتلزمون الطاعات ، لا في شهر رمضان فحسب ، بل في كل شهر العام .

ليس القصد أن نتصر على أنفسنا في رمضان ، ثم ننخذل أمامها بقية العام ، ولكن الصيام الحقيقي أن نحافظ على هذا النصر على طول الدوران ، وتقلبات الزمان والمكان .

ليس القصد أن نضبط ألسنتنا في رمضان ، فننزها عن الغيبة والنميمة ، وقول الزور ، ثم نطلقها بعد رمضان ، إلى حيث الكذب والبهتان ، ولكن الصيام الحقيقي أن تستقيم منا الألسنة ، وأن تصلح فينا القلوب ، ما دامت الأرواح في الأبدان .

ليس القصد أن نغض أبصارنا عن محارم الله ، وأن نضبط شهواتنا غير المشروعة في رمضان ، ثم نعود إلى ما كنا عليه بعد رمضان ، إنا إذاً كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، ولكن الصيام الحقيقي أن تصوم جوارحنا عن كل معصية في رمضان ، وبعد رمضان حتى نلقى الواحد الديان .

ليس القصد أن نتحرى الحلال خوفاً من أن يرد علينا صيامنا ، ثم نتهاون في تحريه بعد رمضان ، على أنه عادة من عاداتنا ، ونمط شائع من سلوكنا ، ولكن الصيام الحقيقي أن يكون الورع مبدأً ثابتاً ، وسلوكاً مستمراً في حياتنا .

وليس القصد أن نبتعد عن المجالس ، وعن المشاهد ، التي لا ترضي الله ، إكراماً لشهر رمضان ، ثم نعود إليها ، وكأن الله ليس لنا بالمرصاد ، في بقية الشهور والأعوام .

ليس القصد أن نراقب الله في أداء واجباتنا ، وأعمالنا ، ما دمنّا صائمين ، فإذا ودعنا شهر الصيام ، آثرنا حظوظ أنفسنا ، على أمانة أعمالنا وواجباتنا ، مثل هذا الإنسان ، لم يفقه حقيقة الصيام ، ولا جوهر الإسلام ، إنه كالناقة حبسها أهلها ، ثم أطلقوها ، فلا تدري لا لم عقلت ، ولا لم أطلقت ؟ .

الشيء المهم الذي ينبغي أن نستوعبه ، هو أن الله تعالى لم يصطف زماناً كرمضان من بقية الشهور ، ليكون شهر الطاعة ، والقرب فحسب ، بل أراد شهرأ ، يتدرب فيه الإنسان على الطاعة ، حتى يذوق حلاوة القرب ، وعندها تنسحب هذه الطاعة ، وذاك القرب ، على كل شهور العام ، فيكون رمضان عندئذ قفزة نوعية ، مستمرة في مجال الطاعة والقرب ، والحكمة من أن الله تعالى أمرنا بالإمساك عن الطعام ، والشراب ، وسائر المفطرات من طلوع الفجر إلى غياب الشمس ، هي أن الإنسان حينما يدع ما هو مباح ، امتثالاً لأمر الله ، لا يستطيع ، ولا يتوازن مع نفسه ، أن يقترب ما هو محرم في هذا الشهر ، فترك المحرمات أولى من ترك المباحات ، فحينما يصطفي الله شهرأ من الشهور ، لتصفو فيه العلاقة بالله ، يصطفيه من أجل أن يشيع هذا الصفاء مع الله في كل الشهور ، لأن الله مع المؤمن في كل زمان .

وحينما يصطفي الله مكانأ ، كبيتة الحرام ، ويدعو المؤمنين إليه ليزوقوا حلاوة القرب فيه ، يريد أن ينسحب هذا القرب على

كل الأمكنة ، لأن الله مع المؤمن في كل مكان .

وحينما يصطفي الله إنساناً فيكشف له الحقائق ، إنما يصطفيه ، ليكشف من خلاله الحقائق لكل الناس ، وحينما يصطفي الله إنساناً ليوحى إليه الأمر والنهي والمنهج القويم ، إنما يصطفيه ليكون هذا المنهج مطبقاً لدى كل الناس .

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

[هود: ١١٢] .

إن الله أمر المؤمنين بما أمر المرسلين .

وحينما يصطفي الله إنساناً ، ليسعده سعادة أبدية ، إنما يصطفيه ، ليسعد بدعوته كل الناس .

ومجمل القول ، حينما يصطفي الله زماناً كرمضان ، ومكاناً كبيتة الحرام ، وإنساناً كسيد الأنام ، محمد عليه الصلاة والسلام ، إنما شاء الله جل جلاله أن يشيع اصطفاء الإنسان في كل الناس ، واصطفاء المكان في كل الأمكنة ، واصطفاء الزمان في كل الأزمنة .

ثم يقول الله تعالى : ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ .

إنها أيام قليلة ، تعد على الأصابع ، ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ ، إنها أيام قليلة ، اصطفاها الله ، لتكون أيام طاعة وقرب ، فعمل الطاعة والقرب تستغرق كل أيام العام ، ثم يقول الله تعالى :

﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾

[البقرة: ١٨٥] .

الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، فوسع النفس ، لا يستطيع أي إنسان أن يقدره بعقله ، لكن الله - وحده - الذي خلق ، والذي صنع بعلمه ، وخبرته ، وحكمته ، ورحمته ، هو - وحده - الذي يقدر الوسع ، فهو جل جلاله يعطي الرخصة ، عندما يكون التكليف فوق الوسع ، وتحديد المرض الذي يبيح الفطر ، يكون بغلبة الظن ، أو بإخبار طبيب ، مسلم ، ورع ، حاذق ، وكذلك السفر الذي تقصر فيه الصلاة يعد علة للإفطار في رمضان ، لذلك لا يقبل في الدين ، أن يقول إنسان ، من خلال تحكيم عقله ، في موضوع تكليفي ، هذا الأمر لا أقدر عليه ، والله لن يؤاخذني على تركه ، إلا أن ترد في هذا الأمر رخصة ، من الذي خلق الإنسان ، ويعلم حقيقة وسعه ، في أحد الوحيين ؛ الكتاب أو السنة ، وحينما يطيق المسلم الصيام مع السفر ، أو المرض ، فالأولى أن يصوم ، لقول الله عز وجل في سورة البقرة :

﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤] .

هذا وجه من وجوه تفسير الآية ؛ لأن القرآن حمّال أوجه .

﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤] .

ثم يقول الله عز وجل :

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥] .

الشرعية رحمة كلها ، مصلحة كلها ، عدل كلها ، حكمة كلها ، فكل قضية خرجت من الرحمة إلى القسوة ، ومن المصلحة إلى المفسدة ، ومن العدل إلى الجور ، ومن الحكمة إلى خلافها ، فليست من الشريعة ، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل .

ويقول الله عز وجل : ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ أيام رمضان ، ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ ، الاهتداء إلى الله ، والتزام منهجه ، والوصول إليه ، والتنعم بقربه ، ثمرة يانعة من ثمار الصيام ، عندئذ تقتضي فطرة الإنسان ، التي فطر عليها ، تقتضي شكر المنعم على نعمه ، وهل من نعمة أجل ، وأبقى من نعمة الهدى ، فماذا وجد - يارب - من فقدك ، وماذا فقد من وجدك ؟!

وما دام الصائم قد ذاق حلاوة القرب ، في شهر الصيام ، فهو سيتجه بحكم فطرته ، بالشكر لله عز وجل ، على ما أولاه من نعم المعرفة ، والقرب ، وهنا من المناسب جداً أن يقول الحق جل جلاله عقب آيات الصيام :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلِّهِمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ ﴾ إذا سألك ، ولم يقل إن سألك ، لأن (إذا) في اللغة تفيد تحقق الوقوع ، بينما (إن) تفيد احتمال الوقوع ، ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، ﴿ إِنْ جَاءَكَ فَاسِقُ بَنِي ﴾ ؛ نصر الله محقق ، بينما مجيء الفاسق غير محقق ، قد يأتي وقد لا يأتي ، فرق كبير بين (إذا) و (إن) ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ﴾ ، يعني فطرة الإنسان تقتضي ، بعد أن هداه الله إليه ، أن يتوجه إليه بالشكر والدعاء :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

أي إن من لوازم معرفة الله ، والوصول إليه ، والتنعم بقربه ، التوجه إليه وحده بالسؤال والدعاء ، وهذه هي حقيقة التوحيد ، وهي جوهر الدين ، وكل دين سماوي أصيل .

وقد ورد في الأثر :

« ثلاثة لا ترد دعوتهم ؛ الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم ، يرفعها الله فوق الغمام ، وتفتح لها أبواب السماء ، يقول الرب : وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين »^(١) .

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٨٢٥ وابن ماجه ١٧٥٢ والإمام أحمد في مسنده ٣٠٥/٢ و٤٤٥ عن أبي هريرة .

لو تأملنا في آيات القرآن ، وفي مادة السؤال ، لوجدتم أن كل سؤال ورد في القرآن ، ورد في جوابه كلمة (قل) يسألونك ماذا ينفقون قل العفو ، يسألونك عن الجبال قل ينسفها ربي نسفاً ، إلا في هذه الآية : وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ، لم ترد كلمة قل بين السؤال والجواب ، لذلك قال العلماء : إن عدم ورود كلمة (قل) في هذه الآية إشعار من الله لعباده المؤمنين ، بأنه ليس بين العبد وربّه ، في سؤاله له ، ودعائه إياه ، وسيط :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

لقد سئل رسول الله ، ﷺ ، قالوا : يا رسول الله ، أقرب ربك فتناجيه ؟ أم بعيد فنناديه ؟ لأن البعيد ينادى ، والقريب يناجى ، فترزله تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

وأما كلمة (عباد) فغير كلمة (عبيد) ، فكل من في الأرض من البشر هم عبيد لله ، لأنهم مفتقرون في وجودهم ، وفي استمرار وجودهم ، وخصائصهم ، وحاجاتهم ، ومقهورون في هذا الوجود إلى الله ؛ لكن (العباد) هم الذين تعرفوا إليه ، والتزموا منهجه ، وتقربوا منه ، مبادرةً منهم ، وبمحض اختيارهم ، فالعبد الذي جمعه عبيد هو عبد القهر ، لكن العبد الذي جمعه عباد هو عبد الشكر ، قال تعالى :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : ٤٦] .

العبيد جمع عبد القهر ، لكن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَإِذَا

سَأَلْتُكَ عِبَادِي عَنِّي ، هؤلاء الذين عرفوني ، والتزموا منهجِي ،
وشكروا نعمائي .

لماذا قال الله تعالى : ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ ، قال : إني قريب ،
ليشعر المؤمن أن الله معه ، في كل مكان ، وفي كل زمان ، وفي
كل حال ، وأنه ما عليه إلا أن يدعو ، مؤمناً ، ومخلصاً ، والله
يجيب دعوته ، لكن الإنسان لضعف إيمانه ، أو لضعف توحيده ،
يدعو غير الله ، لذلك . . . يقول الله عز وجل :

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾

[فاطر: ١٤]

سؤال آخر ، لماذا لا يستجيب الله - أحياناً - لمن يدعو ، هذا
السؤال ، أجاب عنه النبي ﷺ فيما رواه الإمام مسلم في
صحيحه قال :

« إن الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يقول
يا رب يا رب ، ومطعمه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى
يستجاب له »^(١) .

لذلك قال الله تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾

(١) رواه مسلم رقم ١٠١٥ والترمذي ٢٥١٧ وابن ماجه ٦٦ والدارمي وأحمد
١٧٧-١٧٦/٣ .

فَلَيْسَتْ جِبُوا إِلَى وَلِيُؤْمِنُوا بِإِلَهُهُمْ يَرُشِدُونَ ﴿ [البقرة : ١٨٦] .

تؤمن به ، وتستجيب لأمره ، فيجيب دعاءك ، ولعلمهم يرشدون إلى الدعاء المستجاب ، أو إلى سعادة الدنيا والآخرة .
حينما لا يُستجاب الدعاء ، يعزى ذلك ؛ إما إلى فساد الداعي ، وانحرافه عن منهج الله ، أو أنه ليس من الرحمة ، والحكمة أن يستجاب له ، فلو كشف الغطاء ، لاخترتم الواقع ، وعلى كل فحظ المؤمن من الدعاء ، الإجابة ، أو التعبد ، قال عليه الصلاة والسلام : « الدعاء هو العبادة »^(١) .

لقول الله عز وجل :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] .

* * *

قال العلماء : إن الصيام يخفف العبء ، عن جهاز دوران القلب ، والأوعية ، حيث تهبط نسب الدسم والحموض في الدم إلى أدنى مستوى ، الأمر الذي يقى من تصلب الشرايين ، وعمر الإنسان - بحسب قول الأطباء - من عمر شرايينه ، والصيام يريح الكليتين وجهاز الإفراز أيضاً ، حيث تقل نواتج استقلاب الأغذية

(١) رواه أبو داود ١٤٧٩ والترمذي ٣٢٤٤ وأحمد في المسند ٦٧٢/٤ وابن ماجه ٣٨٢٧ وهو حديث صحيح من حديث النعمان بن بشير .

إلى أدنى مستوى ، عندها يكون هذا وقاية من آلام المفاصل ،
ويتحرك سكر الكبد ، ويحرك معه الدهن المخزون تحت الجلد ،
ويحرك معه بروتين العضلات ، إذا صيام رمضان يعد عند الأطباء
دورة وقائية سنوية ، تقي من كثير من الأمراض ، ويعد دورة
علاجية أيضاً بالنسبة لبعض الأمراض ، وإنه يقي من أمراض
الشيخوخة التي تنجم عن الإفراط في إرهاق العضوية .

نستنتج من هذا أن الصيام - فضلاً عن أنه عبادة شعائرية - هو
في الوقت نفسه وقاية ، وعلاج ، وصحة للجسم .

وشيء آخر :

« كان رسول الله ﷺ يفطر على تمرات ، قبل أن يصلي ، فإن
لم تكن تمرات ، حسا حَسَوَاتٍ مِنَ الْمَاءِ »^(١) .

وعن سلمان بن عامر ، عن النبي ﷺ ، أنه قال : إذا أفطر
أحدكم فليفطر على تمر ، فإنه بركة ، فإن لم يجد تمرأ فالماء
طهور^(٢) .

هذان الحديثان . . . من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام
فالعلماء قالوا : التمر الذي يتناوله الصائم مع الماء ، فيه خمس
وسبعون بالمئة ، من جزئه المأكول ، مواد سكرية ، أحادية ،
سهلة الهضم ، سريعة التمثل ، إلى درجة أن السكر الذي فيها ،
ينتقل من الفم إلى الدم في أقل من عشر دقائق ، وفي الحال يتنبه

(١) رواه أبو داود وهو صحيح ٢٣٥٥/٢٣٥٦ والترمذي ٦٩٤ عن أنس بن مالك .

(٢) حديث صحيح أخرجه الترمذي وأبو داود في صحيح الجامع الصغير .

مركز الإحساس بالشبع ، في الجملة العصبية ، فيشعر الصائم بالاكتهاء ، فإذا أقبل على الطعام ، بعد صلاة المغرب ، أقبل عليه باعتدال ، وكأنه في أيام الإفطار ، بينما المواد الدسمة الدهنية ، والبروتينية ، يستغرق هضمها وامتصاصها أكثر من ثلاث ساعات ، فمهما أكثر الإنسان من الطعام الدسم ، لا يشعر بالشبع ، ولكن يشعر بالامتلاء ، وفرق كبير بين أن تشعر بالشبع بلقيمات في معدتك ، وبين أن تشعر بالامتلاء فقط ، بعد أن تكتظ المعدة بالطعام ، لذلك كان عليه الصلاة والسلام يفطر على تمرات ، ويصلي المغرب ، ثم يجلس إلى الطعام ، ومن لم يطبق سنة النبي ﷺ في إفطاره ، فاته خير كثير من صيامه .

تتركب التمور من السكريات الأحادية ، وهذا النوع من السكر هو أسرع السكاكر امتصاصاً في جسم الإنسان ، حيث ينتقل سكر التمر من الفم إلى الدم في أقل من عشر دقائق ، وتتركب التمور أيضاً من الألياف السليولوزية ، التي لها آثار مذهشة في عملية الهضم ، وفي وقاية الأمعاء من الأمراض الوبيلة ، وتتركب التمور أيضاً من المواد البروتينية ، المرممة للأنسجة ، ومن نسب ضئيلة من الدهون ، وتحتوي التمور على خمسة أنواع من الفيتامينات الأساسية التي يحتاجها الإنسان ، وتحتوي التمور على ثمانية معادن ، ومئة غرام من التمور فيها من نصف إلى خمس حاجة الجسم من المعادن ، ويحتوي التمر على اثني عشر حمضاً أمينياً ، وفيه مواد قابضة وملونة ، وهناك خمسون مرضاً يسببها الإمساك ، والتمر يقي من الإمساك ، وله آثار إيجابية في الوقاية من فقر الدم ، ومن ارتفاع الضغط ، ويعين على التئام الكسور ،

وهو ملين ، ومهدىء ، وقد أثبتت البحوث أن التمر لا يتلوث بالجراثيم .

حتى في أيام الإفطار ، ينبغي أن تقدم الفاكهة - إن وجدت - لما فيها من سكاكر أحادية ، على وجبات الطعام الدسمة ، التي تحوي غالباً مواد يطول هضمها ، استنباطاً ظنياً من قوله تعالى ، وهو يصف أهل الجنة :

﴿ وَفَكَهَّةٍ مِّمَّا يَخِيزُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَعَرٍ طَيرٍ مِّمَّا يَشْتَبُونَ ﴾ [الواقعة : ٢٠-٢١] .

* * *



الباب الثالث المحاملات

الجانب الاجتماعي في الإنسان

في شخصية الإنسان ؛ جانب مادي ، وجانب فكري ، وجانب نفسي ، وجانب اجتماعي ، وجانب وجانب... ومحور الموضوع : الجانب الاجتماعي في الإنسان وعلاقته بالإسلام ، الدين الذي ارتضاه الله لعباده ، وختم به رسالات السماء ، وأخبر بأنه سيظهره على الدين كله .

من حاجات الفرد الأساسية ؛ حاجة الإنسان إلى المحبة ، أي إلى أن يُحِبَّ ، وإلى أن يُحَبَّ ، وحاجته إلى التقدير ، أن يقدره الآخرون ، وحاجته إلى الأُنس ، وحاجته إلى الأمن ، وحاجته إلى معونة الآخرين وحاجته إلى نصرتهم ، والتقوي بهم ، وحاجته إلى الأخذ من معارفهم ، وخبراتهم ، ومنجزاتهم ، بل إن هناك حاجات عضوية ، لا تتحقق مع الإنسان إلا بغيره . كل هذه الحاجات تولد في نفس الفرد الميل إلى الجماعة ،

الميل إلى الانخراط فيها ، والاندماج معها ، تلبية لحاجاته العضوية ، والنفسية والفكرية .

وإلى جانب هذا الدافع الاجتماعي في الإنسان نجد الفردية ، والأثرة التي تغذيها الغرائز والمصالح .

وحيثما تصطدم النزعة الاجتماعية في الفرد مع مصالحه المادية ، نجد الإنسان المتفلسف من منهج الله يؤثر مصالحه المادية ، ويلقي بالقيم الاجتماعية عرض الطريق ، وهذا ما نجده في الأفراد والمجتمعات المادية .

هذا هو الإنسان قبل أن يعرف الواحد الديان ، وقبل أن يستنير عقله ، وقبل أن تزكو نفسه ، وقبل أن يصلح عمله ، لكن الإسلام حينما غدّى في الفرد الدافع الاجتماعي ، وحثّ على لزوم الجماعة ، ووهن فردية الإنسان ، وانعزاليته ، أراد أن يصعد هذا الدافع الاجتماعي ، وأن يسمو به في كل مراحلها ، ومستوياتها ، فجعل الإسلام الدافع الاجتماعي في المسلم ينبعث من عبادة الله ، وطلب مرضاته عن طريق خدمة عباده ، لا من طريق تلبية حاجاته المادية والمعنوية ، وجعل الإسلام النشاط الاجتماعي للمسلم يسري في قنوات نظيفة ، حددها الشرع الحكيم ، ضماناً لسلامة الفرد ، وضماناً لسلامة المجتمع من الفساد والانحلال ، وجعل كثيراً من الفضائل الخلقية ، والأعمال الجليلة ، لا تتحقق إلا عن طريق العمل الجماعي ، وجعل الفردية ، والانعزالية ، سبباً لكثير من الرذائل الخلقية ، والأعمال

الخشيسة ، أما حينما يفسد المجتمع ، وتنهار فيه القيم ، وتداس فيه المبادئ ، بأقدام المصالح ، عندئذ يأمر الإسلام بجفوة هذا المجتمع واعتزاله .

هذه بعض الأسس الاجتماعية ، من خلال مبادئ الإسلام وتشريعاته ، والآن إلى النصوص القرآنية ، والنبوية التي تؤكد تلك المنطلقات .

روى الترمذي بسنده عن عمر بن الخطاب ، أن النبي ﷺ قال :

« عليكم بالجماعة ، وإياكم والفرقة ، فإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد ، ومن أراد بحبوة الجنة فليلزم الجماعة »^(١) .

وقد وصف النبي ﷺ المؤمن بأنه مألّف (أي أنه يألف ويؤلف) فقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال :

« المؤمن مألّف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف »^(٢) .

وتعميقاً لوحدة جماعة المؤمنين شبه النبي ، ﷺ ، المؤمنين بالبنيان يشد بعضه بعضاً ، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري ، أن النبي ﷺ قال :

(١) قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح غريب ، وقال الحاكم : صحيح على شرط

الشيخين ووافقه الذهبي ، انظر كتاب السنة لابن أبي عاصم حديث رقم ٨٨ .

(٢) وهو صحيح وقد جاء بعدة روايات مع اختلاف في بعض الألفاظ انظر السلسلة الصحيحة رقم ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

« المؤمن للمؤمن كالبنيان ، يشد بعضه بعضاً ، وشبك بين أصابعه الشريفة » .

وزاد النبي ﷺ ، في تعميق معنى وحدة المؤمنين ، حينما بين أن كتلتهم الواحدة المتماسكة ، وبناءهم المتشابه بناء ، تسري فيه روح واحدة ، وحس مشترك ، فهم كالجسد الواحد ، تتعاون جميع أعضائه تعاوناً تاماً ، روى مسلم عن النعمان بن البشير رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال :

« المؤمنون كرجل واحد ، إذا اشتكى عينه اشتكى كله ، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله » .

وقال أيضاً :

« مثل المؤمنين في توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »^(١) .

أما القرآن الكريم فقد أشار إلى ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن ، من انتماء عميق إلى مجموع المؤمنين ، ومن سمو المشاعر الجماعية عنده ، ومن إيجابية مواقفه الغيرية ، قال تعالى :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ [البقرة : ١٨٨] .

(١) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ ﴾ ، ولم يقل : لا تأكلوا أموال إخوانكم ، وكأن الآية تقول : أيها المؤمن مال أخيك هو في الحقيقة مالك ، من زاوية أن قوة أخيك المالية قوة لك ، وفي أكل ماله إضعاف للمجموع ، وإضعاف لك ، ومال أخيك هو في الحقيقة مالك ، من زاوية ثانية ؛ من زاوية وجوب المحافظة عليه ، فلأن تمتنع عن أكله بالباطل من باب أولى ، ومال الفرد المسلم هو مال للجماعة ، فينبغي أن ينفق وفق المنهج الإلهي ، الذي يوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ، فلو أنفق المال إسرافاً وتبذيراً ، أضر بالجماعة ؛ لذلك يأمر الإسلام أن يحجر على تصرفات السفيه ، وأن تكف يده عن ماله ، قال تعالى :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيْنًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ [النساء : ٥] .

ومثل هذا قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [الحجرات : ١١] .

ومعلوم في البديهة أن الإنسان لا يلمز نفسه ، وإنما يلمز غيره ، أي يحقره ، ولكن لما كان المعنى الجماعي سارياً في كل الأفراد ، كان من يلمز أخاه ، كأنما يلمز نفسه ، لأن له نصيباً من مضرة ما فعل ، بوصفه جزءاً من الجماعة التي آذى بعض أفرادها ، فسرى الإيذاء إلى الجماعة كلها .

وترسيخاً لروح الجماعة أمر النبي ﷺ أن يجتمع المسلمون

على الطعام ليبارك لهم فيه ، قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ :
إنا نأكل ولا نشبع ، فقال عليه الصلاة والسلام : « تأكلون
متفرقين ، اجتمعوا على طعامكم ، واذكروا اسم الله عليه ، يبارك
لكم فيه »^(١)

وحينما يعتذر بعض الانعزاليين ، بأنهم يريدون أن يسلموا من
أذى الناس بسبب مخالطتهم ، لذلك هم يؤثرون الابتعاد عن
المجتمع ؛ يأتيهم البيان النبوي ، مؤكداً لهم خلاف ما يزعمون ،
فيقول النبي ﷺ :

« المسلم الذي يخالط الناس ، ويصبر على أذاهم ، أفضل من
الذي لا يخالطهم ، ولا يصبر على أذاهم »^(٢)

حتى إن بعض العبادات في الإسلام ، لا تؤدي إلا بشكل
جماعي ، كعبادة الحج ، وكصلاة الجمعة ، وكصلاة العيدين ،
وكصلاة الجنازة ، بل إن الإسلام حرص على أن تؤدي الصلوات
الخمس جماعةً في المساجد ، فقد ورد عن النبي ﷺ :
« أنه من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله » .

وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ
قال :

(١) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم وابن حبان ، وهو حسن لغيره
لشواهد في معناه (السلسلة الصحيحة ٦٦٤) .
(٢) رواه الترمذي وابن ماجه بسند صحيح .

« صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ (أي الفرد) بسبع وعشرين درجة » .

ولعل من أبلغ ما قيل في تعميق روح الجماعة بين المؤمنين ، قول النبي ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أنه قال :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وقد بين النبي ﷺ أن الدافع الاجتماعي الذي غذاه الإسلام ، وسما به ، ينبغي أن تضبطه ضوابط ، وأن تنتظمه أوامر ، وأن تحصنه نواه ، وأن تحكمه قيم ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال :

« لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يكذبه ، ولا يحقره ، التقوى ها هنا ، وأشار إلى صدره الشريف ، ثلاث مرات ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ؛ دمه وماله وعرضه »^(١) .

وقال الإمام النووي في شرح هذا الحديث : ما أعظم نفعه ، وما أكثر فوائده ، وقال عنه ابن حجر الهيتمي : هذا الحديث حوى أكثر أحكام الإسلام ، منطوقة ، ومفهومة ، وحوى أكثر

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه .

الآداب ، إيماءً وتحقيقاً ، فالنبي عليه الصلاة والسلام ينهى عن الحسد الذي يرجع إلى ضعف الإيمان بحكمة الله وعدالته ، وتمني زوال النعمة عن الآخرين ، وهذا التمني مناقض للأخوة الإيمانية ، فلا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ونهى النبي ﷺ عن النجش ، وهو شراء صوري ، بسعر مرتفع ، بقصد الإضرار بالمشتري الحقيقي ، وتحقيق ربح غير مشروع ، وهو بالمعنى الموسع ، مطلق الخديعة والمكر ، قال تعالى :

﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر: ٤٣] .

وفي الحديث الشريف :

« المكر والخديعة في النار »^(١) .

وقد لعن النبي ﷺ كل من ضارّ مسلماً ، أو مكر به .

ونهى النبي ﷺ عن التباغض بسبب الأهواء والمصالح ، وحقيقة النهي عن التباغض هو نهى عن أسباب التباغض ، فكل موقف أو تصرف أو كلام من شأنه أن يجرح أخاك فيبغضك محرم في دين الله ، والتباغض يتناقض مع الألفة والمحبة ، التي هي من خصائص المؤمنين ، قال تعالى في سورة آل عمران :

﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنْ

(١) أخرجه البخاري تعليقاً وهو صحيح (السلسلة الصحيحة ١٠٥٧٠) .

النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

[آل عمران : ١٠٣] .

ونهى النبي ﷺ عن التدابر ، والهجران ، ففي صحيح البخاري :

« لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، ومن هجر أخاه ستة أيام فهو كسفك دمه »

وبعد أن نهى النبي ﷺ عن أسباب العداوة والبغضاء ، أمر بكل ما من شأنه أن يمكن المحبة والألفة والتآخي بين المؤمنين ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« وكونوا عباد الله إخواناً » .

فأنتم عباد الله ، ومن شأن العبد أن يطيع الله ربه فيما أمر ، وفيما نهى ، والله يريدكم أن تكونوا إخواناً .

في حديث آخر ، يبين النبي ﷺ ، حقوق المسلم على المسلم ، ولا شك في أن أداء هذه الحقوق يورث المحبة ، والألفة والأخوة ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال :

« حق المسلم على المسلم خمس ، رد السلام ، وعبادة المريض ، وإجابة الدعوة ، واتباع الجنازة ، وتشميت العاطس ، وفي رواية لمسلم ، وإذا استنصحك فانصحه ، من حقه عليك » .

ثم إن النبي ﷺ ، نهى عن كل ما من شأنه أن يسبب تنافر القلوب واختلافها .

فقد حرم النبي ، عليه الصلاة والسلام ، أشد التحريم ، ظلم المسلم ، فلا يُدخل عليه ضرراً في نفسه ، أو دينه ، أو عرضه ، أو ماله .

وحرم النبي ﷺ ، أشد التحريم ، خذلان المسلم ، في دنياه ، كأن يقدر الرجل على نصرة أخ مظلوم ، وكف يد ظالمه ، ثم لا يفعل ، وكأن يقدر المسلم على نصرة أخيه في آخرته ، كأن يقدر على نصحه ، وكفه عن غيه ثم لا يفعل ، فقد ورد عنه ﷺ ، أنه من أذل عنده مؤمن ، فلم ينصره ، وهو يقدر على أن ينصره ، أذله الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة .

وحرم النبي ﷺ ، أشد التحريم ، أن يكذب المسلم ، أو يكذب عليه ، فقد ورد عنه ، عليه الصلاة والسلام ، أنه كبرت خيانة ! أن تحدث أخاك حديثاً ، هو لك مصدق ، وأنت به كاذب .

وحرم النبي ﷺ أشد التحريم ، تحقير المسلم ، لأن الله لما خلقه كرمه ، ورفع ، وكلّفه ، واحتقار المسلم تطاول على مقام الربوبية ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام ، فيما رواه الإمام مسلم :

« بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » .

والاحتقار ناشئ عن الكبر ، لما رواه مسلم عن رسول الله ﷺ :

« الكبر بضر الحق (رده) ، وغمص الناس (احتقارهم) »

وفي صحيح مسلم :

« لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » .

وتعليل ذلك أن الكبر يتناقض مع العبودية لله ، فكما أن قطرة من النفط واحدة ، تفسد قربة من العسل ، كذلك ذرة من الكبر ، تفسد العبادة كلها .

ويبين النبي ، ﷺ ، أن للمسلم حرمة في دمه ، وحرمة في ماله ، وحرمة في عرضه ، وهذه الحرمات الثلاث ، يقوم عليها المجتمع المسلم الآمن ، وحفاظاً على الدم من أن يسيل ، وعلى المال من أن يُسرق ، وعلى العرض من أن يُنتهك ، شرع القصاص في الإسلام ، وأعلنت الحدود ، قال تعالى :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتُوايَ الْأَلْبَبُ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

[البقرة : ١٧٩] .

بل إن ترويع المسلم ، محرم في الإسلام ، قال عليه الصلاة والسلام :

« لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً »^(١) .

* * *

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والطبراني ، وهو صحيح (انظر المشكاة ٣٥٤٥) .

بعد أن تحدثت عن المنطلقات النظرية ، للجانب الاجتماعي في شخصية المسلم ، وبعد أن تحدثت عن النصوص القرآنية ، والنبوية التي تُعد أصلاً في الروح الجماعية ، التي ينبغي أن يكون عليها المؤمنون ، ننتقل الآن إلى الوقائع ، فهذه قصة جرت وقائعها في عهد النبي ﷺ ، ويمكن أن نستشف منها روح التعاون والإخلاص ، وروح التناصح بين المؤمنين .

« غلام صغير ، اسمه عمير بن سعد الأنصاري ، تجرع كأس اليتيم والفاقة ، منذ نعومة أظفاره ، وتزوجت أمه من ثري من أثرياء الأوس ، يدعى الجلاس بن سويد ، أحب عمير عمه الجلاس حب الابن لأبيه ، وأولع الجلاس بعمير ولع الوالد بولده ، وكان عمير لا يتخلف عن صلاة خلف رسول الله ﷺ ، وفي السنة التاسعة للهجرة ، أعلن النبي ﷺ عزمه على غزو الروم ، في تبوك ، وأمر المسلمين أن يستعدوا ، ورأى عمير كيف أن المسلمين يبذلون كل ما في وسعهم ، لتجهيز هذا الجيش الغازي ، فهذا عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، يأتي بألف دينار ذهباً ، ويضعها بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام ، وهذا عبد الرحمن بن عوف ، رضي الله عنه ، يحمل مئتي أوقية من الذهب ، ويضعها بين يدي النبي ، عليه الصلاة والسلام ، وهؤلاء نساء المهاجرين ، والأنصار ، ينزعن حليهنّ ، ليقدمنه لرسول الله ، ﷺ ، وهذا رجل يعرض فراشه للبيع ليشتري بثمانه سيفاً ، يقاتل به ، وهؤلاء نفر الذين سألوا النبي ، ﷺ ، أن

يضمهم إلى الجيش ، فردهم لأنه لم يجد ما يحملهم عليه ، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً .

وعجب عمير الفتى الأنصاري من تباطؤ عمه الجلاس ، عن البذل لهذا الجيش ، وعرض عليه هذه الصور المشرقة ، من بذل الصحابة الأغنياء ، والفقراء ، على حد سواء ، فما كان من الجلاس إلا أن قال : يا عمير ، إن كان محمد صادقاً فيما يدعيه من النبوة ، فنحن شر من الحُمُر ، شُدِه عمير مما سمع ، ورأى أن في السكوت على الجلاس ، والتستر عليه ، خيانة لله ورسوله ، وإن في إذاعة ما سمعه ، عقوقاً بالرجل ، فقال للجلاس عمه : والله يا عم ، ما كان على ظهر الأرض ، أحد بعد محمد بن عبد الله ، أحب إليّ منك ، ولقد قلت مقالة ، إن ذكرتها فضحتك ، وإن أخفيتها خنت أمانتي ، وأهلكت نفسي ، وقد عزمت على أن أمضي إلى رسول الله ، ﷺ ، وأخبره بما قلت ، قبل أن ينزل وحي ، يشركني في إثمك ، فكن على بينة من أمرك ، ومضى الفتى عمير إلى المسجد ، وأخبر النبي بما سمع ، واستدعى النبي ، ﷺ ، الجلاس وسأله عن مقالته لعمير ، فقال : كذب عليّ يا رسول الله ، وافترى ، فما تفوهت بشيء من ذلك ، فقال بعض الحاضرين : فتى عاقّ أبى إلا أن يُسيء لمن أحسن إليه ، وقال آخرون : بل إنه غلام نشأ في طاعة الله ، والتفت النبي ، عليه الصلاة والسلام ، إلى عمير ، فرأى وجهه قد احتقن بالدم ، والدموع تنحدر من عينيه ، وهو يقول : اللهم أنزل على نبيك بيان ما تكلمت به ، فأنبرى

الجلاس ، وقال : يا رسول الله... إني أحلف بالله ما قلت شيئاً ، مما نقله إليك عمير... ، ثم غشيت رسول الله ، ﷺ ، السكينة ، فعرف أصحابه أنه الوحي ، فلزموا أماكنهم ، حتى سُري عن رسول الله ، ﷺ ، فلما سُري عنه تلا قوله عز وجل :

﴿يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَوْمًا لَا يَنَالُونَ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة : ٧٤] .

ارتعد الجلاس من هؤل ما سمع ، ثم التفت إلى النبي ، ﷺ ، وقال : بل أتوب يا رسول الله ، صدق عمير ، وكنت من الكاذبين ، اسأل الله أن يقبل توبتي ، جُعلت فداك ، يا رسول الله ، ثم توجه النبي الكريم إلى عمير بن سعد ، فإذا دموع الفرح ، تبلل وجهه المشرق ، فمد يده الشريفة إلى أذنه ، فأمسكها برفق ، وقال : وقت أذنك ، يا غلام ، ما سمعت ، وصدّقتك ربك ، وعاد الجلاس إلى حظيرة الإسلام ، والشيء الغريب ، أن الصحابة عرفوا صلاح حاله ، مما كان يُغدقه على عمير من برّ ، فقد كان يقول ، كلما ذكر عمير ، : جزاه الله عني خيراً ، لقد أنقذني من الكفر ، وأعتق رقبتني من النار ، أرايتم إلى التعاون والإخلاص للمبدأ والتناصح ؟ !

* * *

الأمر التكويني فعل الله ، والأمر التكليفي أمر الله ونهيه ، لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم ، وكرّمه أعظم تكريم ، بأمر تكويني ، وكلفه أن يبني مجتمعاً فاضلاً ، أساسه التعاون والتنظيم والبناء والتقويم ، وتحكمه القيم ؛ قيم العدل ، والرحمة ، والإحسان بأمر تكليفي ، خلقه بأمر تكويني ، وأمره أن يبني هذا المجتمع الفاضل بأمر تكليفي ، فإذا ظهر الخلل والفساد في المجتمع البشري فسببه الخروج عن الأمر التكليفي .

وشاءت حكمة الله أن يخلق مجتمعاً قائماً على أعلى مستويات التعاون ، والتكامل ، والاختصاص ، والعمل الدؤوب المنتج ، والتنظيم المعجز بأمر تكويني ، لا تكليفي ، لذلك لا يمكن أن تجد في هذا المجتمع خللاً ، ولا فساداً ، كمال مطلق ، لأن أمره هنا تكويني ، لا تكليفي ، هذا ما نجده في مجتمع النحل .

فخلية النحل مجتمع موحد ، متكامل ، على رأسه ملكة واحدة ، لا تنازعها أخرى ، تشعر كل نحلة في الخلية بوجود الملكة ، عن طريق مادة تُفرزها الملكة ، وتنقلها العاملات إلى كل أفراد الخلية ، فإذا ماتت الملكة اضطرب النظام في الخلية ، وعمت الفوضى ، وشلت الأعمال ، والملكة تضع كل يوم في فصل الربيع قريباً من ألفي بيضة ، ما بين ذكور ، وإناث ، وملكات ، وتضع الملكة كل جنس في مكان مخصص ، ليتلقى غذاءً خاصاً ، وعناية خاصة ، بحسب جنسه .

ولإناث النحل أعمال متنوعة ، كثيرة ، توزع فيما بينها ، بحسب أعمارها ، واستعدادها الجسماني ، وعند الضرورة ،

وعند الخطر ، وفي المواسم الجيدة ، تعمل كل نحلة أي عمل ، يُفرض عليها ، هناك وصفات للملكة ، يقمن على خدمتها ، وجلب الطعام الملكي لها ، وهناك حاضنات ، ومربيات ، يقمن برعاية الصغار ، وجلب الغذاء المناسب ، وهناك شغالات ، يحضرن الماء إلى الخلية ، وهناك شغالات يقمن بتهوية الخلية ، صيفاً ، وتدفتتها شتاءً ، وترطيبها في وقت الجفاف ، وهناك شغالات ، يقمن بتنظيف الخلية ، وجعل جدرانها ملساء ، ناعمة ، لامعة ، عن طريق مواد خاصة ، وهناك شغالات حارسات ، يقمن بحراسة الخلية من الأعداء ، ولا يسمحن لنحلة أن تدخل الخلية ما لم تذكر كلمة السر ، وإلا تُقتل ، وكلمة السر تبدل عند الضرورة ، وهناك شغالات ، يقمن بصنع أقراص الشمع ، ذات الشكل السداسي ، الذي تنعدم فيه الفراغات البيئية ، بتصميم معجز ، وبأسلوب يعجز عن تقليده كبار المهندسين ، وهناك شغالات رائدات يقمن بمهمة استكشاف مواقع الأزهار ، فإذا عثرن عليه عُدن إلى الخلية ، ورقصن رقصة خاصة ، تحدد هذه الرقصة لبقية النحلات العاملات ، الموقع من حيث المسافة ، ومن حيث الاتجاه ، ودرجة النشاط في الرقص ، تدل على وفرة الغذاء ، أو تناقصه ، والجمهرة الكبيرة من الشغالات تنطلق إلى مواقع الأزهار لجني رحيقها ، لأنه المادة الأولية للعسل ، وقد تبتعد هذه المواقع عن الخلية أكثر من عشرة كيلو مترات ، وتعود النحلات إلى الخلية بعد أخذ الرحيق ، بطريقة ما تزال مجهولة حتى اليوم .

والنحل أكفأ الحشرات في جمع ونقل وتخزين أكبر قدر من

رحيق الأزهار في أقصر وقت ، وفي أقل مجهود ، وهي أكفاً الحشرات على تلقيح النباتات ، لتساعدها على إنتاج البذور والثمار ، وتخرج النحلات إلى مكان واحد ، محدد مسبقاً ، لتجني رحيق أزهار نوع واحد محدد مسبقاً .

والذي يلفت النظر أن أمراض النحل كلها ، لا تنتقل إلى الإنسان عن طريق العسل .

ويتمتع النحل بقدرة يصعب تفسيرها على الإحساس بالزمن ، فيعرف متى تفرز أزهار كل نوع من النبات رحيقها ، ومتى تنثر حبوب لقاحها ، ثم يداوم على زيارة كل منها في الموعد المناسب فقط .

وجني الرحيق الذي يكفي لصنع كيلو واحد من العسل يحتاج إلى طيران أربعمئة ألف كيلو متر ، أي ما يعادل عشرة أضعاف محيط الأرض .

وقيمة العسل العلاجية ، أضعاف قيمته الغذائية ، ففوائده العلاجية في مختلف أجهزة الجسم ، وأعضائه ، ونسجه ، ثابتة ، بل تفوق الحد المعقول ، كيف لا ؟ وقد قال الله عز وجل :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٦٨ - ٦٩] .

لماذا حُوطِبَ النحل ، في القرآن الكريم ، بضمير المؤنث ، حيث قال تعالى :

﴿ أَنْ أَخْذَى مِنْ الْجِبَالِ يُّوْتَا ﴾ [النحل : ٦٨] .

بينما خوطب النمل ، في القرآن الكريم ، بضمير المذكر ،
حيث قال تعالى :

﴿ حَقَّ إِذَا أَنْوَا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا
يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ١٨] .

الإجابة عن هذا السؤال ، تدخل في موضوع الإعجاز
العلمي ، في القرآن الكريم .

* * *

التعاون واجب ديني

التعاون أمر إلهي ، وكل أمر في القرآن الكريم ، وفي السنة الصحيحة يقتضي الوجوب ، وليس الدين عبادات شعائرية ، فحسب ، بل إن الدين هو الحياة ، كما أرادها الله عز وجل ؛ صلاح الدين ، وصلاح الدنيا ، وصلاح الآخرة .

في الإنسان نزعة فردية تنطلق من حبه لوجوده ، ومن حبه لسلامة وجوده ، ومن حبه لكمال وجوده ، ومن حبه لاستمرار وجوده .

وفيه أيضاً نزعة اجتماعية تنطلق من نزعته الفردية ، لأن كثيراً من مطالب حياة الإنسان ، وحاجاته الجسدية والنفسية والفكرية لا تتم إلا عن طريق الجماعة ، كالأنس بالجماعة ، والشعور بالأمن والطمأنينة معها ، والتماس نصرتها ، والتقوي بها ، وتحقيق حاجاته ومصالحه من خلالها .

لكن النزعة الجماعية التي تنطلق من طاعة الإنسان لله عز وجل والتقرب إليه ، وراء أكثر الفضائل الخلقية ، فما من فضيلة يصل نفعها وخيرها إلى الآخرين إلا وفيها عنصر التخلي عن الأنا . . وفيها نوع من التضحية في سبيل المجموع ، كوسيلة لنيل رضوان الله تعالى .

والرذائل الخلقية تنبع من فردية الإنسان ، وتفلته من منهج الواحد الديان ، والفضائل الخلقية تنبع من انصياعه لمنهج ربه ، والتقرب إليه بخدمة عباده .

الأنبياء - صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين - أعطوا كل شيء ، ولم يأخذوا من الجماعة شيئاً ، والذين على نقيضهم أخذوا كل شيء ، ولم يعطوا الجماعة شيئاً ، والذين هم بينَ بين ، أخذوا وأعطوا ، الأنبياء ملكوا القلوب بكمالهم ، وغيرهم ملكوا الرقاب بقوتهم .

إن جلائل الأعمال الكبرى لا تتحقق إلا عن طريق العمل الجماعي المتعاون ، بخلاف العمل الفردي ، الذي لا يثمر إلا أعمالاً تتناسب مع مستوى طاقات الأفراد شدةً وضعفاً ، والنزعة الفردية تنمو معها رغبة قبيحة ، بتهديم أعمال الآخرين ، حرصاً على التفرد لنيل التقدير بين الناس ، ومع هذه الرغبة القبيحة ، تتبدد الأعمال الفردية نفسها ، أو تضع ثمراتها ، فتحرم الإنسانية ثمرات الأعمال الجماعية وكثيراً من ثمرات الأعمال الفردية .

إن القوة الانفرادية ، مع القوة الانفرادية ، مجتمعتين تساويان أكثر منهما متفرقتين ، لأن عوامل الوهم والخوف والتخاذل تسرب إلى الأفراد وتمتنع منها الجماعة .

قال الله تعالى في كتابه العزيز :

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [المائدة : ٢] .

لأن الإنسان خليفة الله في الأرض ، ولأنه مُكلف أن يعمرها بكل ما هو خير نافع ، ليكون هذا الإعمار ثمناً لسعادته الأبدية في الجنة ، ولأن مشيئة الله شاءت أن يُمكن الإنسان من إتقان شيء ، بينما هو في حاجة إلى كل شيء ، إذاً كان التعاون ضرورة إيمانية ، وضرورة حياتية ، والتعاون حيادي ومطلق ، فيمكن أن يكون في الخير - صلاح الدنيا وصلاح الآخرة - كما يمكن أن يكون في الشر - في الإثم والعدوان - لذلك جاء الأمر الإلهي : بالتعاون مخصصاً ، بالبرّ والتقوى ، والبرّ - كما قال المفسرون - صلاح الدنيا ، والتقوى صلاح الآخرة ، وتأكيداً لهذا التخصيص جاء النهي عن النقيض ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ ، فكل من شارك في خير البشرية ، في دينها ودنياها ، مخلصاً لله عز وجل ، له نصيب من هذا الخير يناله في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً .

وكل من شارك في عمل آثم ، يبعد الإنسان عن خالقه ، أو عدواني فيه إيذاء لأخيه الإنسان ، يناله العقاب في الدنيا أو في الآخرة ، أو فيهما معاً .

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٢] .

يقول الله تعالى في كتابه الكريم :

﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ أَعْدَاءُ فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

[آل عمران : ١٠٣] .

في هذه الآية الكريمة يأمرنا الله جل جلاله أن نعتصم بحبله ، ونحن مجتمعون غير متفرقين ، وأصل الاعتصام : اللجوء إلى حبل الله ، إلى كتابه ، إلى سنة رسوله ، للاعتصام به ، وهذا يستلزم التمسك به ، والقبض عليه بشدة ، حتى يظفر المؤمنون باعتصامهم هذا بالنجاة من الهلاك ، والاعتصام بحبل الله لا يجدي أن يكون اعتصاماً فردياً ، بل لابد من أن يكون اعتصاماً جماعياً ، لذلك قال الله تعالى :

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

[آل عمران : ١٠٣] .

وأكد ذلك بالنهي عن التفرق ، فقال تعالى عقب ذلك :

﴿وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ .

[آل عمران : ١٠٣] .

ثم أجرى الله جل جلاله في هذا النص موازنةً بين ما كانت عليه الأمة العربية في جاهليتها ، قبل الإسلام ، وما تحولت إليه بالإسلام الذي كان نعمة سيقت من الله إليهم :

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

لقد كانت الأمة العربية قبل الإسلام مجزأة ، متفرقة ، متعادية فيما بينها ، وكانت على شفا حفرة من النار بالشرك والظلم والعدوان ، فأصبح تجزؤها وحدة ، وتفرقها اجتماعاً ، وعداوتها محبة ، فقد ألف الله بين قلوب أفرادها ، وجماعاتها بالإسلام ، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً :

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكَ كُنَّ اللَّهُ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال : ٦٣] .

وما كان سبب إنقاذها ، ووحدتها ، وقوتها ، ومجدها ؛ يظل هو السبب - أبد الدهر - في إنقاذها ، ووحدتها ، وقوتها ، ومجدها ، ولا يصلح آخر هذه الأمة ، إلا بما صلح به أولها .

الإسلام ردّ النفس الإنسانية إلى فطرتها الخيرة ، من التعاون والتناصر والتحابب ، ونهى عن التفاخر والتباغض ، وسوى بين المسلمين ، وجعلهم إخوة متحابين ، فأصبح المسلمون أمة متعاونة على الخير ، لا يفرق بين أفرادها لون ولا جنس ولا إقليم ولا مال ، وجاء التوجيه الإلهي يدفع المسلمين إلى هذا السلوك الإنساني الرفيع ، فقال تعالى :

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة : ٧١] .

لقد أنكر الإسلام النزعة الاستغلالية ، وقاوم السلبية ، ونبذ الأثرة والأنانية ، والتهافت المسعور على التقاط جهد الآخرين ، وأن يعيش الفرد على أنقاض الآخرين ، يجني قوته على ضعفهم ، وغناه على فقرهم ، ومجده على ذلهم ، وبين أن الناس جميعاً في حق الحياة ، وحق العمل ، وحق الكرامة ، سواء ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

« الْمُسْلِمُونَ تَكَافَأَ دِمَاؤُهُمْ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَذْنَاهُمْ وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ »^(١)
وقال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

وفي آية لاحقة :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٧٤] .

توضح هذه الآية أن الإيمان ما إن يستقرّ في نفس المؤمن حتى يعبر عن ذاته بحركة خيرة نحو الآخرين ، وما لم تكن هذه الحركة

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجه وأحمد وهو صحيح .

الخيرة نحو الآخرين ، فهناك شك في وجود الإيمان أصلاً .

فالمؤمنون هاجروا وجاهدوا وآووا ونصروا ، لذلك هم كالجسد الواحد إن اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، وإن لم يكن المؤمنون متناصحين ، متعاونين ، متبازلين ، متضامين ، تكن فتنة في الأرض ، وفساد كبير ، قال تعالى :

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنَ وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِبَعْضِ أَوْلِيَائِهِمْ بَعْضٌ ۖ إِنَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾

[الأنفال : ٧٢-٧٣] .

« عن أبي سعيد الخدري قال بينما نحن في سفر مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاء رجل على راحلة له قال : فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا فقال رسول الله ﷺ من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له قال فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل » (١) .

فالمسلم الحق يعمل من أجل المجموع ، ولا يعيش لذاته ، لكن أجره عند الله كبير ، قال تعالى :

(١) أخرجه مسلم وأبو داود وأحمد .

﴿ اٰمِنُوْا بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِۦ ۚ وَاَنْفِقُوْا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُّسْتَخْلِفِيْنَ فِيْهِۦ فَالَّذِيْنَ اٰمَنُوْا مِنْكُمْ
وَاَنْفَقُوْا لَهُمْ اَجْرٌ كَبِيْرٌ ﴾

[الحديد : ٧] .

وفي صحيح مسلم : « عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لَقَدْ رَأَيْتُ
رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَأَنَّهُ تُوْذِي
النَّاسَ » ^(١) .

لقد أسس النبي عليه الصلاة والسلام مجتمع المدينة ، وهو
النموذج الأول للمجتمع الإسلامي على خلق التعاون ، فقد ترك
المهاجرون بلدهم مكة ، وتركوا فيها أموالهم وكل ما يملكون ،
وانتقلوا إلى المدينة وليس معهم شيء ، في حين كان الأنصار وهم
أهل المدينة يملكون وقيمون في بيوتهم ويعملون في أرضهم ، فأقام
النبي عليه الصلاة والسلام التوازن بين الذين يملكون والذين
لا يملكون عن طريق الأخوة الإيمانية التي تعني الحب والإيثار
والبذل والعطاء ، - لا عن طريق القهر- ، فأخى بين المهاجرين
والأنصار ، فصار كل أخوين يتعاونان ويتناصران ، ويتشاركان في
السراء والضراء ، وكان الأنصاري يعرض على أخيه المهاجر ،
يعرض عليه أن يقاسمه كل ما يملك .

لكن الشيء المدهش أنه لم يستغل المهاجرون هذا السخاء ، بل
إن الكثير منهم اتجه إلى السوق ، ليأكل من كد يمينه ، قال سعد بن

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجه وأحمد ومالك .

الربيع لعبد الرحمن بن عوف : يا أخي دونك نصف مالي فخذ ،
فقال له عبد الرحمن بن عوف : بارك الله في مالك ولكن دلني على
السوق .

وقد سجل القرآن الكريم هذه الصورة الرائعة للإيثار فقال تعالى :
﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ
فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ
وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] .

لو تتبعنا أسباب العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع ، بل بين
أفراد مجتمع تربط بينهم عشرات القواسم المشتركة ، قال تعالى :
﴿ لَا يَقْنِطُوكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَىٰ مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ
بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾
[الحشر : ١٤] .

لو تتبعنا هذه الأسباب في كتاب الله عز وجل - ولا ينبئك مثل
خبير والله تعالى هو الخبير - لوجدنا هذه الأسباب في عِلْتَيْنِ اثْنَتَيْنِ ؛
الأولى : الخروج عن منهج الله عز وجل اتباعاً للهوى .
قال تعالى :

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرَىٰ أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا
ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ
يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة : ١٤] .

والثانية : اتباع الشيطان .

قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [المائدة : ٩١] .

وكلا العلتين تجمعهما علة واحدة ، وهي أن الإنسان فردي بطبعه ، والفردية - من دون أن تُضبط بمنهج الله - وراء أكثر الرذائل الخلقية ، من أثره أو أنانية ، وخطرسة وعداوة وخيانة وإلحاف .

والجماعية تكليف إلهي أولاً ، وصبغة يصطبغ بها المؤمن من خلال اتصاله بالله ثانياً ، والروح الجماعية وراء أكثر الفضائل الخلقية من مؤثرة وتواضع ومحبة وإخلاص وإنفاق .

الناس رجلان ؛ رجل عرف الله ، فاتصل به ، وانضبط بمنهجه ، وأحسن إلى خلقه ، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة ، ورجل غفل عن الله ، فتفلت من منهجه ، وأساء إلى خلقه ، فشقي في الدنيا والآخرة .

الإنسان هو سيد المخلوقات ، وهو أفضل من يدرك أن الجماعة خير من الفرقة ، وأن التعاون أجزى من التخاذل ، ومن طبيعة الحياة الإنسانية أن يتفاوت الناس في المواهب والملكات ، والجهود والطاقات ، فمنهم قوي ، ومنهم ضعيف ، منهم صحيح ، ومنهم سقيم ، منهم مستطيع ، ومنهم عاجز ، منهم عالم ، ومنهم جاهل ، منهم متقد الذكاء ، ومنهم محدود التفكير ، منهم غني وفقير ، منهم

قائد ومقود ، وتابع ومتبوع ، فإذا تُركت هذه الفروق وشأنها اتسعت الهوة وظهر التناقض الحاد بين أفراد المجتمع ، وأكل القوي الضعيف ، واستغل الغني الفقير ، فاختلت بنية المجتمع ، وانهار توازنه ، وسار في طريق الهاوية ، عندها تسفل الأهداف ، وتنحط الميول ، ويبيح الإنسان الشارد عن منهج الله لنفسه أكثر الوسائل قذارة لأشد الأهداف انحطاطاً ، عندها تكون أزمة الأخلاق المدمرة التي تسبب الشقاء الإنساني ، وحين ذلك تفسد علاقة الإنسان بأخيه ، فتكون الغلبة لصاحب القوة لا لصاحب الحق ، فتعيش الأمة عندها أزمة حضارية تعيق تقدمها ، وتقوض دعائمها ، وما يجري في العالم من حولنا أكبر دليل على ذلك .

لذلك ترى المؤمن إنساناً متميزاً ، يرى ما لا يراه الآخرون ، ويشعر بما لا يشعرون ، يتمتع بوعي عميق ، وإدراك دقيق ، له قلب كبير وعزم متين ، وإرادة صلبة ، هدفه أكبر من حاجاته ، ورسالته أسمى من رغباته ، يملك نفسه ولا تملكه ، يقود هواه ولا ينقاد له ، تحكمه القيم ويحتكم إليها ، من دون أن يسخرها لمصالحه ، أو يسخر منها ، سما حتى اشربأت إليه الأعناق ، وصفا حتى مالت إليه القلوب .

المؤمن شخصية فذة ، لأن الإيمان درجة علمية ، المؤمن عرف الحقيقة الكبرى وانسجم معها ، والإيمان درجة أخلاقية ، فسلوك المؤمن تحكمه منظومة من القيم الأخلاقية ، والإيمان درجة جمالية ، ففي قلبه من السعادة - من خلال اتصاله بالله - ما لو وزعت على أهل بلدة لكفتهم .



الحظوظ التي ينالها الإنسان في الدنيا حيادية ، يمكن أن تُوظف في الحق كما يمكن أن توظف في الباطل ، يمكن أن تسخر في الخير كما يمكن أن تسخر في الشر ، يمكن أن تكون للإنسان سلماً يرقى بها أو دركات يهوي بها ، هذا نعيم بن مسعود ، كان فتىً في الجاهلية فتىً يقظ الفؤاد ، ألمعي الذكاء ، ولأجاً خراجاً ، يحسن التصرف ، لا تعوقه معضلة ، ولا تُعجزه مشكلة ، كان صاحب صبوة وخدين متعة ، ولما بعث الله النبي ، ﷺ ، برسالة الإسلام إلى العالمين ، أعرض نعيم عن هذا الدين الجديد أشد الإعراض ، خوفاً من أن يحول هذا الدين بينه وبين متعه ولذاته ، لكن نعيم وجد نفسه مسوقاً إلى الانضمام إلى خصوم المسلمين مدفوعاً إلى إشهار السيف في وجوههم ، لكن لحظة تفكير سليم ، ولحظة محاكمة منطقية ، ولحظة تأمل دقيق ، ولحظة مراجعة مع النفس صادقة ، ولحظة تبصر عميق ، وقد تكون هذه اللحظة سبب سعادة أبدية ، وفوز عظيم ، قد تنقل هذه اللحظة التي فيها صدق مع النفس ، قد تنقل الإنسان من الشقاء إلى السعادة ، من وحول الشهوات إلى جنات القربات ، من سلوك المجرمين ، إلى بطولات الصديقين .

خرجت قریش بقضها وقضيضها ، بخيلها ورجلها ، بكل ما تملك ، بكل وزنها ، بكل ثقلها ، بكل طاقتها ، بقيادة أبي سفيان ابن حرب متجهة شطر المدينة .

كما خرجت غطفان من نجد بعدتها وعددها ، بقيادة عيينة بن حصن ، ومعهم نعيم بن مسعود متجهة شطر المدينة .

ولا ندخل في تفصيل معركة الخندق التي أراد خصوم المسلمين من خلالها استئصال المسلمين عن آخرهم .

وفوق كل ذلك نقضت بنو قريظة عهدها مع النبي ﷺ ، وانضمت إلى الأحزاب ، وأصبحت قضية الدين الجديد ، قضية يكون أو لا يكون ، قضية ساعات - هنالك ابتلي المؤمنين وزلزلوا زلزالاً شديداً - .

وفوق كل ذلك انسل المنافقون من ساحة المعركة وقالوا : ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ، ولم يبق مع النبي ﷺ إلا بضع مئات من المؤمنين الصادقين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً .

وفي ليلة من ليالي الحصار الذي دام عشرين يوماً ، كان نعيم مستلقياً على فراشه في خيمته في معسكر المشركين ، يتقلب في مهاده أرقاً وفجأة سأله نفسه قائلة : ويحك يا نعيم . . ما الذي جاء بك من تلك الأماكن البعيدة من نجد لحرب هذا الرجل ومن معه ؟ إنك لا تحاربه انتصاراً لحق مسلوب ، ولا حمية لعرض مغصوب ، ولا لدم مسفوك ، وإنما جئت تحاربهم لغير سبب معروف ، أيليق يا نعيم برجل له عقل مثل عقلك أن يقاتل فيقتل أو يقتل لغير سبب ، ما الذي يجعلك تشهر سيفك في وجه هذا الرجل الصالح - ولم يكن مؤمناً بأنه نبي كريم - الذي يأمر أتباعه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ؟ ويحك يا نعيم ما الذي يحملك على أن تغمس رمحك في دماء أصحابه ، الذين اتبعوا ما جاءهم به من الهدى والحق ؟!

هذا الحوار الذاتي يحتاجه كلُّ منا كل يوم . .

اتسم هذا الحوار الذاتي بالصدق والوضوح ، وكان هذا الحوار الذاتي سبب سعادته الأبدية ، اتخذ نعيم عقب هذا الحوار الصادق قراراً حاسماً وحازماً ، ونفذه مباشرة ، تسلل من معسكر قومه ، تحت جناح الظلام ، ومضى يحث الخطى إلى النبي ﷺ فلما رآه النبي ماثلاً بين يديه ، قال : نعيم بن مسعود !؟ قال : نعم يا رسول الله ، قال : ما الذي جاء بك هذه الساعة ؟ قال : يا رسول الله جئت لأشهد أنه لا إله إلا الله ، وأنت عبد الله ورسوله ، وأن ما جئت به هو الحق ، ثم قال : لقد أسلمت يا رسول الله ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني بما شئت ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« أنت فينا رجل واحد ، فاذهب إلى قومك ، وخذل عنا - إن استطعت - فإن الحرب خدعة . . » ^(١) .

هذا نموذجٌ من تعاون الفرد مع المجموع .

وسيوظف الآن نعيم عقله ، ولسانه ، وإمكاناته ، ومكانته لصالح هذا الدين الجديد ، فقال : يا رسول الله ستري ما يسرك إن شاء الله .

مضى نعيم بن مسعود من توه إلى بني قريظة ، وكان لهم من قبل صاحباً ونديماً ، وقال لهم : يا بني قريظة لقد عرفتم ودي لكم وصدقي في نصحكم قالوا : نعم والله فما أنت عندنا بمتهم ، قال : إن قريشاً وغطفان لهم في هذه الحرب شأن غير شأنكم ، قالوا : كيف ؟

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي .

قال : هذا البلد بلدكم وفيه أموالكم وأولادكم ونساؤكم ، وليس بوسعكم أن تهجروه إلى غيره ؛ أما قريش وغطفان فبلدهم وأموالهم وأولادهم ونساؤهم في غير هذه البلد وقد جاؤوا لحرب محمد ودعوكم لنقض عهده ومناصرتهم عليه فأجبتهموه ، فإن أصابوا نجاحاً في قتاله ركبوا عليكم - أي اغتتموه - وإن أخفقوا في قهره ، عادوا إلى بلادهم آمنين ، وتركوكم وحدكم ، فينتقم محمد منكم شر انتقام ، وأنتم تعلمون أنه لا طاقة لكم به ، إذا خلا بكم ؛ قالوا : صدقت والله ، وهذا رأي حصيف ، قال : الرأي عندي ألا تقاتلوا معهم ، حتى تأخذوا طائفة من أشrafهم ، وتجعلوهم رهائن عندكم وبذلك تحملونهم على قتال محمد معكم ، إلى أن تنتصروا عليه ، أو يفنى آخر رجل منكم ومنهم ، قالوا : والله أشرت ونصحت ، بارك الله بك .

ثم خرج من عندهم ، وأتى أبا سفيان بن حرب قائد قريش ، وقال له ولمن معه : يا معشر قريش ، قد عرفتم ودّي لكم ، وعداوتي لمحمد ، قالوا : نعم ، وقد بلغني أمر ، فرأيت حقاً علي أن أفضي به إليكم نصحاً لكم ، على أن تكتموه ولا تذيعوه ، قالوا لك علينا ذلك ، قال : بنو قريظة قد ندموا على مخاصمتهم محمد ، فأرسلوا إليه يقولون : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، وعزمنا أن نعود إلى معاهدتك ، ومسالمتك ، فهل يرضيك - يا محمد - أن نأخذ لك من قريش وغطفان رجالاً كثيراً من أشrafهم ونسلمهم إليك لتضرب أعناقهم ، ثم ننضم إليك في محاربتهم حتى نقضي عليهم ؛ فأرسل إليهم النبي : أي نعم ؛ فإن بعثت اليهود يا أبا سفيان تطلب منكم رهائن من رجالكم ، فلا تدفعوا إليهم أحداً ، قال أبو سفيان : نعم

الحليف أنت ، بارك الله بك ، وجزيت خيراً أنقذتنا .

ثم خرج نعيم من عند أبي سفيان حتى أتى قومه غطفان فحدثهم بمثل ما حدث به أبي سفيان وحذرهم مما حذرهم منهم .

أراد أبو سفيان أن يختبر بني قريظة ، فأرسل إليهم ابنه ، فقال لهم : إن أبي يقرئكم السلام ، ويقول لكم : إنه قد طال حصارنا لمحمد وأصحابه ، حتى مللنا ، وإننا قد عزمنا على أن نقاتل محمداً ، ونفرغ منه ، وقد بعثني أبي إليكم ليدعوكم إلى منازلته غداً ، فقالوا له : إن اليوم يوم سبت ، ونحن لا نعمل فيه شيئاً ، ثم إنا لا نقاتل معكم حتى تعطونا سبعين من أشرافكم ، وأشراف غطفان ، حتى يكونوا رهائن عندنا ، فإنا نخشى - إن اشتد عليكم القتال - أن تسرعوا إلى بلادكم ، وتركونا لمحمد وحدنا ، وأنتم تعلمون أنه لا طاقة لنا به .

لقد نجحت الخطة مئة بالمئة ؛ فما إن عاد ابن أبي سفيان إلى قومه وأخبرهم بما سمعه من بني قريظة ، حتى قالوا بلسان واحد : خسى أبناء القردة والخنازير ، والله لو طلبوا منا شاة رهينة ما دفعناها إليهم .

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ٢٩] .

لقد نجحت خطة نعيم في تمزيق صفوف الأحزاب وتفريق كلمتهم ، وأرسل الله على قريش وحلفائها ريحاً صرصراً اقتلعت خيامهم ، وكفأت قدورهم ، وأطفأت نيرانهم ، وسفعت وجوههم ، وملأت أعينهم تراباً ، فلم يجدوا مفرأ من الرحيل . .

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب : ٢٥] .

هذا درس إيماني بليغ ، إذا كان الله معنا فمن علينا ، وإذا كان الله علينا فمن معنا ، ولكن معية الله ، التي نعقد عليها الآمال في أن تنصرنا على عدو متغطرس ، سلب الأرض ، وشرد الشعب ، ونهب الثروات ، وانتهك الحرمات ، ودنس المقدسات ، وأنشأ المستوطنات ، هذه المعية التي نعلق عليها كل الآمال لها ثمن ، ثمنها موضح في القرآن الكريم ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة : ١٢] .

ولم يطالبنا ربنا بإعداد القوة المكافئة ، بل بإعداد القوة المتاحة ، فقال تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ .

عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ [الأنفال : ٦٠] .

* * *

ما دام الحديث عن التعاون ، وهو أمر تكليفي ، كلف به هذا المخلوق الأول ، المكرم ، الإنسان ، إن هذا يذكرنا بأروع صورة من صور التعاون في مجتمع النمل ، ولكن بأمر تكويني ، لا بأمر تكليفي .

النملة حشرة اجتماعية راقية ، موجودة في كل مكان ، وفي كل وقت ، بل إن أنواع النمل تزيد على تسعة آلاف نوع ، وبعض النمل يحيا حياة مستقرة في مساكن محكمة ، وبعض النمل يحيا حياة الترحال كالبدو تماماً ، وبعضه يكسب رزقه بجده وسعيه ، وبعضه يكسب رزقه بالغدر والسيطرة ، والنمل حشرة اجتماعية تموت إذا عُزلت عن أخواتها ، ولو توافر لها غذاء جيد ، ومكان جيد ، وظروف جيدة ، كالإنسان إذا عزلته في مكان ، بعيد عن الضوء ، والصوت ، والساعة والزمن ، والليل والنهار ، عشرين يوماً ؛ فإنه يفقد توازنه العقلي .

والنملة تعلم الإنسان درساً بليغاً في التعاون ، فإذا التقت نملة جائعة بأخرى شبعى ، تعطي الشبعى الجائعة خلاصات غذائية من جسمها ففي جهازها الهضمي جهاز ضخ تُطعم به ولندقق في حديث

رسول الله ﷺ : « والله ما آمن ، والله ما آمن ، والله ما آمن ، من بات شبعان ، وجاره جائع إلى جنبه ، وهو يعلم » ومن لم يتفقد شؤون المسلمين فليس منهم .

للنمل ملكة كبيرة الحجم ، مهمتها وضع البيوض ، وإعطاء التوجيهات ، ولها مكان أمين في مساكن النمل ، وهي على اتصال دائم بكل أفراد المملكة ، والنملات العاملات لها مهمات متنوعة :

من مهمات العاملات تربية الصغار ، وهذا يشبه قطاع التعليم ، وفي النمل عساكر لها حجم أكبر ، ولها رأس صلب ، كأن عليه خوذة ، وهذا يشبه قطاع الجيش في حراسة الملكة ، وحفظ الأمن ، وردّ العدوان ، ومن مهمات العاملات تنظيف المساكن والممرات ، وهذا يشبه قطاع البلديات ، ومن مهمات العاملات سحب جثث الموتى من المساكن ، ودفنها في الأرض ، وهذا يشبه مكاتب دفن الموتى ، ومن مهمات العاملات جلب الغذاء من خارج المملكة ، وهذا يشبه قطاع المستوردين ، ومن مهمات العاملات زرع الفطريات ، وهذا يشبه قطاع الزراعة ، ومن مهمات العاملات تربية حشرات ، تعيش النمل على رحيقها ، وهذا يشبه قطاع مربى الماشية .

النمل يبني المدن ، ويشق الطرقات ، ويحفر الأنفاق ، ويخزن الطعام في مخازن ، وفي صوامع ، بعض أنواع النمل يقيم الحدائق ، ويزرع النباتات ، وبعض أنواع النمل يقيم حروباً على قبائل أخرى ويأخذ الأسرى من ضعاف النمل المهزوم ، ولندقق في قوله تعالى :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

قال الله تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ١٨] .

لقد أثبت الله جل جلاله من خلال هذه الآية للنمل الكلام ، ونوعاً من المعرفة ، للنملة منحٌ صغير ، وخلايا عصبية ، وأعصاب لتقدير المعلومات والخرائط كي تهتدي بها إلى مواقع الغذاء وإلى أوكارها . وإن النملة تملك نوعاً من التصرف العقلاني ، وهي من أذكى الحشرات ، وهي ترى بموجات ضوئية ، لا يراها الإنسان ، ولغة النمل كيماوية ، لها وظيفتان ، التواصل ، والإنذار ، فلو سحقت نملةٌ فإن رائحة تصدر عنها ، تستغيث بها النملات ، أو تحذرهما من الاقتراب من المجزرة ، ولا تستطيع النملة دخول وكرها إلا إذا بينت كلمة السر . وللنمل جهاز هضم مدهش ، فيه فم ، ومري ، ومعدة ، وأمعاء وجهاز مص ، وجهاز ضخ .

يقول الإمام علي كرم الله وجهه :

« انظروا إلى النملة في صغر جثتها ، ولطافة هيئتها ، لا تكاد تنال بلحظ البصر ، ولا بمستدرك الفكر ، كيف دبّت على أرضها ، وُضبت على رزقها ، تنقل الحبة إلى جحرها ، وتعدّها في

مستقرها ، تجمع في حرّها لبردها ، وفي وردها لصدرها ، مكفولٌ
برزقها ، مرزوقة بوفقها ، لا يغفلها المنان ، ولا يحرمها الديان ،
ولو في الصفا اليابس ، والحجر الجامس ، ولو فكرت في مجاري
أكلها ، في علوها وسفلها ، وما في الجوف من شراسيف بطنها ،
وما في الرأس من عينها وأذنها ، لقضيت من خلقها عجباً ، ولقيت
من وصفها تعباً ، فتعالى الله الذي أقامها على قوائمها ، وبنّاها على
دعائمها ، لم يشركه في فطرتها فاطر ، ولم يعنه على خلقها قادر .



الباب الرابع
أصول الفقه

الحلال والحرام في الإسلام

موضوع الحلال والحرام ، هو قوام الإسلام ، ودليل الإيمان ، وميزان الصدق عند الواحد الديان ، فلا إيمان بلا عمل ، ولا عمل إلا على مقتضى الأمر والنهي ، ولا التزام بأمر ، ولا نهى ناهٍ إلا عن حب ، والحب دون اتباع كذب ونفاق ، ومن هنا كانت خطورة موضوع الحلال والحرام في الإسلام ، الذي هو شريعة خاتمة ، لبناء حضارة أمة ، هي خير أمة أخرجت للناس ، لقد كانت جميع الرسالات السابقة تدريجاً للبشرية على تقبل تلك الشريعة الخاتمة ، وتمهيداً لاكتمال الوعي في تلك الأمة المختارة ، فما من أمة عدلت عن تشريع الله إلا أخذت بالدمار والهلاك ، وما من فرد ، أهمل الأمر والنهي ، إلا اختل قوامه ، واضطرب حاله ، قال تعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] .

الشريعة رحمة كلها ، عدل كلها ، مصلحة كلها ، حكمة

كلها ، إنها تعليمات الصانع الخبير ، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ .

لقد أراد الإسلام بناء شخصية المسلم ، متميزة من الشخصيات الأخرى ، من خلال الحلال والحرام ، وقد اتجه الإسلام بأهله إلى بناء مجتمع الجسد الواحد ، والأخوة الإسلامية الصادقة التي تنتهي إلى الأخوة الإنسانية ، على هدى الحلال والحرام ، لقد احترم الإسلام الإنسان ، وأعلى قدره حينما نظر إلى الاقتصاد من خلال الإنسان كرامةً وكفايةً وأمناً ، لا من خلال قهره واستغلاله ، فكان الحلال والحرام صوناً لكرامة الإنسان ، فشرائع الإسلام صالحةٌ لاستيعاب كل المعاملات والقضايا العصرية ، لتضعها في مكانها من الحلال والحرام .

الحلال والحرام يتصل بأعمال القلوب ، كما يتصل بأعمال الجوارح ، والصحابة الكرام على جلالة قدرهم ، وعمق إيمانهم ، وقربهم من رسول الله ﷺ كانوا أحرص الناس على رعاية أعمال القلوب ، حرصهم على رعاية أعمال الجوارح ، إن الإنسان لا يتحرك في أعماله سواء أكانت فعلاً أو تركاً ، حركةً آليةً بلا دافع قلبي ، يدفعه إلى العمل ، وإلا كان جماداً لا روح فيه ، هذا الدافع القلبي هو الإرادة والنية ، وقد يدخله كثير من ألوان الخداع النفسي ، حتى يتحول عمل الطاعة إلى إثم ، ويتحول ترك الحرام إلى حرام .

إن أعمال القلوب دقيقة المأخذ ، تتقارب فيها حدود الحلال والحرام تقارباً لا يمكن التمييز بينها ، إلا بعد تأملٍ دقيق ، على

هدى من علم شامل ، وفقه عميق ، كالنفاق المحرم ، والمباهاة المباحة ، كيف نميز بينهما ؟ .. وكالخوف من الله ، واليأس من رحمته .. كيف نفرق بينهما ؟ .. وكرجاء رحمته ، والغرة به ، كإضمار ما يجب ستره ، بنية الدعوة إلى العمل بالقدوة ، ونية الإعجاب بالعمل والرغبة في ثناء الناس ، كيف نفرق بينهما ؟ .. وكالعجب والكبر ، والمهابة والوقار ..

إن الأعمال تحتاج إلى شروط صحة من زاوية الأحكام الفقهية التي تتعلق بالجوارح ، وهذه الشروط موجودة في كتب الفقه ، وتحتاج أعمال الإنسان إلى شروط صحة أخرى من زاوية قبولها عند الله ، وهذه تتعلق بمعرفة النفس وأحوالها مع ربها .

فالعمل مطلقاً ، والعمل الصالح بخاصة لا يُقبل عند الله إلا إذا كان خالصاً وصواباً ؛ خالصاً ما ابتُغي به وجه الله ، وهذا من عمل القلب ، وصواباً ما وافق السنة ، وهذا من عمل الجوارح ، وكل منهما شرط لازم غير كاف .

القاعدة الأولى : الأصل في الأشياء الإباحة .

إن أول مبدأ قرره الإسلام ، أن الأصل فيما خلق الله من أشياء ومنافع هو الحل والإباحة ، ولا حرام إلا ما ورد فيه نص صحيح وصريح بتحريمه ، من الله في كتابه ، أو من رسوله ﷺ في سنته ، فإذا لم يكن النص صحيحاً ، أو لم يكن صريحاً في الدلالة على الحرمة ، بقي الأمر على أصل الإباحة ، قال تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٣] .

وما كان الله سبحانه وتعالى ، ليخلق هذه الأشياء ، ويسخرها للإنسان ، ويمنَّ عليه بها ، ثم يحرمه منها ، بتحريمها عليه ، كيف وقد خلقها ، وسخرها له ، وأنعم بها عليه ، والذي حرمه جل جلاله ، جزئيات منها بسبب وحكمة بالغة ، ومن هنا ضاقت دائرة المحرّمات في شريعة الإسلام ضيقاً شديداً ، واتسعت دائرة الحلال اتساعاً بالغاً .

ورد عن رسول الله ﷺ :

« ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً . . وتلا قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (١) .

إن أصل الإباحة تشمل الأفعال والتصرفات التي ليست من أمور العبادة ، ففي الأشياء والأفعال ، الأصل أنها مباحة ، ولا يُحرم شيئاً منها إلا بنص ، وفي العبادات الأصل هو الحظر ، ولا تُشرّع عبادة إلا بنص .

القاعدة الثانية : التحليل والتجريم : من حق الله تعالى وحده .

التحليل والتجريم ، من حق الله تعالى وحده ، وليس من حق

(١) الحديث حسن أخرجه الحاكم ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد وعزاه إلى البزار والطبراني في الكبير وأشار إلى حسنه .

أحد من خلقه ، أياً كانت درجته في دين الله ، أو دنيا الناس ، فمن فعل ذلك من بني البشر ، فقد تجاوز حدّه ، واعتدى على حق الربوبية في التشريع للخلق ، ومن رضي بعمله هذا واتبعه فقد جعله شريكاً لله ، وعُدَّ أتباعه هذا شركاً ، قال تعالى :

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ ﴾

[الشورى: ٢١].

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل: ١١٦] .

* * *

وكان السلف الصالح ، لا يصف شيئاً بأنه حرام ، مالم يكن في كتاب الله ، أو في سنة رسوله ، بيناً بلا تفسير ، وكانوا لا يطلقون الحرام إلا على ما علم تحريمه بالضرورة قطعاً يقيناً ، وكان أحمد بن حنبل يقول حين يُسأل : « أكرهه ، لا يُعجبني ، لا أحبه ، لا أستحسنه » .

القاعدة الثالثة : تحليل الحرام ، وتحريم الجلال من أكبر الكبائر .

تحليل الحرام ، وتحريم الحلال يقترن بالشرك ، يقول عليه الصلاة والسلام ، فيما يرويه عن ربه : « إني خلقت عبادي

حُنفاء ، وإنهم أتهم الشياطين ، فاجتالهم عن دينهم ، وحرّمت عليهم ما أحلت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»^(١) .

وقد حارب النبي ﷺ نزعة التنطع والتشدد ، من دون موجب ، وذمها ، وأخبر بهلاك أصحابها ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« ألا هلك المتنطعون ، ألا هلك المتنطعون ، ألا هلك المتنطعون »^(٢) .

والتحريم يستطيعه كل إنسان ، حتى الجاهل ، لكن العلماء المتمكنين العاملين بعلمهم ، المخلصين في عملهم ، هم الذين يبينون للناس ما هو حلال وما هو حرام ، بالدليل والتعليل ، فالتبليغ مهمة الأنبياء والرسل ، والتبيين مهمة العلماء من بعدهم .

القاعدة الرابعة : الحلال طيب ، والحرام خبيث .

من حق الله تعالى ، لكونه خالقاً ومربياً ومسيراً ، ومنعماً على خلقه بنعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى والرشاد ، من حقه أن يُحلل لهم ، وأن يُحرّم عليهم ما يشاء ، كما له أن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١٥١/٨ ، وأحمد في مسنده ١٦٢/٤ من حديث عياض بن حمار المجاشعي .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٥٨/٦) ورواه أبو داود (٣٩٩٢) وأحمد (٣٤٧٣) واللفظ لأبي داود وهو صحيح .

يتعبد لهم بالتكاليف والشعائر بما يشاء ، فهو حق ربوبيته لهم ، ومقتضى عبوديتهم له ؛ ولكنه تعالى ، رحمة منه بعباده ، جعل التحليل والتحریم ، لأسباب معقولة ، راجعة لمصلحة البشر أنفسهم ، فلم يحل سبحانه إلا طيباً ، ولم يحرم إلا خبيثاً ، قال تعالى :

﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

والطيبات هي الأشياء التي تستطيعها النفوس المعتدلة المتوازنة ، ويستحسنها مجموع الناس ، ذوي الفطر السليمة ، استحساناً غير ناشئ عن أثر العادة ، فالعلاقة بين الحلال ونتائجه علاقة علمية ، أي علاقة سبب بنتيجة ، والعلاقة بين الحرام ونتائجه علاقة علمية ، أي علاقة سبب بنتيجة .

القاعدة الخامسة : في الجلال ما يخفي عن الجرام .

من محاسن الشريعة الإسلامية ، أنها لم تُحرم شيئاً إلا عوضت خيراً منه ، مما يسد مسده ، ويغني عنه ، فالله تعالى ، لم يضيق على عباده من جانب ، إلا وسَّع عليهم من جانب آخر ، من جنسه ، فإنه سبحانه وتعالى ، لا يُريد بعباده عتياً ، ولا إرهاقاً ، بل يُريد بهم اليُسْرَ والخير والهداية والرحمة ، قال أحد العلماء : حرم الله على عباده ، الاستقسام بالأزلام ، وعوضهم عنه دعاء الاستخارة ، حرم عليهم الربا ، وعوضهم التجارة الرباحة ، حرم عليهم القمار ، وأعاضهم عنه المسابقة في الدين ، حرم عليهم الحرير ، وأعاضهم عنه الملابس الفاخرة ، حرم

عليهم الزنى ، وأعضاهم عنه الزواج الحلال ، حرم عليهم شرب المسكرات ، وأعضاهم عنها بالأشربة اللذيذة ، حرم عليهم الخبائث من المطعومات ، وأعضاهم عنها بالمطاعم الطيبات .

ليس في الدين حرمان ، كما يتوهم الجهلة ، فكل شهوة أودعها الله في الإنسان ، جعل لها قناةً نظيفةً تتحرك من خلالها ، وكل حاجة ، ألجأ الله إليها عباده ، جعل لهم ، أكثر من سبب لتحقيقها ، فالحلال يُغني عن الحرام ، أيما غناء .

القاعدة السادسة : ما أدى إلى جرام فهو جرام .

ومن المبادئ التي قررها الإسلام ، أنه إذا حرّم شيئاً حرم ما يُفضي إليه من وسائل ، وسد الذرائع الموصلة إليه ، فإذا حرّم الزنى ، حرم كل مقدماته ودواعيه ، من تبرج جاهلي ، وخلوة آثمة ، واختلاط عابث ، وصور فاضحة ، وأدب مكشوف ، وغناء فاحش ، فما أدى إلى حرام فهو حرام .

وقرر أيضاً أن إثم الحرام لا يقتصر على فاعله المباشر وحده ، بل تتسع الدائرة لتشمل كل من شارك فيه بجهد مادي أو أدبي ، كل يناله من الإثم على قدر مشاركته ، ففي الخمر لعن معها عشرة شاربها ، وعاصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وآكل ثمنها .

القاعدة السابعة : التحايل على الجرام جرام .

وكما حرّم الإسلام ، كل ما يفضي إلى المحرمات من وسائل ظاهرة ، حرم أيضاً التحايل على ارتكابها بالوسائل الخفية ،

والحيل الشيطانية ، ومن الحيل الآثمة تسمية الشيء الحرام بغير اسمه ، وتغيير صورته مع بقاء حقيقته ، ولا ريب أنه لا عبرة بتغيير الاسم إذا بقي المسمى ، ولا بتغيير الصورة إذا بقيت الحقيقة ، فمن باع سلعةً ديناً لستة أشهر بمئة ، ثم اشتراها نقداً بثمانين ، وادعى أن هذا بيع وشراء ، نجيبه : بأنه لا عبرة لصورة البيع والشراء ، إنه أقرض ثمانين ليستردها مئة ، وهذا هو الربا بعينه .

القاعدة الثامنة : النية الحسنة ، لا تسوغ الجرام .

الإسلام يقدر الباعث الكريم ، والقصد الشريف ، والنية الطيبة ، في تشريعاته ، وتوجيهاته كلها ، والنبي ﷺ يقول : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل مرء ما نوى »^(١) .

وبالنية الطيبة ، تصبح المباحات والعادات ، طاعات وعبادات ، فمن تناول غذاءه بنية حفظ الحياة ، وتقوية الجسد على طاعة الله ، وأداء واجبه نحو ربه وأمته ، كان طعامه وشرابه عبادة وقربة ، قال عليه الصلاة والسلام : « ... وفي بضع أحدكم صدقة ، قالوا : يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أليس إن وضعها في حرام كان عليه وزر ؟ فكذلك إن وضعها في حلال كان له أجر »^(٢) .

(١) رواه البخاري برقم ١ ، وأبو داود برقم ١٨٨٢ ، وابن ماجه برقم ٤٢١٧ .
(٢) هو جزء من حديث طويل أوله : ذهب أهل الدثور بالأجور . . . أخرجه مسلم وأبو داود وأحمد .

وهكذا كل عمل مباح ، يقوم به المؤمن ، يدخل فيه عنصر النية ، فتحيله إلى عبادة .

أما الحرام فشيء آخر . الحرام هو حرام ، مهما حسنت نية فاعله ، وشرف قصده ، ومهما كان هدفه نبيلاً ، لا يرضى الإسلام أبداً أن يتخذ الحرام وسيلةً إلى غاية محمودة ، لأن الإسلام يحرص على شرف الغاية ، وطهر الوسيلة معاً ، ولا تقر شريعة الإسلام بحال مبدأ الغاية تسوغ الوسيلة ، أو مبدأ الوصول إلى الحق بالخوض في كثير من الباطل ، بل توجب شريعة الإسلام ، الوصول إلى الحق عن طريق الحق وحده ، فمن جمع مالا من ربا ، أو سحت ، أو لهو حرام ، ليبنى مسجداً ، أو يُقيم مشروعاً خيرياً ، لم يشفع له نبل قصده ، لأن الحرام في الإسلام ، لا تؤثر فيه المقاصد والنيات ، فالله طيب ولا يقبل إلا طيباً .

القاعدة التاسعة : اتقاء الشبهات أولى .

من رحمة الله تعالى بالناس ، أنه لم يذرهم في ظلمة من أمر الحلال والحرام ، لقد بيّن الحلال ، وفصل الحرام ، قال تعالى : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام : ١١٩] .

فأما الحلال البين فلا حرج في فعله ، وأما الحرام البين فلا رخصة في اتباعه ، وهناك منطقة بين الحلال البين والحرام البين ،

هي منطقة الشبهات ، التي يلتبس بها أمر الحل بالحرمة على بعض الناس ، لا على جميعهم ، إما لاشتباه في الأدلة عليه ، أو لاشتباه في تطبيق النص على الواقعة ، وقد جعل الإسلام من الورع أن يتجنب المسلم هذه الشبهات ، حتى لا يجرّه الوقوع فيها إلى مواقع الحرام الصرف ، قال عليه الصلاة والسلام :

« الحلال بيّن والحرام بيّن ، وبينهما أمور مشتهات لا يدري كثير من الناس ، أمن الحلال هي أم من الحرام ، فمن تركها استبرأ لدينه وعرضه ، فقد سلم ، ومن واقع شيئاً منها يوشك أن يُواقع الحرام »^(١) .

القاعدة العاشرة : الجرام جرام على الجميع .

الحرام في شريعة الإسلام يتسم بالشمول والاطّراد ، فليس هناك شيء حرام على الأعجمي ، حلال على العربي ، وليس هناك شيء محظور على الملون ، مباح للأبيض ، وليس هناك جواز أو ترخيص ، ممنوح لفئة من الناس ، تقترب باسمه ما طوع لها الهوى ، بل ليس للمسلم خصوصية تجعل الحرام على غيره حلالاً له ، كلا إن الله رب الجميع ، والشرع سيد الجميع ، فما أحل الله بشريعته فهو حلال للناس كافة ، وما حرّم فهو حرام على الجميع كافة إلى يوم القيامة .

السرقه مثلاً حرام ، سواء أكان السارق ينتمي إلى المسلمين ،

(١) رواه البخاري برقم ٥٠ ، ومسلم برقم ٢٩٩٦ ، والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد والدارمي .

أو لا ينتمي ، وسواء أكان المسروق ينتمي إلى المسلمين ، أو لا ينتمي ، والجزاء لازم للشارق ، أياً كان نسبه أو مركزه ، وهذا ما صنعه رسول الله ﷺ وأعلنه حينما قال :

« إنما أهلك الذين من قبلكم ، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإيم الله ؛ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » (١) .

القاعدة الحادية عشرة : حول مخابط الكسب الجلال .

وهي قاعدة مهمة جداً في الكسب ، إن الإسلام لا يُبيح لأبنائه أن يكتسبوا المال كيفما شاؤوا ، وبأي طرق أرادوا ، بل هو يفرق بين الطرق المشروعة ، باكتساب المعاش - نظراً إلى المصلحة الجماعية - وبين الطرق غير المشروعة ، وهذا التفريق ، يقوم على المبدأ الكلي وهو : إن جميع الطرق لاكتساب المال التي لا تحصل فيها المنفعة للفرد إلا بخسارة فرد غيره ، غير مشروعة . . وإن الطرق التي يتبادل فيها الأفراد المنفعة فيما بينهم بالعدل والتراضي مشروعة . . هذا المبدأ يبينه قوله تعالى :

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٢٩] .

(١) رواه مسلم في الحدود برقم ٣١٩٧ ، والترمذي برقم ١٣٥٠ ، وأحمد برقم ٧٧٩٧ .

لقد أشارت كلمة لا تأكلوا أموالكم ، ولم يقل الله عز وجل لا تأكلوا أموال غيركم ، لقد أشارت كلمة « لا تأكلوا أموالكم » في الآية إلى حقيقة أساسية ، وهي ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون من أخوة صادقة ، ومشاركة وجدانية حانية ، يجسدها شعور المؤمن الحق أن مال أخيه هو ماله ، من زاوية واحدة ، وهي وجوب الحفاظ عليه ، وصونه من التلف والضياع ، فلأن يمتنع عن أكله بالباطل من باب أولى ، وأن مال أخيه هو ماله ، من زاوية ثانية ، وهي أن المؤمن إذا أكل مال أخيه أضعفه ، وفي إضعافه إضعاف لذاته ، فالمؤمن إذا أكل مال أخيه فكأنما أكل ماله ، لذلك ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ :

« كل المسلم على المسلم حرام ، ماله ودمه وعرضه »^(١) .



أهمية هذه القواعد :

هناك في الدين حقائق ، يجب أن تُعلم بالضرورة ، وهي فرض عين على كل مسلم ، ذكراً كان أو أنثى ، بصرف النظر عن اختصاصه العلمي ، وعمله المهني ، ودوره الاجتماعي ، وحاله النفسي ، فإن لم يعلمها شقي ، وهلك في الدنيا والآخرة ، حقائق يجب أن تعلم بالضرورة . . نضرب على هذا مثلاً ، حينما

(١) رواه مسلم في البر والصلة برقم ٤٦٥٠ ، والترمذي برقم ١٨٥٠ ، وأبو داود في الأدب برقم ٤٢٣٨ ، وابن ماجه في الفتن برقم ٣٩٢٣ ، وأحمد ٧٤٠٢ .

يهبط إنسان من طائرة بالمظلة ، هناك حقائق كثيرة عن المظلة ،
نوع قماشها ، مساحته ، شكله ، لونه ، نوع حبالها ، أطوالها ،
أقطارها ، ألوانها ، وطريقة فتح المظلة ، فقد يجهل الذي
يستخدم المظلة للهبوط من الطائرة نوع قماشها ، ومساحته ،
وشكله ، ولونه ، ونوع حبالها وأطوالها ، وأقطارها ، وألوانها ،
ويهبط سالماً . . أما إذا جهل طريقة فتح المظلة فلا بد من أن يصل
إلى الأرض ميتاً ، طريقة فتح المظلة يجب أن تُعلم بالضرورة لأي
مظلي ، والحلال والحرام جزء من الدين ، وهو من أخطر
أجزائه ، وهو الذي ينبغي أن يُعلم بالضرورة لكل مسلم ، وحاجة
المسلم إلى معرفة الحلال والحرام ، كحاجة المظلي إلى معرفة
طريقة فتح المظلة .



قدم على رسول الله ﷺ ، بعد فتح خيبر الحجاج بن علاط
السلمي ، فأسلم ، وكان غنياً كثير المال ، فقال يا رسول الله : إن
مالي عند امرأتي أم شيبه بمكة ، ومتفرق في تجار مكة ، فأذن
لي يا رسول الله ، أن آتي مكة ، لأخذ مالي ، قبل أن يعلموا
بإسلامي ، عندئذ لا أقدر على أخذ شيء منه ، فأذن له
رسول الله ﷺ ، ثم قال الحجاج يا رسول الله : لا بد من أن أقول
(أي أتقول ، أذكر ما هو خلاف الواقع) حتى أحتال به لأخذ
مالي ، فقال عليه الصلاة والسلام ، كمالاً منه ، ورحمة
بالحجاج : قل ما شئت ، قال الحجاج : فخرجت حتى إذا قدمت

مكة ، وجدت بثنية البيضاء رجالاً من قريش يستمعون الأخبار ،
ويسألون عن رسول الله ﷺ ، وقد بلغهم أنه سار إلى خيبر ، وهي
من أقوى قرى الحجاز ، وهم يتجسسون الأخبار من الركبان ،
وكان بينهم تراهن عظيم على مئة بعير حول من سيغلب ، أهل
خيبر أم رسول الله ، فلما رأوا الحجاج ولم يكونوا علموا
بإسلامه ، قالوا : الحجاج والله عنده الخبر اليقين ؛ يا حجاج ،
إنه قد بلغنا أن القاطع [يعنون رسول الله ﷺ] قد سار إلى خيبر ،
فقال الحجاج : عندي من الخبر ما يسركم ، فاجتمعوا عليه
يقولون إيه يا حجاج ، قال الحجاج : فقلت لهم : لم يلق محمد
وأصحابه قوماً يحسنون القتل مثلهم ، فهزم هزيمة لم يُسمع
بمثلها ، وأسر محمد ، وقالوا لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة ،
فنقتله بين أظهرهم ، بمن كان أصاب من رجالهم ، فانطلق هؤلاء
الرجال فرحين أشد الفرح إلى أهل مكة ، ف قيل لهم قد جاءكم
الخبر ، هذا محمد ، إنما تنتظرون أن يُقدم به عليكم فيقتل بين
أظهركم ، ثم قال لهم الحجاج : أعينوني على غرمائي أريد أن
أقدم فأصيب من غنائم محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى
هناك ، فجمعوا إليّ مالي على أحسن ما يكون ، ففشا ذلك
بمكة ، وأظهر المشركون الفرح والسرور ، وانكسر من كان بمكة
من المسلمين ، وسمع بذلك العباس بن عبد المطلب ، فجعل
لا يستطيع أن يقوم ، من شدة حزنه من هذا الخبر ، ثم بعث
العباس إلى الحجاج غلاماً ليقول له يا حجاج : الله أعلى وأجل
من أن يكون الذي جئت به حقاً ، فقال الحجاج للغلام : اقرأ

على أبي الفضل السلام ، وقل له : ليُخل لي بعض بيوته ، لآتيه بالخبر على ما يسره ، واكتم عني ، فأقبل الغلام فقال : أبشر أبا الفضل ، فوثب العباس فرحاً كأن لم يمسه شيء ، وأخبره بذلك ، فأعتقه العباس رضي الله عنه لوجه الله ، وقال : لله علي عتق عشر رقاب على هذا الخبر السار ، فلما كان الظهر ، جاءه الحجاج ، فناشد العباس أن يكتم عنه ثلاثة أيام ، وقال إني أخشى الطلب ، فإذا مَضَتْ ثلاثُ فأظهر أمرك ، وطالت على العباس تلك الأيام الثلاث ، وبعد مضي هذه الأيام الثلاث عمد العباس رضي الله عنه إلى حُلّة فلبسها ، وتخلق بخلق (أي تطيب بنوع من الطيب) وأخذ بيده قضيباً ، ثم أقبل يخطر حتى أتى مجالس قريش ، وهم يقولون - إذا مر بهم - لا يصيبك إلا الخير يا أبا الفضل ، هذا والله من التجلد بحرّ المصيبة ، قال : كلا والله الذي حلفت به ، لم يصبني إلا خير ، بحمد الله ، أخبرني الحجاج أن خير فتحها الله على يد رسوله ﷺ ، وجرت فيها سهام الله وسهام رسوله ، وتزوج رسول الله ، ﷺ صفية بنت ملكهم ، وإنما قال لكم ذلك ليخلص ماله منكم ، وإلا فهو ممن أسلم ، فرد الله الكآبة التي كانت بالمسلمين ، على المشركين فقال المشركون : ألا يا عباد الله ، انفلت عدو الله [يعنون حجاجاً] أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن ، ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك^(١) .

(١) وقد ذكر هذه القصة ابن سعد في طبقاته .

تتصل هذه القصة ، من زاوية واحدة من زواياها ، بموضوع الحلال والحرام ، ويستنبط منها ثلاث حقائق .

الحقيقة الأولى : تتعلق بسنة من سنن الله في خلقه ، وهي أن الله جل جلاله ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

والحقيقة الثانية : تتعلق بخلق عظيم من أخلاق رسول الله ﷺ ، وهو رحمته بأصحابه ، وحرصه على مصالحهم .

والحقيقة الثالثة : تتعلق بحكم فقهي في المال ، وهو أن حقوق العباد مبنية على المشاححة ، بينما حقوق الله مبنية على المسامحة .



تطبيقاً لقول الله عز وجل : ﴿ وَيَجْعَلُ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] . هذه الشجرة المباركة ، الزيتون ، تعد ثمرتها غذاء ووقاء ودواء ، فقد أهمل الطب الحديث البحث عما في غذاء الإنسان من فوائد وقائية ، وعلاجية ، وغذائية ، لكن في عام ألف وتسعمئة وستة وثمانين ، ظهرت أول دراسة موضوعية عن أثر زيت الزيتون في تخفيض شحوم الدم ، ثم أظهرت دراسة أخرى تبعتها ، أن أمراض شرايين القلب ، واحتشاء العضلة القلبية ، كانت نادرة بل شبه معدومة في حذيرة كريت ، بسبب أن

أهل هذه الجزيرة يأكلون زيت الزيتون بكميات كبيرة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح :

« كلوا الزيت وادهنوا به ، فإنه يخرج من شجرة مباركة »^(١) .

يقول العلماء : زيت الزيتون أسهل أنواع الزيوت هضماً ، وفيه قيمة وقائية وعلاجية وغذائية ، وقد أجمع الأطباء على أن هذا الزيت له تأثير علاجي عجيب ، من هذا التأثير ، أنه يمكن أن نستخدمه ، لخفض الكولسترول ، الضار في الإنسان ، ورفع الكولسترول النافع ، ويستخدم أيضاً ، لخفض الضغط المرتفع ، ويُستخدم أيضاً لمرضى السكر ، ويستخدم لوقاية الشرايين والأوعية من تصلبها ، وفيه مادة تمنع تخثر الدم ، وتقي الشرايين من ترسب المواد الدهنية على جدرانها ، ومن التحليلات الدقيقة أن مئة غرام من زيت الزيتون فيه غرام بروتينات ، وأحد عشر غراماً من الدسم ، وفيه البوتاسيوم ، والكالسيوم ، والمنغنيزيوم ، والفوسفور ، والحديد ، والنحاس ، والكبريت ، وفيه ألياف ، وهو غني بأهم الفيتامينات المتعلقة بتركيب الخلايا ونشاطها ، والمتعلقة بالتناسل وبالعظام ، وهو غذاء للدماغ جيد ، وغذاء للأطفال ، وله تأثير في تفتيت الحصيات ؛ حصيات المرارة والمثاني ، وله أثر ملطفٌ للالتهابات والأمراض الجلدية ، هذا الزيت له أثر طيب ، ونافع حتى في الاستعمال الخارجي ، والنبي

(١) رواه الترمذي في الأطعمة برقم ١٧٧٤ ، وابن ماجه في الأطعمة برقم ٣٣١١ ، وأحمد في مسند المكيين برقم ١٥٤٧٥ وهو صحيح .

عليه الصلاة والسلام ، لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي
يُوحى . فهناك أحاديث كثيرة عن الزيت ، من أبرزها هذا
الحديث :

« كلوا الزيت وادهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة » .

ويكاد بلدنا الطيب بفضل الله تعالى ، أن يصل إلى المرتبة
الأولى في العالم في زراعة شجرة الزيتون .

ختاماً لهذا الموضوع ، أضع بين أيديكم ، الحقيقة التالية ،
يتفوق الإنسان في الدين ، لا بحجم ثقافته الدينية ، ولا بحجم
عواطفه الجياشة ، نحو الإسلام والمسلمين ، ولا بحجم المظاهر
الدينية التي يحيط بها نفسه ، ولكن يتفوق في الدين بمدى
استقامته على منهج ربه ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ ﴾ [الحجرات: ١٣] .

ويتفوق أيضاً ، بحجم عمله الصالح ، الذي يعود نفعه على
المسلمين بخاصة ، وعلى الإنسانية بعامه ، قال تعالى :

﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ [الأنعام: ١٣٢] .

هذه الاستقامة ، وهذا العمل الصالح ، لا يُقبلان عند الله في
الآخرة إلا إذا بُنِيا على معرفة بالله صحيحة ومتينة ، قال تعالى :

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣] .

قيل لأحد العارفين : من هو الولي ، أهو الذي يمشي على وجه الماء ، قال : لا ، قالوا : أهو الذي يطير في الهواء ، قال : لا ، قال : الولي كل الولي ، الذي تجده عند الحرام والحلال « أن يجدك حيث أمرك ، وأن يفتقدك حيث نهاك » .

* * *

الباب الخامس

مكارم الأخلاق

الحب في الله

موضوع المحبة تلخصه هذه الحكاية القصيرة :

« مر حكيم على رجل يبكي على قبر ، فسأله عن سبب بكائه ، فقال : إن لي حبيباً قد مات ، فقال له الحكيم : لقد ظلمت نفسك بحب حبيب يموت ، فلو أحبت حبيباً لا يموت ، لما تعذبت بفراقه » .

المحبة من أخص خصائص الإنسان ، ولكن البطولة ليست في أن تحب ، ولكن البطولة كل البطولة في أن تعرف من ينبغي أن تحب .

في الإنسان عقل يدرك ، وقلب يحب ، وجسم يتحرك ، والإنسان مفطور على حب الكمال ، وحب الجمال ، وحب النوال ، (أي العطاء) .

وحينما يدرك العقل ، من خلال التفكير الدقيق في خلق السماوات والأرض ، أن الكون مسخر للإنسان تسخير تعريف وتكريم .

وحينما ينظر الإنسان في الحوادث التي هي أفعال الله ، فيرى أنها تنطق بالعدل والرحمة والإحسان .

وحينما يفهم الإنسان الفهم القويم للنقل الصحيح ، حيث أخبر الله من خلاله أن الإنسان هو المخلوق الأول ، خلقه في أحسن تقويم ، وكرمه أعظم تكريم ، خلقه لجنة عرضها السماوات والأرض ، وأسبغ عليه نعمه ، ظاهرة وباطنة .

حينما يتفكر الإنسان في خلق الله ، وينظر في أفعال الله ، ويتدبر كلام الله ، يقوده عقله الذي هو أداته لإدراك الحقائق ، وتقوده فطرته التي جبلت على حب من أحسن إليها ، إلى محبة الله ذي الجلال والإكرام ، لذلك يعد أرجح الناس عقلاً أشدهم لله حباً ، وقد ورد أنه « لا إيمان لمن لا محبة له » .

إن الله جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، جعل هذه القلوب أوعية ، فخبرها أوعاها للخير والرشاد ، وشرها أوعاها للغي والفساد ، وسلط عليها الهوى ، لتنال بمخالفته جنة المأوى ، وهياها لأمر عظيم ، وأعدها لجنة ؛ فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، من النعيم المقيم .

واقتضت حكمته ، جل شأنه ، ألاّ تصل النفس إليها إلا من طريق المكاره ، والنصب ، ولا تعبر إليها إلا على جسر ، من المشقة والتعب ، إن عمل الجنة حزن بربوة ، وإن عمل النار سهل بسهولة .

المحبة هي قوت القلوب ، وغذاء الأرواح ، وهي الحياة التي من حرمها فهو في جملة الأموات ، وهي النور الذي من فقدته فهو في بحار الظلمات ، وهي الشفاء الذي من عدمه حلت به الأسقام ، وهي اللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه أنس بن مالك ، يقول :

« ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يلقى في النار »^(١) .

إذا عرف الإنسان ربه أحبه ، وإذا أحبه خطب ودّه ، واستقام على أمره ، وعمل الصالحات ابتغاء وجهه ، عندئذ يجد حلاوة الإيمان ، بعد أن ذاق جحيم الكفران ، يقول الله تعالى ، فيما رواه النبي ، ﷺ ، عن ربه في حديث صحيح :

« لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألتني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه »^(٢) .

المحبة معقد النسبة بين الرب والعبد ، فإنه لا نسبة بين الله والعبد إلا محض العبودية من العبد ، ومحض الربوبية من الرب ،

(١) رواه البخاري ٥٦/١-٥١ ومسلم ٢٣ .

(٢) أخرجه الإمام البخاري .

والمحبة هي معقد هذه النسبة ، وهي روح الإيمان والأعمال ، وقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة ، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب ، فالمرء مع من أحب ، والمحبة هي الميل الدائم بالقلب الهائم ، وإيثار المحبوب على جميع المصحوب ، وموافقة المحبوب في المشهد والمغيب ، وهو استكثار القليل من التقصير ، واستقلال الكثير من الطاعة ، وهي أن تهب كلك لمن أحبيت ، فلا يبقى لك منه شيء ، وهي أن تهب إرادتك ، وعزمك ، وأفعالك ، ونفسك ، ومالك ، ووقتك لمن تحب ، وتجعلها حبساً في مرضاته ، ومحابته .

وقد جرت مسألة في المحبة ، بمكة المكرمة ، أيام الموسم ، فتكلم الشيوخ جميعاً وكان فيهم الجنيد ، كان الجنيد أصغرهم سناً ، قالوا : هاتِ ما عندك يا جنيد ، فقال : عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، فإذا تكلم فبالله ، وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فهو مع الله ، فهو بالله ، والله ، ومع الله .

آية كريمة في القرآن الكريم تؤكد هذه المحبة ، قال تعالى :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِۦٓ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوَمَةً ۖ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝٥٤ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

الذي أجمع عليه العارفون ، أن الله ، جل جلاله ، يحبهم ،

وأنهم يحبونه ، فمحبة الرب لرسله وأنبيائه ولأوليائه صفة زائدة على رحمته ، وإحسانه ، وعطائه ، بل إن رحمته ، وإحسانه ، وعطاءه أثر لمحبتة ، وموجب لها ، فإنه لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وإحسانه ، وبرّه أتم نصيب ، ومحبة العبد لربه فوق كل محبة ، ولانسبة بينها وبين سائر المحاب ، وهي حقيقة (لا إله إلا الله) ، ومن علامات المحبين لربهم أنهم أذلة أعزة ، أذلة على المؤمنين ، أي رحماء بهم ، مشفقون عليهم ، فهم للمؤمنين كالوالد لولده ، أعزة على الكافرين ، أي هم أشداء عليهم ، لا يداهنونهم ، ولا يرهبونهم ، والعلامة الثانية أنهم يجاهدون في سبيل الله ، يجاهدون أنفسهم ويجاهدون بالسنتهم ، وبأموالهم ، وبأيديهم ، والعلامة الثالثة أنهم لا تأخذهم بالله لومة لائم ، لأن الله معهم ، وإذا كان الله معهم ، فمن يستطيع أن يكون عليهم ؟! قال تعالى :

﴿ يَكْتُبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

آية ثانية تؤكد هذه المحبة ، قال تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

لقد أخبر الله تعالى ، من خلال هذه الآية الكريمة ، أنه من أحب من دون الله شيئاً ، كما ينبغي أن يحب الله ، فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً ، إن هذا الندّ ندّ في المحبة والولاء ، لا ند في الخلق والإنشاء ، بل إن أكثر أهل الأرض ، اتخذوا أنداداً من دون الله في الحب ، والتعظيم ، والذين آمنوا أشد حباً لله ، أي إن المؤمنين أشد حباً لله من حب المشركين لأندادهم ، التي يحبونها ويعظمونها ، ولو ترى هؤلاء المشركين في المحبة والتعظيم لأندادهم وآلهتهم ، لو تراهم ، وهم في النار ، وأندادهم معهم ، يقولون :

﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ تُسَوِّىكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ [الشعراء : ٩٦ - ٩٨] .

بل إن هؤلاء المشركين في المحبة والتعظيم ، يحبون أندادهم وآلهتهم حباً ، من جنس حبّ المؤمنين لله ، وهو محبة ممزوجة بذل ، وتعظيم ، وتقديس يحملهم على عبادتهم بالدعاء ، وعلى طاعتهم فيما يشرعون لهم .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

[الشورى : ٢١] .

لما كثر المدعون للمحبة ، طولبوا بإقامة البيعة ، على صحة الدعوى ، فلو يُعطى الناس بدعواهم ، لادعى الخلي حرقه الشجي ، فقليل لا تقبل هذه الدعوى إلا بيعة ، قال تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

فتأخر الخلق كلهم ، وثبت أتباع الحبيب في أفعاله ، وأقواله ، وأخلاقه .

ثم طولبوا بتزكية البيئة ، إذ إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم ، فهلموا إلى بيعة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآثٍ لَهُمْ الْجَنَّةِ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] .

فلما رأوا عظمة الثمن ، وجلال المشتري ، ورأوا أن من أعظم الغبن أن يبيعوا أنفسهم وأموالهم لغير الله ، بثمن بخس ، فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي من غير ثبوت خيار ، فلما تمّ العقد ، وسلموا المبيع ، قيل لهم : مذ صارت نفوسكم وأموالكم لنا ، رددناها عليكم أوفر ما كانت ، وأضعافها معها .

إذا غرست شجرة المحبة بالقلب ، وسقيت بماء الإخلاص ، ومتابعة الحبيب ، أثمرت أنواع الثمار ، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها ، أصلها ثابت في قرار القلب ، وفرعها في السماء .

من الأسباب الجالبة للمحبة ، والموجبة لها ، قراءة القرآن

بالتفهم والتدبر لمعانيه ، وما أريد به ، والتقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض ، فإنها توصل إلى درجة المحبوبة بعد المحبة ، ودوام ذكر الله على كل حال ، باللسان ، والقلب ، فنصيب العبد من المحبوبة على قدر نصيبه من الذكر ، وإيثار محاب الله على محاب العبد عند غلبات الهوى ، والتسليم إلى محابّه وإن صعب المرتقى .

ومن الأسباب الجالبة للمحبة ، مطالعة القلب لأسماء الله ، وصفاته ، ومعرفتها ، ومشاهدة آثارها ، والتقلب في رياض هذه المعرفة ، فمن عرف الله بأسمائه ، وصفاته أحبه لا محالة ، ومشاهدة برّه ، وإحسانه ، وآلائه ، ونعمه الظاهرة والباطنة ، فإنها داعية إلى المحبة ، والخلوة مع الله ، ومناجاته ، وتلاوة كلامه ، والتأدب بأدب العبودية بين يديه ، ومجالسة المحبين الصادقين ، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم ، كما تنتقى أطايب الثمر ، ومباعدة كل سبب يحول بين القلب والله عز وجل .

إن أقصر طريق ، وأوسع باب إلى أن يكون العبد محبوباً عند الله ، أن يكون على شاكلة الذين يحبهم الله ، جل جلاله ، وأن يبتعد عن الصفات التي لا يحبها الله في عبادته .

فالله يحب الصابرين ، والله يحب التوايين والله يحب المتطهرين والله يحب المحسنين وإن الله يحب المتوكلين وإن الله يحب المقسطين ويحب المتقين .

والله لا يحب الظالمين ، ولا يحب المعتدين ولا يحب

المفسدين ولا يحب المسرفين ولا يحب المستكبرين ولا يحب
الفرحين (أي في الدنيا) ولا يحب الكافرين ولا يحب الخائنين
ولا يحب من كان مختالاً فخوراً والسنة المطهرة طافحة بالنماذج
الإيمانية التي يحبها الله .

فالله يحب إغاثة اللفهان ، وإتقان العمل ، والعدل بين
الأولاد ، ولو في القبل ، ويحب أن يرى عبده تعباً في طلب
الحلال ، ويحب حفظ الودّ القديم ، ويحب الرفق في الأمر كله ،
ويحب سمح البيع ، سمح الشراء ، ويحب السهل الطلق ،
ويحب الشاب التائب ، ويحب المؤمن المحترف ، ويحب الفقير
المتعفف ، ويحب الغيور ، ويحب القلب الحزين .

وإن الله يبغض البخيل ، والسائل الملحف ، والغني الظلوم ،
والفاحش البذيء ، والوسخ ، والشعث ، ويبغض البذخين ،
الفرحين ، المرحين ، ويبغض كل عالم بالدنيا ، جاهل بالآخرة ،
ولا يحب الطلاق ، ولا العقوق ، ولا يحب كل فاحش متفحش .

وأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل ، وإدخال السرور على
المسلم ، والحب في الله ، والبغض في الله ، وحفظ اللسان ،
والصلاة لوقتها ، وإطعام الطعام ، وأحب البيوت إلى الله بيت فيه
يتيم مكرم ، وأحب البلاد إلى الله مساجدها ، وأحب الحديث
إلى الله أصدقه ، وأحب الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيادي ،
وأحب العباد إلى الله أنفعهم لعياله ، وأحسنهم خلقاً ، وأبغض
الرجال إلى الله الألد الخصم ، ومن كان ثوبه خيراً من عمله ،
وأبغض الخليقة إلى الله الكذابون .

وقد ورد عن رسول الله ﷺ :

« ما من شيء أحب إلى الله تعالى من شاب تائب ، وما من شيء أبغض إلى الله من شيخ مقيم على معاصيه » .

وقد ورد : أحب ثلاثاً وحيي لثلاث أشد ؛ أحب الطائعين وحيي للشاب الطائع أشد ، أحب الكرماء وحيي للفقير الكريم أشد ، وأحب المتواضعين وحيي للغني المتواضع أشد ، وأبغض ثلاثاً وبغضي لثلاث أشد ؛ أبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد ، وأبغض البخلاء وبغضي للغني البخيل أشد ، وأبغض المتكبرين وبغضي للفقير المتكبر أشد .

هناك موضوع بالغ الدقة والخطورة ، هناك فرق كبير وخطير ، بين الحب في الله وبين الحب مع الله ، فالحب في الله هو من كمال الإيمان ، بينما الحب مع الله هو عين الشرك ، إذا تمكنت محبة الله في قلب العبد أوجبت هذه المحبة أن يحب العبد ما يحب الرب ، عندئذ يحب العبد رسل الله جميعاً ، وأنبياءه جميعاً ، وأوليائه ، والدعاة إليه ، وعامة المؤمنين ، ويبغض تبعاً لذلك ما يبغض الله عز وجل من العصاة ، والفجار ، والكفار .

وعلاوة الحب في الله ، والبغض في الله ، أن لا ينقلب البغض لبغض الله حباً إذا أحسن إليك ، وقضى حوائجك ، وأن لا ينقلب الحب لحبيب الله بغضاً إذا وصل إليك من جهته

ما تكرهه ، إما خطأ ، أو عمداً ، مطيعاً لله فيه ، أو متأولاً ، أو مجتهداً ، أو باغياً .

الدين كله يدور على أربع قواعد ، حب وبغض ، ويترتب عليهما فعل وترك ، فمن كان حبه ، وبغضه ، وفعله ، وتركه ، لله فقد استكمل الإيمان ، هذا هو الحب في الله ، وأما الحب مع الله ؛ فنوعان ، نوع يقدر في أصل التوحيد ، وهو شرك لا محالة ، ونوع يقدر في كمال الإخلاص ، ولا يخرج من الإسلام .

النوع الأول : حب كما يحب المشركون أوثانهم ، وأصنامهم وآلهتهم التي يعبدونها من دون الله ، محبة تأله وموالاة ، يتبعها خوف ورجاء ، ودعاء ، وهذه المحبة هي عين الشرك الذي لا يغفره الله .

والنوع الثاني : محبة ما زينه الله تعالى في النفوس من النساء ، والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب الفضة ، والخيل المسومة ، والأنعام ، والحرث ، فيحبها محبة شهوة ، كالجائع للطعام ، والظمان للماء ، هذه المحبة ثلاثة أنواع ، إن أحبها الله توصلاً إليه بها ، واستعانةً بها على طاعته ، ومرضاته أثيب عليها ، يقول أحد الأصحاب الكرام : حبذا المال ، أصون به عرضي ، وأتقرب به إلى ربي .

إن أحب هذه الأشياء توصلاً بها إلى الله وابتغاء مرضاته أثيب عليها ، وإن أحبها لموافقة طبعه وهواه ، ولم يؤثرها على

ما يحبه الله ويرضاه ، بل نالها بحكم الميل الطبيعي ، كانت من المباحات ، ولم يعاقب عليها ، وإن أحبها وسعى جاهداً لتحصيلها ، والظفر بها ، وقدمها على ما يحب الله ، ويرضاه ، كان ظالماً لنفسه متبعاً لهواه ، فالأولى محبة السابقين ، والثانية محبة المقتصدين ، والثالثة محبة الظالمين .

لو بطلت مسألة المحبة ، لبطلت جميع مقامات الإيمان ، والإحسان ولتعطلت منازل السير إلى الله ، فإنها روح كل مقام ، وكل منزلة وكل عمل ، وإذا خلا منها العمل صار كال ميت لا روح فيه ، ونسبتها إلى الأعمال ، كنسبة الإخلاص إليها ، بل هي حقيقة الإخلاص ، بل هي الإسلام نفسه ، إذ إنه الاستسلام بالذل ، والحب ، والطاعة لله ، فمن لا محبة له لا إسلام له ألبتة ، بل هي حقيقة شهادة أن (لا إله إلا الله) ، وإن الإله الذي يؤلهه العباد حباً ، وذلاً ، وخوفاً ، وتذلاً له ، والعقول تحكم بوجوب تقديم محبته على محبة النفس ، والأهل ، والمال ، والولد ، فالعقل ، والفطرة ، والشرع ، والنظر كلها ، تدعو إلى محبته ، سبحانه ، بل إلى توحيده في المحبة ، وإنما جاءت الرسل بتقرير ما في الفطر والعقول ، إن الله لا يحب القلب المشترك ولا العمل المشترك ، العمل المشترك لا يقبله ، والقلب المشترك لا يُقبل عليه .

قال بعض العلماء : عشرة أشياء ضائعة ، لا ينتفع بها ، قلب فارغ من محبة الله ، والشوق إليه ، والأنس به ، ومحبة لا تنقيد

برضاء الله تعالى وامثال أمره ، وعلم لايعمل به ، وعمل
 لا إخلاص فيه ولا اقتداء ، وبدن معطل من طاعة الله ، وخدمة
 عباده ، وفكر يجول فيما لا ينفع ، ومال لا ينفق منه ، فلا يستمتع
 به جامعه في الدنيا ، ولا يقدمه أمامه في الآخرة ، ووقت معطل
 عن اغتنام برّ وقربة إلى الله عز وجل ، وخدمة من لا تقربك خدمته
 إلى الله ، ولا تعود عليك بصلاح دنياك ، وخوفك ورجاؤك لمن
 ناصيته بيد الله ، وهو أسير في قبضته ، ولا يملك ضراً ، ولا
 نفعاً ، ولا موتاً ، ولا حياة ، ولا نشوراً .



المعرفة تقود إلى الحب ، والحب يقود إلى الطاعة ، والطاعة
 ثمن الاستخلاف ، والتمكين ، والنصر العزيز المؤزر .

وقد ورد في تاريخ الطبري ، الجزء السادس ، في الصفحة
 الواحدة بعد الخمسمئة ، وفي كتاب البداية والنهاية ، الجزء
 التاسع ، في الصفحة الواحدة والأربعين بعد المئة .

ورد أن قتيبة بن مسلم ، رحمه الله تعالى ، توغل في بلاد
 المشرق فاتحاً ، وبعد أن فتح كاشغر ، ودخل غرب الصين ،
 كتب إليه إمبراطور الصين ؛ أن ابعث إلينا رجلاً من أشراف من
 معكم ، يخبرنا عنكم ، ونسأله عن دينكم ، فانتخب قتيبة من
 عسكره ، اثني عشر رجلاً ، لهم جمال ، وأجسام ، وألسن ،

وشعور ، وبأس ، فكلّمهم قتيبة وفاطنهم ، (أي امتحن ذكاءهم)
فرأى عقولاً ، وجمالاً فأمر لهم بعدة حسنة ، من السلاح ،
والمتاع الجيد ، وقد أمر عليهم الهيرة بن المشمرج ، وكان
مفوّهاً ، طليق اللسان ، وقال لهم : سيروا على بركة الله ، وبالله
التوفيق ، وإذا دخلتم على ملكهم فأعلموه أنني قد حلفت ؛ أن
لا أنصرف حتى أطأ بلادهم ، وأجبي خراجهم ، فसारوا ، وعليهم
الهيرة ، فلما قدموا إليه ، أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم ،
فدخلوا عليه ، وقد لبسوا ثياباً بياضاً ، تحتها الغلائل ، ولبسوا
النعال ، والأردية ، وتطيّبوا ، دخلوا عليه ، وعنده عظماء أهل
مملكته ، فجلسوا فلم يكلمهم الملك ، ولا أحد من جلسائه ،
فنهضوا وانصرفوا ، وقال الملك لجلسائه : كيف رأيتم هؤلاء ؟
قالوا : رأينا قوماً أشبه بالنساء ، فلما كان الغد ، أرسل إليهم ،
فلبسوا الوشي ، وعمائم الخز ، والمطارف ، وغدوا عليه . . .
فلما دخلوا ، قيل لهم : ارجعوا ، فقال لأصحابه : كيف رأيتم
هذه الهيئة ؟ هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال من تلك الأولى ، فلما
كان اليوم الثالث ، أرسل إليهم ، فشدوا عليهم سلاحهم ، ولبسوا
البيض والمغافر ، وتقلدوا السيوف والرماح ، وتنكبوا القسي ،
وركبوا خيولهم ، وغدوا . . . ف قيل لهم : ارجعوا قبل أن يدخلوا
عليه ، لما دخل قلبهم من الخوف ، فقال الملك لأصحابه :
كيف ترونهم ؟ قالوا : ما رأينا مثل هؤلاء قط ، فلما أمسى ،
أرسل إليهم الملك ؛ أن ابعثوا إلي زعيمكم ، وأفضلكم رجلاً ،
فبعثوا إليه الهيرة ، فقال الملك له حين دخل عليه : قد رأيتم
عظيم ملكي ، وأنه ليس أحد يمنعكم مني ، وأنتم في بلادتي

بمنزلة البيضة في كفي ، وأنا سائلك عن أمر ، فإن لم تصدقني قتلتكم جميعاً ، قال : سل ، قال : لِمَ صنعتُم ما صنعتُم من الزي في اليوم الأول والثاني والثالث ؟ فقال الهبيرة : أما زينا الأول ، فلباسنا في أهلنا ، وأما زينا في اليوم الثاني ، فإذا أتينا أمراءنا ، وأما زينا في اليوم الثالث ، فزينا لعدونا ، فقال الملك : ما أحسن ما دبرتم دهركم ! ، فانصرفوا إلى صاحبكم قتيبة ، فقولوا له : لينصرف ، فإني عرفت حرصه ، وقلة أصحابه ، وإلا أبعث عليكم من يهلككم ويهلكه ، فقال له هبيرة : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ، وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها ، وغزاك في عقر دارك ، وأما تخويفك إيانا بالقتل ، فإن لنا أجالاً ، إذا حضرت فأكرمها القتل ، فلسنا نكرهه ، ولا نخافه ، قال : فما الذي يرضي صاحبك ؟ قال : إنه حلف أن لا ينصرف ، حتى يطأ أرضكم ، قال : فإننا نخرجه من يمينه ، فنبعث إليه بتراب من أرضنا فيطؤه ، ونبعث إليه بالمال الذي يطلب نظير أمننا ، وحمائتنا ، وهكذا نزل ملك الصين عند مطلب قتيبة ، من دون أن يخوض حرباً ، رهبةً وخوفاً ، قال تعالى :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ
وَلَيُعْبَدَنَّهُمْ مِن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمَنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ
ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥] .

وقد يدور في الأذهان سؤال ، لا يخفى على القارئ ، أجاب عنه القرآن ، فقال تعالى :

﴿ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴾ [مريم : ٥٩] .

وقد يقول قائل : ما العمل ؟ ويجب القرآن الكريم :
﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدًا وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ١٩] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] .
﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ نَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرَكُمْ وَيُثَبِّتَ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] .

* * *

الإنسانية

في موقعة بدر الكبرى ، انتصر المسلمون نصراً مؤزراً ، عزيزاً
في أول مواجهة جماعية مع قوى الكفر والشرك ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

[آل عمران : ١٢٣] .

وقال تعالى :

﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾

[الحج : ٣٩] .

لقد ضمن القرآن الكريم الجهاد معنىً إنسانياً ، نبيلاً ،
وفريداً ، وحدد له مقاصده العليا ، منزهةً عن الهوى ، منزهة عن
الأغراض المادية العاجلة ، والمطامح الشخصية ، والعنصرية ،
من شهوة العلو في الأرض ، أو التوسع فيها ، لتكون أمة هي
أربى من أمة ، قال تعالى :

﴿ وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٣] .

وإن الإسلام لم يجعل الجهاد مفروضاً ، في أعلى مراتب الفرضية ، وأعظمها مثوبة ، من أجل الدفاع عن الوجود ، أو الحفاظ على مقوماته ، فحسب ؛ بل أولاه عناية فائقة ، إذ جعله سنداً مكيناً لدعوته ، التي تسعى إلى نشر رسالة السماء إلى الأرض ، لتحقيق خلافة الإنسان فيها ، عن طريق التمسك بمبادئ الحق ، والخير السامية ، وقيم العدل ، والإحسان الرفيعة ، فجعله الله جل جلاله خالصاً ومخلصاً ، لوجهه الكريم تعالى ، وابتغاء مرضاته ، ومرضاته لا تتم إلا إذا سادت تعاليمه ، وعلت في الأرض مثله ، وحتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، ولا أدل على صحة هذه المبادئ ، وتلك المفهومات ، من هذه السعادة التي تملأ جوانح الإنسان ، حينما يكتشف سر وجوده ، وجوهر رسالته ، وينطلق في الطريق الكبير الذي خلق من أجله .

الإنسان في نظر الإسلام مخلوق متميز ، مكرم ، ميزه الله ، وكرمه ، وفضله على كثير من خلقه .

ومن مظاهر هذا التكريم استخلافه في الأرض ، قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] .

لقد كرمه الله تعالى بالخلافة على الأرض ، وهياً لها بالعقل ، والعلم ، والإرادة ، والتكليف .

ومن مظاهر هذا التكريم ، أنه خلقه في أحسن تقويم ، وصوره فأحسن صوره ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يكرر هذا الدعاء في سجوده ، كان يدعو ويقول :

« سجد وجهي للذي خلقه ، وصوره ، وشق سمعه ، وبصره ، فبارك الله أحسن الخالقين »^(١) .

ومن مظاهر هذا التكريم أن الله سبحانه وتعالى نفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته إكراماً له ، قال تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٧١-٧٢] .

وهذه النفخة ليست خاصة بآدم أبي البشر ، فإن بنيه ونسله قد نالهم حظ منها .

ومن مظاهر هذا التكريم الإلهي للإنسان ، أنه سخر له ما في السماوات ، وما في الأرض ، تسخير تعريف وتكريم ، قال تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٣] .

(١) أخرجه الترمذي والنسائي وأبو داود ، وهو صحيح .

وفي آية أخرى :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [لقمان : ٢٠] .

ومعنى هذا التسخير أن الطاقات الكونية كلها مهيأة ، ومبدولة للإنسان ، لا يستعصي منها شيء عليه ، وأن الإنسان هو واسطة العقد في هذا العالم ، وإن صغر حجمه بالنسبة إلى المكان ، أو قصر عمره بالنسبة إلى الزمان ، فلا يجوز لهذا الإنسان أن يؤلّه شيئاً في هذا العالم ، أو أن يتعبد له رغباً ، أو رهباً ، والذين عبدوا بعض ما في الكون ، قلبوا الحقائق ، فحولوا الإنسان من سيد ، سخر له الكون ، إلى عبد ذليل ، يسجد لنجم ، أو شجرة ، أو بقرة ، أو حجر ، أو غير ذلك .

ومن دلائل تكريم الله للإنسان أنه فتح له باب التقرب إليه أنى شاء ومتى شاء ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

يدعوه فيجده أقرب إليه من حبل الوريد ، دون وسيط ، أو شفيع ، قال تعالى :

﴿ فَإِنَّمَا تَوَلَّوْا فِثْمَ وَجْهِ اللَّهِ إِنَّا اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ١١٥] .

وليس هذا لخاصة الأولياء ، والصالحين ، دون العصاة
المذنبين ، قال تعالى :

﴿ قُلْ يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

ومن تكريم الإسلام للإنسان ، أنه اعترف بكيانه كله ،
جسماً ، ونفساً ، وعقلاً ، وقلباً ، ووجداناً ، وإرادةً .

لهذا أمره بالسعي في الأرض ، والمشي في مناكبها ، والأكل
من طيباتها ، والاستمتاع بزيينة الله التي أخرج لعباده ، وحثه على
النظافة ، والتجمل ، والاعتدال ، ونهاه عن المسكرات ،
والمفترتات ، وكل ما يضره تناولهُ وفاءً بحق جسده .

وأمره بعبادة الله وحده ، والتقرب إليه ، بأنواع الطاعات ، من
صلاة ، وصيام ، وصدقة ، وزكاة ، وحج ، وعمرة ، وذكر ،
ودعاء ، وإنابة ، وتوكل ، وخوف ، ورجاء ، وبر ، وإحسان ،
وغير ذلك من أنواع العبادات ، وفاءً بحق نفسه .

وأمره بالنظر ، والتفكر في ملكوت السماوات والأرض ، وما
خلق الله من شيء ، وفي مصاير الأمم ، وسنن الله في
المجتمعات ، كما أمره بطلب العلم ، والتماس الحكمة ، وأنكر
عليه الجمود ، وتقليد الآباء ، والكبراء ؛ كل ذلك وفاءً بحق
عقله .

ولفته إلى جمال الكون ، بأرضه ، وسمائه ، ونباته ،
وحيوانه ، وما زانه الله به من الحسن ، والبهجة ، ليشبع حاسته

الجمالية ، في نفسه ، وليشعره في أعماقه بعظمة ربه الذي أحسن كل شيء خلقه ، وذلك رعاية لجانب العاطفة ، والوجدان فيه .
لقد اعترف به ، بكيانه كله ، جسماً ، ونفساً ، وعقلاً ، وعاطفة .

وقبل أن تسمع أذن الدنيا ، عن حقوق الإنسان ، لاثني عشر قرناً ، أو تزيد ، ويوم كان العالم كله ، لا ينظر إلى الإنسان ، إلا من جهة ما عليه من الواجبات ، يُطالب بأدائها ، وإلا كان عليه من العقاب ما يستحق ، جاء الإسلام ليقرر جهرة ، أن للإنسان حقوقاً ، ينبغي أن تُرعى ، كما أن عليه واجبات ، يجب أن تؤدي ، وكما أنه يُسأل عما عليه ، يجب أن يعطى ماله ، فكل واجب يقابله حق ، كما أن كل حق يقابله واجب .

ومن هذه الحقوق التي أعلنها الإسلام جهرة ، قبل خمسة عشر قرناً ، حق الحياة وحق الكرامة الإنسانية وحق التفكير وحق الدين وحق الاعتقاد وحق التعبير وحق التعلم وحق التملك وحق الكفاية وحق الأمن من الخوف .

لقد قدس الإسلام حق الحياة ، وحماه بالتربية والتوجيه ، وبالتشريع والقضاء ، وبكل المؤيدات النفسية ، والفكرية ، والاجتماعية ، وعد الحياة هبة من الله تعالى ، لا يجوز لأحد كائناً من كان ، أن يسلبها منه ، فالإنسان بنيان الله ، وملعون من هدم بنيان الله .

وقد أنكر الإسلام على أهل الجاهلية ، قتلهم أولادهم سفهاً
بغير علم ، قال تعالى :

﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾﴾ [التكوير : ٨ - ٩] .

ولم يفرق الإسلام في حق الحياة بين أبيض وأسود ، ولا بين
شريف ومشروف ، ولا بين حر وعبد ، ولا بين رجل وامرأة ،
ولا بين كبير وصغير ، حتى الجنين في بطن أمه ، له حرمة ،
لا يجوز المساس بها ، ومن هنا جاء تحريم الإجهاض ، حتى
الجنين الذي ينشأ من طريق حرام ، لا يجوز لأمه ، ولا لغيرها أن
تسقطه ، لأنه نفس بريئة ، لا يحل الاعتداء عليها ، فلا تزر وازرة
وزر أخرى ، لذلك شرع القصاص ، صوناً لحياة كل الأطراف ،
وشرعت الدية والكفارة في القتل الخطأ .

وقد حمى الإسلام حياة الحيوان أيضاً ، إن لم يكن منه أذى ،
وفي الحديث الصحيح :

« أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت ، فلا هي
أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض »^(١) .

وأما حق الكرامة وحماية العرض ، فقد أكد الإسلام حرمة
العرض والكرامة للإنسان مع حرمة الدماء والأموال ، حتى إن
النبي ، ﷺ ، أعلن ذلك في حجة الوداع ، أمام المجموع
المحتشدة في البلد الحرام ، والشهر الحرام ، واليوم الحرام ،

(١) متفق عليه .

فقال عليه الصلاة والسلام :

« إن الله حَرَّمَ عليكم دماءكم وأعراضكم وأموالكم »^(١) .

فلا يجوز أن يُؤذى إنسان في حضرته ، ولا أن يهان في غيبته ، سواء أكان هذا الإيذاء للجسم بالفعل ، أم للنفس بالقول ، فربما كان جرح القلب بالكلام ، أشد من جرح الأبدان بالسياط ، أو بالسنان .

لقد حرم الإسلام أشد التحريم ، أن يُضرب إنسان بغير حق ، وأن يُجلد ظهره بغير حد ، وأنذر باللعنة من ضرب إنساناً ظلماً ، ومن شهدته يضرب ، ولم يدفع عنه .

كما حرم الإسلام الإيذاء الأدبي للإنسان ، حرم الهمز ، وحرَم اللمز ، والتناذب بالألقاب ، والسخرية ، والغيبة ، وسوء الظن بالناس ، وكفل الإسلام صون كرامة الإنسان ، بعد مماته ، ومن هنا جاء الأمر بغسل الميت ، وتكفينه ، ودفنه ، والنهي عن كسر عظمه ، أو الاعتداء عليه ، أو على جثته ، وقد جاء في الحديث النبوي :

« كسر عظم الميت ككسره حياً »^(٢) .

وكما حمى الإسلام جسم الميت ، بعد الموت ، حمى عرضه ، وسمعته ، لئلا تلوّكها الأفواه ، فقال عليه الصلاة والسلام :

(١) متفق عليه .

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه وغيرهما وهو صحيح .

« لا تذكروا هلكاكم إلا بخير » (١) .

وأما حق الكفاية التامة ، فمن حق كل إنسان أن تُهيأ له كفايته التامة من العيش ، بحيث تتوافر له الحاجات الأساسية للمعيشة ؛ من مأكّل ، وملبس ، ومسكن ، وعلاج .

والأصل أن يكون للإنسان دخل كاف ، يحقق كفايته منه ، عن طريق مشروع ؛ من زراعة ، أو تجارة ، أو صناعة ، أو وظيفة ، أو حرفة ، فإن لم يكن للإنسان دخل يكفيه ، كان على أقاربه الموسرين ، أن يحملوه لأنه جزء منهم ، قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَهِدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٧٥] .

فإن لم يكن له أقارب موسرون ، يستطيعون حمله ، وجبت كفايته من الزكاة ، التي فرضها الله على المسلمين ، تؤخذ من أغنيائهم ، وترد على فقرائهم ، والزكاة فرضت لتحقيق تمام الكفاية للإنسان ، وذكر الفقهاء أن الزواج لمن لا زوجة له ، من تمام الكفاية ، وأن آلات الحرفة من تمام الكفاية ، وأن كتب العلم من تمام الكفاية ، وهذه الكفاية التامة تجب للإنسان الفقير ، تجب له ، ولأسرته مدة عام بأكمله ، على مذهب ، ومدة العمر كله ، على مذهب آخر ، بحيث يغدو آخذ الزكاة

(١) رواه النسائي عن عائشة وهو صحيح .

دافعاً للزكاة ، يقول عمر عملاق الإسلام ، رضي الله عنه : « إذا أعطيتكم فأغنوا » .

من ثمرات الإنسانية في الإسلام مبدأ الإخاء البشري ، الذي نادى به الإسلام ، وأساس هذا المبدأ ، أن البشر جميعاً أبناء رجل واحد ، وامرأة واحدة ، ضمتهم هذه البنوة الواحدة المشتركة ، والرحم الواصلة ، قال تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

[النساء : ١] .

وربما فهمت كلمة الأرحام في هذه الآية ، بالمعنى الإنساني الواسع ، لتتسق مع بداية الخطاب ، وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن زيد بن أرقم رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان يدعو دبر كل صلاة ويقول :

« اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أنك الله وحدك ، لا شريك لك ، اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك ، اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة » .

ويزداد هذا الإخاء توثقاً إذا أضيف إليه عنصر الإيمان ، قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

[الحجرات : ١٠] .

فالمسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يسلمه ، ولا يحقره ، ولا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه ، لقد غسل الإسلام أرجاس الجاهلية ، وطهرها من الغل ، والحسد ، ونقاها من الأنانية ، والشح ، والبخل ، محا منها فوارق الجنس ، واللون ، والقبيلة ، والطبقة .

ومن ثمرات الإنسانية في الإسلام مبدأ المساواة الإنسانية ، أساس هذا المبدأ ، أن الإسلام يحترم الإنسان ، ويكرمه من حيث هو إنسان ليس غير ، الإنسان من أية سلالة ، ومن أي لون ، من غير تفرقة بين عنصر وعنصر ، وبين قوم وقوم ، وبين لون ولون ، يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثٰى وَجَعَلْنٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوْٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقٰكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيْمٌ خَبِيْرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وقد خطب النبي ، ﷺ ، في حجة الوداع ، وقال في معنى هذه الآية :

« يا أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا

لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر ، إلا بالتقوى ، إن
أكرمكم عند الله أتقاكم»^(١) .

* * *

لقد قدم جبلة بن الأيهم ، أحد ملوك الغساسنة ، على سيدنا
عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، معلناً إسلامه ، وقد رحب به
عمر أشد الترحيب ، وأنزله منزلته ، وفيما جبلة بن الأيهم ، هذا
الملك الغساني ، يطوف حول الكعبة ، داس بدوي من فزارة ،
خطأً على طرف ردائه ، فأزاحه عن كتفه ، فالتفت جبلة إليه ،
وضربه ضربةً هشمت أنفه ، فما كان من هذا البدوي ، إلا أن
اتجه إلى عمر بن الخطاب ، ليشكو جبلة ، فاستدعى عمر جبلة
وقال له :

يا بن أيهم ، جاءني هذا الصباح ،
مشهد يبعث في النفس المرارة ،
بدوي من فزارة بدماءٍ تتظلم ،
بجراح تتكلم ،
مقلّة غارت ،
وأنف قد تهشّم ،

(١) رواه البيهقي عن جابر ، وابن النجار عن أبي سعيد وهو صحيح . انظر كنز
العمال (٣/٩٣ برقم ٥٦٥٢ و ٥٦٥٥) .

وسألناه ،

فألقي فادح الوزر عليك ،

بيديك ،

أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح ؟

قال جبلة : لست ممن ينكر أو يكتم شيئاً ،

أنا أدبت الفتى أدركت حقي بيدي .

قال عمر : أي حق يا بن أيهم ،

عند غيري يقهر المستضعف العافي ويظلم ،

عند غيري جبهة بالاثم بالباطل تلطم ،

نزوات الجاهلية ،

ورياح العنجهية ،

قد دفنّاها ،

أقمنا فوقها صرحاً جديداً ،

وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيداً .

يا جبلة :

أرض الفتى ،

لابد من إرضائه ،

ما زال ظفرك عالقاً بدمائه ،

أو يهشمن الآن أنفك ،

وتنال ما فعلته كفك .

فقال جبلة :

كيف ذاك يا أمير المؤمنين ،

هو سوقة وأنا صاحب تاج ،

كيف ترضى أن يخزّ النجم أرضاً ،

كان وهماً ما جرى في خلدي ،

أنني عندك أقوى وأعزّ ،

أنا مرتدّ إذا أكرهتني .

فقال عمر :

عق المرتد بالسيف تحز ،

عالم نبنيه ،

كل صدع فيه ،

بشبا السيف يداوى ،

وأعز الناس بالعبد بالصلوك تساوى .

لقد ارتد جبلة عن الإسلام ، وأخذته العزة بالإثم ، وأبى أن يخضع لحكم الله ، وتسأل في جنح الظلام من المدينة مُتَّجِهاً نحو الشمال ، نحو أعداء المسلمين ، لينضم إليهم ، ويمضي عمره بالمعاصي والآثام ، وحينما دنا أجله ، تقطع قلبه ندماً ، على ما فعل ، فقد باع آخرته بدينياه ، وقال بعض الأبيات :

يا ليت أُمي لم تلدني وليتني رجعت إلى الأمر الذي قاله عمرُ
ويا ليتني أرعى الشياه بقفرة وكنت أسيراً في ربيعة أو مضرُ
ويا ليت لي بالشام أدنى معيشة أجالس قومي ذاهب السمع والبصرُ

أما جبلة فلم يستوعب هذا المعنى الكبير في الإسلام وفَرَ من
المدينة هارباً مرتداً ، ولم يبال عمر ولا الصحابة معه بهذه النتيجة
لأن ارتداد رجل عن الإسلام أهون بكثير من التهاون في تطبيق
مبدأ عظيم من مبادئه ، وخسارة فرد لا تقاس بخسارة مبدأ .

* * *

عود على بدء

انطلقت معركة بدر الكبرى من قوله تعالى :

﴿ وَقَنِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى
الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٣] .

فإذا كان الدين لله ، كُرم الإنسان هذا التكريم ، وحُفظت
حقوقه هذا الحفظ ، وساد الإخاء بين بني البشر ، محبة ، وأُلزم
الناس بالمساواة عدلاً .

* * *

عقب بعض الغزوات ، عُرض على النبي ، ﷺ الأسرى ،
فوقفت من بينهم امرأة أسيرة ، اسمها سقانة ، وقالت بأدب جم :
يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن عليّ ، منّ الله
عليك ، وخلّ عني ، ولا تشمت بي أحياء العرب ، فإن أبي كان
سيد قومه ، يفك العاني ، ويعفو عن الجاني ، ويحفظ الجار ،
ويحمي الذمار ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشي
السلام ، ويحمل الكلّ ، ويعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحد
في حاجة فردّه خائباً ، أنا بنت حاتم طي .

فقال عليه الصلاة والسلام :

يا جارية هذه صفات المؤمنين حقاً ، لو كان أبوك إسلامياً
لترحمنا عليه ، ثم قال خلّوا عنها ، فإن أباهما كان يحب مكارم
الأخلاق .

وقد ورد في الأثر :

« ارحموا عزيز قوم ذل ، وغنياً افتقر ، وعالماً ضاع بين
الجهّال » .

عندها استأذنته أن تدعو له ، فقال عليه الصلاة والسلام
لأصحابه :

« اسمعوا وعوا » .

قالت : أصاب الله ببرك موقعه ، ولا جعل لك إلى لئيم
حاجة ، ولا سُلّبت نعمة عن كريم قوم ، إلا جعلك سبباً في
ردها ، ورجعت إلى أهلها ، وقالت لأخيها عدي بن حاتم :

يا عدي ائتِ هذا الرجل ، فإني قد رأيت هدياً ، وسمتاً ، ورأياً ،
يغلب أهل الغلبة ، ورأيت فيه خصالاً تعجبني ، رأيتَه يحب
الفقير ، ويفك الأسير ، ويرحم الصغير ، ويعرف قدر الكبير ،
وما رأيت أجود ، ولا أكرم منه ، فإن يكن نبياً فللسابق فضله ،
وإن يكن ملكاً ، فلا تزال في عز ملكه . ولقد أسلمت ، وأسلم
أخوها أيضاً .



الباب السادس

من سيرة النبي ﷺ

حقيقة المعجزة في الإسلام

إن الله جل جلاله ، خلق الكون بسماواته وأرضه ، وخلق
العوالم ، وعلى رأسها الإنسان ، وفق أنظمة بالغة الدقة ، ومن
أبرز هذه الأنظمة ، نظام السببية ، وهو تلازم شيئين وجوداً
وعدماً ؛ أحدهما قبل الآخر ، فنسمي الأول سبباً ، ونسمي الثاني
نتيجة ، ومما يكمل هذا النظام الرائع ، أن العقل البشري يقوم
على مبدأ السببية ، أي إن العقل لا يفهم حدثاً من دون محدث ،
ومن رحمة الله بنا أن هذا النظام في الكون ، وذاك المبدأ في
العقل ، يقودنا برفق إلى معرفة الله مسبب الأسباب ، فالأقدام تدل
على المسير ، والماء يدل على الغدير ، أفسماء ذات أبراج ،
وأرض ذات فجاج ، ألا تدلان على الحكيم الخبير؟

ومن رحمة الله بنا أيضاً ، أن تلازم الأسباب مع النتائج يضيفي
على الكون طابع الثبات ، ويمهد الطريق لاكتشاف القوانين ،
ويعطي الأشياء خصائصها الثابتة ، ليسهل التعامل معها ، ولو لم
تكن الأسباب متلازمة مع النتائج ، ولو لم تكن النتائج بقدر
الأسباب ، لأخذ الكون طابع الفوضى ، والعبثية ، ولتاه الإنسان في

سبل المعرفة ، ولم ينتفع بعقله ، لكن مَن اعتقد أن الأسباب وحدها تخلق النتائج ، ثم اعتمد على الأسباب وحدها ، فقد أشرك ، لذلك يتفضل الله على هذا الإنسان ، الذي وقع في الشرك الخفي ، فيؤدبه بتعطيل فاعلية الأسباب التي اعتمد عليها ، فيفاجأ بنتائج غير متوقعة ، ومن ترك الأخذ بالأسباب ، متوكلاً في زعمه على الله ، فقد عصى ، لأنه لم يعبأ بهذا النظام الذي ينتظم الكون ، ولأنه طمع ، بغير حق ، أن يخرق الله له هذه السنن .

أما المؤمن الصادق فيأخذ بالأسباب ، من دون أن يعتقد أنها تصنع النتائج ، وبالتالي من دون أن يعتمد عليها ، يأخذ بها ، وكأنها كل شيء ، ويعتمد على الله وكأنها ليست بشيء ، معتقداً أنه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأن الأسباب وحدها لا تقود إلى النتائج ، إلا بمشيئة الله ، وهذا التوحيد الإيجابي ، الذي يغيب عن كثير من المؤمنين ، فضلاً عن غير المؤمنين ، قال تعالى :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦] .

قال بعض المفسرين : هذا هو الشرك الخفي ، ولكن هذا النظام ، نظام السببية ، يُخرق أحياناً ، ولكن متى وكيف ؟ حينما يأتي إنسان ويقول : إنه رسول من عند الله ، جاء ليبلغ منهج الله ، لا بد من أن يطالبه الناس ببرهان على أنه رسول الله ، وعلى أن الكتاب الذي جاء به هو من عند الله ، وهنا تأتي المعجزة لتكون برهاناً على صدق إرسال النبي ، ومصداقية منهجه ، والمعجزة ،

في بعض تعاريفها ، خرق لنواميس الكون ولقوانينه ، ولا يستطيعها إلا خالق الكون ، لأنه هو الذي وضع القوانين ، والنوانيس ، يعطيها لرسله لتكون برهاناً على صدقهم في إرسالهم ، وصدقهم في إبلاغهم عن ربهم ، والمعجزة ممكنة عقلاً ، غير مألوفة عادة ، فهناك فرق بين أن يحكم العقل على شيء باستحالته ، وبين أن يعلن عجزه عن فهم هذا الشيء ، فعدم العلم بشيء ليس علماً بعدم ذلك الشيء .

تأكيداً لهذه الحقيقة ، فقد جاء قوم سيدنا إبراهيم ، عبدة الأوثان ، جاؤوا بسيدنا إبراهيم عليه السلام ، بعد أن حطم أصنامهم ، وأوقدوا له ناراً هائلة ليحرقوه ، ليحرقوه أمام آلهتهم ، ليكون انتقامهم من سيدنا إبراهيم انتقاماً تباركه آلهتهم ، جاؤوا بالحطب وأوقدوا النار العظيمة ، كل شيء مُعدّ لتمجيد آلهة غير الله ، سبحانه وتعالى ، والسؤال هنا : لماذا سمح الله لهم أن يأتوا بإبراهيم ، ليحرقوه بالنار ، أمام آلهتهم ، وهو رسول الله ، كان من الممكن أن يختفي إبراهيم عليه السلام ، ولا يظهر ، وعندئذ ينجو إبراهيم من الحرق ، ولكن لو حدث هذا ، لقالوا : لو قبضنا على إبراهيم لأحرقناه ، وعندئذ ستظل قوة الآلهة المزيفة مسيطرة على عقولهم ، وأنها تنفع من يعبدها ، وتضر من يؤذيها ، لذلك لابد من أن يقع سيدنا إبراهيم في أيديهم ، ليشهد القوم عجز آلهتهم المزعومة أمام قدرة الله ، وكان من الممكن أن يطفىء الله النار بسبب أرضي ، كأن ينزل الأمطار فتتطفئ النار ، ولو حدث هذا لقالوا : إن آلهتنا قادرة على أن تحرق إبراهيم ،

ولكن السماء أمطرت ، ولو أن السماء لم تمطر ، لانتقمتم آلهتنا منه بالحرق ، ما الذي حدث ؟ الذي حدث لحكمة بالغة ! أن إبراهيم عليه السلام لم يخفف ، بل وقع في أيديهم ، وأن النار لم تنطفئ ، بل ازدادت اشتعالاً ، ثم ألقوا بإبراهيم في النار ، فإذا الله سبحانه وتعالى يعطل فاعلية الأسباب ، ويبطل إحراق النار ، وتكون النار برداً ، وسلاماً ، على إبراهيم ، قال تعالى :

﴿ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩] .

ماذا سيكون ! لو أن الله تعالى قال : يا نار كوني برداً ، ولم يقل : وسلاماً ، عندئذ سيموت سيدنا إبراهيم من شدة البرد ، وماذا سيكون لو أن الله تعالى قال : يا نار كوني برداً وسلاماً ، ولم يقل على إبراهيم ، عندئذ سيبطل مفعول النار إلى يوم القيامة !

* * *

والآن... بعد هذا التمهيد العقيدي ، ننتقل إلى الإسراء والمعراج .

قال تعالى مشيراً إلى الإسراء :

﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِّنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

[الإسراء : ١] .

وقال تعالى مشيراً إلى المعراج :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتَمْنُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾

[النجم : ١-١٣] .

أما حكمة الإسراء ، فقد أجملها الله تعالى في قوله : لنريه من آياتنا ، وأما حكمة المعراج لقد أجملها الله تعالى في قوله : لقد رأى من آيات ربه الكبرى .

وكلمة سبحان في الآية ، تفيد أن الإسراء والمعراج لا يخضعان لقوانين الأرض ، ولا لقوانين الزمان والمكان ، وهو من الموضوعات الإخبارية ، التي لا يستطيع العقل أن يخضعها لمبادئه ، ومقاييسه ، وحينما قال الله سبحانه وتعالى : لنريه ، ولم يقل لنريهم ، أراد أن تكون هذه المعجزة تكريماً لنبيه عليه الصلاة والسلام ، بأن يريه ما شاء ، من آيات قدرته ، وعجائب صنعته ، وعظيم ملكه ، ومصائر خلقه ، ليطمئن قلبه ، وتستنير بصيرته ، ويزداد يقينه ، وليكون عالم الغيب ، لدى النبي ﷺ ، مشهوداً ، وليكون اليقين به يقيناً حسيّاً ، لا إخبارياً ، فهناك فرق بين علم اليقين ، وهو اليقين الإخباري ، وحق اليقين وهو اليقين الشهودي ، وعين اليقين وهو يقين المعاينة .

وأما كلمة بعبدته فتفيد : أن الإنسان ، مهما تخرق له

العادات ، ومهما ينل من الله أعظم المكرمات ، لا يمكن إلا أن يكون عبداً لخالق الأرض والسموات ، وأما كلمة إنه هو السميع البصير فلها قصة تأتي بعد حين .

لقد كان الإسراء والمعراج ، لدى النبي ﷺ ، مسحاً لجراح الماضي ، وتثبيتاً لقلبه ، وتطميناً له على مستقبل الدعوة ، وتعويضاً عن جفوة الأرض ، بحفاوة السماء ، وعن قسوة عالم الناس ، بتكريم الملائكة ، لقد كان الإسراء والمعراج تكريماً فريداً من نوعه ، للنبي ﷺ ، لقد عرّف الله نبيّه ، بعد محنة الطائف ، أنه سيد ولد آدم ، وأنه سيد الأنبياء والمرسلين ، ولقد أراه ملكوت الأرض والسموات ، وما تؤول إليه الخلائق بعد الممات ، لقد كان الإسراء والمعراج عقب عام الحزن ، ففي هذا العام ، توفيت السيدة خديجة ، صديقة النساء التي حنت عليه ساعة العسرة ، وواسته في أيام الشدة ، بنفسها ومالها ، في هذا العام أيضاً ، توفي عمه أبو طالب ، الذي أظهر من النبل في كفالاته ، ومن البطولة في الدفاع عنه ، الشيء الكثير ، وقد نالت قريش من النبي ﷺ ، ما لم تنل منه ، في أي وقت مضى ، وفي هذا العام بالذات ، خرج النبي ﷺ إلى الطائف ، يلتمس هداية أهلها ، ونصرتهم فردوا دعوته رداً منكراً ، وأغلظوا له بالقول ، وأغروا به سفهاءهم ، لقد تحمل النبي ﷺ ، في هذا العام من الشدائد ، ما لا يحتمله بشر على الإطلاق ، إلا أن يكون نبياً .

إذاً كان الإسراء والمعراج تكريماً عظيماً للنبي ﷺ ، بعد نجاح باهر ، في امتحان صعب ، فما هذا الامتحان الصعب ، الذي

اجتازه النبي ، حتى استحق هذا التكريم الفريد ، إنه امتحان الطائف .

إن ما لاقاه النبي ﷺ ، من مختلف ألوان المحنة ، ولا سيما هذا الذي رآه في ذهابه إلى الطائف ، إنما كان من جملة أعماله التبليغية للناس ، فكما أن النبي ﷺ ، جاء يبلغنا العقيدة الصحيحة ، عن الكون ، وخالقه ، وعن الحياة وحقيقتها ، وعن الإنسان ورسالته ، وعن أحكام العبادات ، والمعاملات ، وعن مكارم الأخلاق ، كذلك جاء ليبلغ المسلمين عن طريق السلوك العملي ، أن ما كلفهم الله به من واجب الصبر ، والمصابرة يجب أن يكونوا في مستواه .

فقال تعالى :

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

فكما أن النبي ، ﷺ ، علّم الناس بأقواله ، كذلك علّمهم بأفعاله ، وكما أنه قال للناس « صلوا كما رأيتموني أصلي ، وخذوا عني مناسككم » ، كذلك قال لهم ، بلسان حاله : اصبروا كما رأيتموني أصبر ، وربما توهم متوهم ، أن النبي ، ﷺ ، غلب على أمره في الطائف ، وأن الضجر نال منه ، لذلك توجه إلى الله بالدعاء والشكوى ، والحقيقة أن النبي ﷺ لم يُغلب على أمره ، ولم يضر ، وإنما استقبل هذه المحن راضياً ، وتجرع تلك الشدائد صابراً محتسباً ، لأنه كان بوسعه أن ينتقم من

الذين آذوه ، ومن الزعماء الذين أغروا به أولئك السفهاء ،
والدليل : ما رواه الإمام البخاري ومسلم من أن جبريل عليه
السلام جاء النبي ﷺ في قرن الثعالب وقال : « يا محمد : إن الله
عز وجل سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك
ملك الجبال ، لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال فسلم
عليّ ، ثم قال : يا محمد ، فقال : ذلك فيما شئت ، فلو شئت
لأطبق عليهم الجبلين ، فقال عليه الصلاة والسلام : اللهم اهد
قومي ، فإنهم لا يعلمون ، أخرج الله من أصلابهم من
يعبد الله وحده ، ولا يشرك به شيئاً » (١) .

لم يتخل النبي عن قومه ، قال : « قومي » ودعا لهم ، قال :
« اللهم اهد قومي » ، واعتذر عنهم ، قال : « فإنهم لا يعلمون »
ورجا أن تكون ذريتهم عابدة لله موحدة ، هذه مادة من مواد
الامتحان الصعب التي نجح بها النبي عليه الصلاة والسلام ،
وصدق الله العظيم حينما وصف نبيه الكريم بأنه على خلق عظيم .

ليس بين الصبر على الشدائد ، والتضرع إلى الله تعالى
بالشكوى ، أو الدعاء ، أي تعارض ، أو تناقض ، فالشكوى إلى
الله تعبد ، قال تعالى :

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحْزَنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

[يوسف : ٨٦] .

(١) أخرجه البخاري ٦/ ٣٦٠ رقم ٣٢٣١ ، ومسلم ١٧٩٥ .

والضراعة له ، والتذلل على بابه عز وجل ، تلبس العبد جلباب
العبودية ، ولقد علمنا النبي ﷺ ، في حياته كلا الأمرين ، كان
بصبره الشديد على المصائب والمحن ، يعلمنا أن على المسلمين
عامه ، والدعاة بخاصة ، أن يصبروا ، وأن يصابروا ، وكان بطول
دعائه ، وضراعته ، والتجائه إلى الله ، يعلمنا أن هذا من لوازم
العبودية لله عز وجل ، وهل من دعاء أكثر دلالة على عبودية
النبي ﷺ من هذا الدعاء ، الذي دعاه في الطائف :

« اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني
على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت
ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته
أمرني ؟ إن لم يكن بك غضب علي ، فلا أبالي ، ولكن عافيتك
أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح
عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو تُحل علي
سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا
بك » (١) .

النفس الإنسانية مجبولة - في أصل فطرتها - على الإحساس
والشعور ، الشعور بلذة النعيم ، والشعور بألم العذاب ، وهي
مجبولة على الركون إلى الأول ، والفزع من الثاني ، وحينما
يوطن الإنسان نفسه على تحمل كل أنواع الضر ، والعذاب ، وهو
يؤدي رسالة ربه مبتغياً بهذا وجهه ورضوانه ، لا يعني هذا أنه

(١) مجمع الزوائد ٦/ ٣٥ .

لا يتألم للضر ، ولا يستريح للنعيم ، فالنفس مهما تسامت
لا تخرج عن دائرة بشريتها ، ولكن حينما يفضل الإنسان الضر ،
مهما تكن آلامه ، على النعيم ، مهما تكن لذائذه ، إرضاء لوجه
ربه ، وأداء للرسالة التي أنيطت به ، عندئذ يستحق جنة ربه إلى
أبد الأبد ، حيث يجد فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ،
ولا خطر على قلب بشر ، ولولا أن النبي بشر ، تجري عليه كل
خصائص البشر ، لما كان سيد البشر .

حين يتأمل الإنسان في سيرة النبي مع قومه ، يجد أنه لاقى
من قومه من الأذى ما لا يحتمله بشر على الإطلاق ، بيد أن
الإنسان يجد أيضاً مع كل نوع من أنواع الأذى ، ومع كل مرحلة
من مراحل ، رداً إلهياً على هذا الإيذاء ، مواساةً ، وتطميناً ،
وإكراماً ، وتأييداً ، حتى لا يتجمع في النفس من عوامل التألم
والضجر ، ما قد يدخل إليها اليأس ، وما الإسراء والمعراج في
حقيقتيهما إلا رداً إلهياً تكريماً على المحنة القاسية ، التي كشفت
حقيقة الحرص النبوي ، على هداية قومه ، وكشفت صبره الجميل
على إيذائهم ، وموقفه النبيل والرحيم منهم ، حينما عرض عليه
ملك الجبال أن يطبق عليهم الجبلين ، وهو الرد الإلهي على
دعائه في الطائف ، ولعل معنى قوله تعالى في آخر آية الإسراء :
﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ، أي سمع الله دعاءك ، يا محمد ، في
الطائف ، وعلم منك حرصك على هداية قومك ، الذين بالغوا في
الإساءة إليك .

هذه الحقيقة ، يمكن أن تنسحب على المؤمن ، بشكل أو بآخر ، فقله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ، هذا قانون ، فشرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر ، بعد ضيق الأمر ، هي سنة الله في خلقه ، ربنا سبحانه وتعالى ، نكر كلمة يسراً تنكير تعظيم ، المراد به اليسر العظيم ، أو يسر الدارين ، وكلمة مع تفيد الإشعار بمجيء اليسر ، كأنه مقارن للعسر ، والتكرير يفيد التأكيد ، أو يفيد أن يسر الآخرة يأتي بعد يسر الدنيا ، المعروف في اللغة العربية ، أن المعرف إذا كرر ، يكون الثاني عين الأول ، وأن المنكر إذا كرر ، يكون الثاني مغايراً للأول ، فصار في الآية ، يسران ، وعسر واحد ، لذلك بناء على هذه القاعدة ، أثر عن عمر بن الخطاب أنه قال :

« لن يغلب عُسْرُ يُسْرَيْنِ »^(١) .

كن عن همومك معرضاً	وكل الأمور إلى القضا
وأبشر بخير عاجل	تنسى به ما قد مضى
فلرب أمر مسخط	لك في عواقبه رضا
ولربما ضاق المضيق	ولربما اتسع الفضاً
الله يفعل ما يشاء	فلا تكن معترضاً
الله عودك الجميل	فقس على ما قد مضى

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢/٤٤٦) .

درسٌ آخر نتعلمه من رسول الله ﷺ ، وهو في الطائف ،
فعندما سأله زيد بن حارثة ، متعجباً : يا رسول الله كيف تعود إلى
مكة ، وقد أخرجتك ؟! فأجابه النبي :

« يا زيد : إن الله جاعل لما ترى فرجاً ، ومخرجاً ، وإن الله
ناصر دينه ، ومظهر نبيه » .

كل هذا الذي رآه النبي في الطائف ، من أهوال التكذيب ،
ومن أهوال السخرية ، والإيذاء ، كل هذا الذي كان قد رآه في
مكة ، من كفر ، وجحود ، وتنكيل ، وإخراج ، كل هذا على
كثرتة ، وعلى شدته ، وعلى قسوته ، لم يكن له أي تأثير في ثقته
بالله تعالى ، وعلى قوة عزيمته الإيجابية في نفسه ، فما كان الله
ليتخلى عن دينه ، وعن نبيه ، وعن المؤمنين ، مهما بدت هجمة
أعداء الدين قوية ، وشاملة ، فالباطل عقيدة ، أو قوة ، إلى
انهيار ، قال تعالى :

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] .

ومن ظن أن الله ، سبحانه وتعالى ، لا ينصر رسله ، ولا يُتم
أمره ، ولا يؤيد جنده ، ويعليهم ، ويظهرهم على أعدائهم ، وأنه
لا ينصر دينه ، وكتابه ، وأنه يدلل الشرك على التوحيد ، والباطل
على الحق ، إدالة مستقرة ، يضمحل معها التوحيد ، والحق
اضمحلالاً ، لا يقوم بعده أبداً ، من ظن ذلك ، فقد ظن بالله ظن
السوء ، ونسبه إلى ما لا يليق بكماله ، وجلاله ، وأسمائه
الحسنى ، وصفاته الفضلى ، فإن عزته ، وحكمته ، تأبى ذلك ،

ويأبى أن يذل أوليائه ، وأن يكون النصر المستقر ، والظفر الدائم
لأعدائه ، فمن ظن به ذلك فما عرفه ولا عرف أسمائه ، ولا
عرف صفاته .



كلمة قصيرة عن حقيقة المعجزة ، بادىء ذي بدء ، لا معنى
للحديث عن المعجزات ، التي هي خرق للنواميس ، والعادات ،
وعن جزئياتها ، وعن وقوعها ، أو توهمها ، إذا كان أصل
الدين ، الذي يتلخص في الإيمان بالله ، موجوداً ، وواحداً ،
وكاملاً ، والإيمان أنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ،
وفعال لما يريد ، إذا كان هذا الأصل محل إنكار ، أو شك ، فلا
معنى للحديث عن المعجزات أصلاً ، فالناس يخاطبون عادة
بأصول الدين ، والمؤمنون يخاطبون بفروع الدين ، والحديث عن
المعجزات من فروع الدين ، فإذا كان الأصل مهتزاً ، فلا جدوى
من الحديث عن المعجزات .

ثم إن الكون بمجراته وكازاراته ، بكواكبه ومذنباته ،
بالمسافات البينية ، والسرعات الضوئية ، بحجوم النجوم
وسرعاتها ، بدورانها وتجاذبها ، والأرض بجبالها ووديانها ،
وسهولها وقفارها ، ببحارها وبحيراتها ، بينابيعها وأنهارها ،
بحيواناتها ونباتاتها ، بأسمائها وأطيئارها ، بمعادنها وثرواتها ،
والإنسان بعقله وعاطفته ، وأعضائه وأجهزته ، بفطرته وطباعه ،

بزواجه وذريته ، هذه كلها معجزات وأية معجزات ! الكون
بسماءاته وأرضه ، هو في وضعه الراهن ، من دون خرق
لنواميسه ، ومن دون خروج عن نظامه ، هو في حد ذاته معجزة ،
وأية معجزة ! والدليل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي
الْأَلْبَابِ ﴾ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي
خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿

[آل عمران : ١٩٠-١٩١] .

جسمك الذي هو أقرب شيء إليك إنه معجزة :

في رأس الإنسان ، ثلاثمئة ألف شعرة لكل شعرة بصلة ،
ووريد ، وشريان ، وعضلة ، وعصب ، وغدة دهنية ، وغدة
صبغية . أليست هذه معجزة !

في شبكية العين عشر طبقات ، في أخراها مئة وأربعون مليون
مستقبل للضوء ، ما بين مخروط وعصية ، ويخرج من العين إلى
الدماغ عصب بصري ، يحوي خمسمئة ألف ليف عصبي ، ولو
درجنا اللون الأخضر ، مثلاً ، ثمانمئة ألف درجة ، لاستطاعت
العين السليمة ، أن تميز بين درجتين ، أليست هذه معجزة !

وفي الأذن ما يشبه شبكية العين ، وفيها ثلاثون ألف خلية
سمعية ، لنقل أدق الأصوات ، وفي الدماغ جهاز يقيس
التفاضل الزمني ، لوصول الصوت إلى كل من الأذنين ، وهذا

التفاضل يقل عن جزء من ألف وستمئة جزء من الثانية ، وهو يكشف للإنسان جهة الصوت ، أليست هذه معجزة !

وعلى سطح اللسان ، تسعة آلاف نتوء ذوقي ، لمعرفة الطعم الحلو ، والحامض ، والمر ، والمالح .

وإن كل حرف ، ينطقه اللسان ، يسهم في تكوينه ، سبع عشر عضلة ، فكم حركة تحرَّكتها عضلات اللسان ، في خطبة تستغرق ساعة من الزمن ، أليست هذه معجزة !

وفي الإنسان ، مضخة تعمل دون كلل أو ملل ، تضخ ثمانية أمتار مكعبة من الدم ، في اليوم الواحد ، وتضخ في العمر المتوسط ما يملأ أكبر ناطحة سحاب في العالم ، إنه القلب أليس القلب معجزة !

وفي دماغ الإنسان ، أربعة عشر مليار خلية قشرية ، ومئة مليار خلية استنادية ، لم تعرف وظيفتها بعد ، بل إن دماغ الإنسان أعقد ما في الإنسان ، وهو عاجز عن فهم ذاته ، أليس الدماغ معجزة !

وفي جدار المعدة ، مليار خلية ، تفرز من حمض كلور الماء ، ما يزيد على عدة ألتار في اليوم الواحد ، وقد جهد العلماء في حل هذا اللغز ، لِمَ لا تهضم المعدة نفسها ، أليست المعدة معجزة !

وفي الأمعاء ، ثلاثة آلاف وستمئة زغابة معوية للامتصاص ، في كل سم^٢ ، وهذه الزغابات ، تتجدد كلياً في كل ثمان وأربعين ساعة ، أليست الأمعاء الدقيقة معجزة !

وتحت سطح الجلد ، يوجد زهاء ستة عشر مليون مكيف لحرارة البدن ، هي الغدد العرقية ، أليست هذه الغدد معجزة ! وفي الكبد ، ثلاثمئة مليار خلية ، يمكن أن تجدد كلياً ، خلال أربعة أشهر ، ووظائف الكبد كثيرة ، وخطيرة ، ومدهشة في الإنسان ، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يعيش بلا كبد ، أكثر من ثلاث ساعات ، أليس الكبد معجزة !

وفي الكليتين ، مليوناً وحدة تصفية ، طولها مجتمعة مئة كم ، يمر فيها الدم في اليوم مرات كثيرة ، أليست الكلية معجزة ! وفي الأنف عشرون مليون نهاية عصبية شمية ، تنتهي كل نهاية بسبع أهداب ، وتحيط بالأهداب مادة مخاطية ، تتفاعل مع الرائحة ، تفاعلاً كيميائياً ، ويتشكل من هذا التفاعل شكل هندسي ، يرسل إلى الدماغ ، ويعرض على ملف الذاكرة الشمية ، الذي يحتوي على عشرة آلاف بند شمي ، وحينما يتطابق الشكل المرسل من الأنف مع أحد البنود ، يعرف الإنسان نوع الرائحة ، وكل هذا يجري في أجزاء الثانية ، أليست حاسة الشم معجزة !

* * *

غير أن الإنسان ، لانهماكه بمشاغله وغفلته عن خالقه ، ولطول ألفته ، لما حوله ، ينسى وجه الإعجاز ، فيما حوله ، وعظمة الخالق فيما خلق ، فيحسب جهلاً منه ، وغروراً ، أن

المعجزة هي تلكم التي تفاجيء ما ألفه ، واعتاده ، ثم يمضي هذا الإنسان الجاهل يتخذ مما ألفه واعتاده مقياساً لإيمانه بالأشياء أو كفره بها ، وهذا جهل عجيب في الإنسان ، مهما ارتقى في مدارج المدنية والعلم ، تأمل يسير من الإنسان ، يوضح له بجلاء ، أن الخالق جلّ وعلا الذي خلق معجزة هذا الكون كله ، ليس عسيراً عليه ، أن يزيد فيه معجزة أخرى ، أو أن يبدل ، أو أن يغير في بعض أنظمته ، التي أنشأ العالم عليها ، يقول بعض العلماء الغربيين : القدرة التي خلقت العالم ، لا تعجز عن حذف شيء منه ، أو إضافة شيء إليه ، ولو لم يكن هذا العالم موجوداً ، وقيل لواحد ممن ينكر المعجزات ، والخوارق ، سيوجد عالم كذا وكذا ، فإنه سيجيب فوراً هذا غير معقول ، ولا متصور ويأتي إنكاره هذا أشد بكثير من إنكار بعض المعجزات .



ماذا تعلمنا الهجرة

تتميز حياة النبي ﷺ من حياة العظماء ، من القادة والمصلحين ، بأن حياته ﷺ ، كل ما فيها من أقوال ، أو أفعال ، أو إقرار ، أو مواقف ، تعد قدوةً وتشريعاً ، فقد عصمه الله جل جلاله ، عن الخطأ في أقواله ، وفي أفعاله ، وفي مواقفه ، فهو لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، لذلك أمرنا الله جل جلاله بالأخذ عنه .

قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ فَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الحشر : ٧] .

وجعل جل جلاله اتباع النبي ﷺ ، وتطبيق سنته ، دليلاً عملياً على محبة الله .

قال تعالى :

﴿ قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

لهذا كان للنبي ﷺ ولسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، مهمتان كبيرتان ، مهمة التبليغ ، والتبيين .

قال تعالى :

﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

[المائدة : ٦٧] .

والمهمة الثانية مهمة القدوة والأسوة .

قال تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

إن الظروف التي أحاطت بالنبي ﷺ والأحداث التي واجهها ، هي ظروف وأحداث ، خلقت وقُدرت بعناية تامة ، وبحكمة بالغة ، ليقف النبي ﷺ منها الموقف الكامل الذي ينبغي أن يقفه الإنسان ، ليؤكد إنسانيته ، وليحقق غاية وجوده ، إن هذه الظروف ، وتلك الأحداث ، من شأنها أنها تكرر ، بسبب أن طبيعة النفس واحدة .

قال تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾

[الأعراف : ١٨٩] .

وبسبب أن معركة الحق والباطل ، والخير والشر ، والإيمان والكفر ، معركة قديمة ، ومستمرة ، وأن الإنسان هو الإنسان في أي زمان ومكان ، إنه يكرر نفسه ، في ارتفاعه وانحطاطه ، في قوته وفي ضعفه ، في إيمانه وفي كفره ، لذلك كان موقف النبي ﷺ من الظروف التي أحاطت به ، ومن الأحداث التي واجهته ، هو الموقف الذي يريدنا الله أن نقفه ، إذا أحاطت بنا مثل تلك الظروف ، أو واجهتنا مثل تلك الأحداث .

والإنسان فطر على حب الأرض التي وجد فيها والتعلق بالمعالم التي لا يست نشأته ، وحينما ينتزع الإنسان من بيئته التي ترعرع فيها ، ويخرج من أرضه التي أحبها ، تتمزق نفسه ، ويعظم همُّه ، وربما أثر الموت على هذا الخروج الذي هو اقتلاع من جذوره ، لذلك أشارت الآية الكريمة إلى هذه الحقيقة .

قال تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴾

[النساء : ٦٦] .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، الإنسان مكلف أن يعبد الله تعالى من خلال التعرف إليه ، والتعرف إلى منهجه ، ومكلف أن يعبد الله عز وجل من خلال أدائه فروض العبودية ، من صيام وصلاة وحج ، ومن خلال التزامه بالأمر والنهي ، ومن خلال

الأعمال الصالحة التي هي ثمن سعادته في الآخرة الأبدية .

قال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ

تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ٢١] .

هاتان حقيقتان أساسيتان ينشأ عنهما معاً أن الإنسان إذا وُجد في أرض ، حالت قوى الشر فيها بينه وبين أن يستجيب لنداء فطرته في عبادة ربه ، وحالت بينه وبين أن يصغي لصوت العقل في تطبيق منهج خالقه ، وكان هذا الإنسان من الضعف بحيث لا يستطيع أن يقنع هذه القوى بالكف عنه ، ولا أن يقف في وجهها فيلزمها .

ماذا يفعل ؟ أيخسر سعادته الأبدية من أجل النوازع الأرضية ؟

قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ٩٧] .

هذا هو الجواب ! إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ،

وهذا هو المنطلق الفلسفي لهجرة النبي عليه الصلاة والسلام .

تُعَلِّمُنَا الهجرة أولاً أن الإنسان إذا تنازعت فيه النوازع الأرضية ، والنداءات السماوية ، عليه أن يُؤثِّر الجانبَ الأسمى والأبقى ، فلا أحد يستطيع أن ينجيه من عذاب الله ، ولا عذر له فيما يرديه .

إن الهجرة في حقيقتها موقفٌ نفسي ، قبل أن تكون رحلة جسدية ، إنها هجران للباطل وانتماء للحق ، إنها ابتعاد عن المنكرات وفعل للخيرات ، إنها ترك للمعاصي وانهماك في الطاعات ، ثم إنها فضلاً عن كل ذلك انتقالٌ من دار الكفر إلى دار الإسلام ، قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري ومسلم ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما :

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » .

إذا كان باب الهجرة من مكة إلى المدينة ، قد أُغلق بعد الفتح ، لقول النبي عليه الصلاة والسلام « لا هجرة بعد الفتح » ، فإن باب الهجرة مفتوحٌ بين كل مدينتين ، تشبهان مكة والمدينة ، زمن الهجرة ، بل إن أبواب الهجرة من مجتمع الكفر إلى مجتمع الإيمان ، مفتوحةٌ على مصاريعها ، إلى يوم القيامة ، بل إن عبادة الله ، في زمن كثرت فيه الفتن ، واستعرت فيه الشهوات ، وعمَّ فيه الفساد ، إن عبادة الله المخلصة الصادقة في هذه الأجواء الموبوءة ، تُعد هجرة خالصة إلى الله ورسوله ، قال رسول الله ﷺ :

« عبادة في الهرج (أي في زمن الفتن) كهجرة إلي »^(١) .

وتعلمنا الهجرة ثانياً ، من خلال الخطة المحكمة التي رسمها النبي ﷺ ، أن استحقاق التأييد الإلهي ، لا يعني التفريط قيد أنملة ، في استجماع أسبابه ، وتوفير وسائله ، لقد وضع النبي ﷺ لهجرته خطة محكمة ، حيث كتم تحركه ، تضليلاً للمطاردين ، واستأجر دليلاً ذا كفاءة عالية ، واختار غار ثور الذي يقع جنوب مكة ، لإبعاد مظنة الوصول إليه ، وحدد لكل شخص مهمة أناطها به ، فمن واحد لتقصي الأخبار ، وآخر لمحو الآثار ، وثالث لإيصال الزاد ، ثم إنه بعد كل ذلك كلف سيدنا علياً ، كرم الله وجهه ، أن يرتدي برده ويتسجى على سريره ، تموياً على المحاصرين الذين أزمعوا قتله .

لقد أعد النبي لكل أمرٍ عدته ، ولم يدغ مكاناً للحفظ العمياء ، لقد اتخذ الأسباب وكأنها كل شيء في النجاح ، ثم توكل على الله ، لأنه لا قيام لشيء إلا بالله ، وكأن الأسباب ليست بشيء ، إن هذه التدابير التي اتخذها النبي ﷺ ، على كثرتها ودقتها ، ليست صادرة عن خوف شخصي ، بل كانت طاعة لله ، عن طريق الأخذ بالقوانين التي قننها الله ، وبالسنن التي سننها الله ، وتشريعاً لأمره من بعده ، ثم إنه في الوقت نفسه ، لم يعتمد عليها ، بدليل أنه كان في غاية الطمأنينة ، حينما وصل

(١) رواه مسلم (٢٩٨٤) والترمذي (٢٢٠٣) وابن ماجه (٣٩٨٥) .

المطاردون إليه ، وما زاد عن أن قال لسيدنا أبي بكر : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟! » .

حينما فهم المسلمون الأوائل التوكل على الله هذا الفهم الصحيح ، وبهذه الطريقة ، رفرت راياتهم في مشارق الأرض ومغاربها ، واحتلوا مركزاً قيادياً بين الأمم والشعوب ، واليوم إذا أراد المسلمون أن ينتصروا على أعدائهم ، وما أكثرهم ، وأن يستعيدوا دورهم القيادي بين الأمم ، لينشروا رسالة الإسلام الخالدة ، رسالة الحق والخير والسلام ، إذا أراد المسلمون ذلك ، فعليهم أن يستوعبوا جيداً هذا الدرس البليغ الذي علمنا إياه رسول الله ﷺ ، من خلال هجرته .

وملخص القول : أن التوكل هو الأخذ بالأسباب ، من دون الاعتماد عليها ، وافتقاراً إلى تأييد الله ، وحفظه ، وتوفيقه من دون تقصير في استجماع الوسائل .

وتعلمنا الهجرة ثالثاً ، من خلال النتائج الباهرة التي حققها المهاجرون ، أنه من يهاجر في سبيل الله ، يجد في الأرض مُراعماً كثيراً ، وسعةً ، تُيسر أموره ، يحفظه الله عز وجل ، يوفر الله له حاجاته ، وأنه ما ترك عبد شيئاً لله ، إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه ، وأنه من شغلته طاعةُ الله عن تحقيق مصالحه الدنيوية ، أعطاه الله خير الدنيا والآخرة ، وقد ورد في الأثر « عبدي أنت تريد ، وأنا أريد ، فإذا سلمت لي فيما أريد ،

كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما أريد ، أتعبتك فيما تريد ،
ثم لا يكون إلا ما أريد » .

ومن أثر آخرته على دنياه ، ربحهما معاً ، ومن أثر دنياه على
آخرته ، خسرهما معاً .



يقول عقبة بن عامر الجهني ، أحد أصحاب رسول الله
رضي الله عنه : « قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وأنا في الفلوات ،
أرعى غنيمات لي ، فما إن تناهى إلي خبر قدومه ، حتى تركتها ،
ومضيت إليه ، لا ألوي على شيء ، فلما لقيته قلت له :
يا رسول الله ، أتبايعني ، فقال عليه الصلاة والسلام : فمن أنت ؟
قلت : أنا عقبة بن عامر الجهني ، قال : يا عقبة ، أيهما أحب
إليك ، أن تبايعني بيعةً أعرابية ، أم بيعة هجرية ، قلت : بل بيعة
هجرة ، وكنا اثني عشر رجلاً ، ممن أسلموا ، نقيم بعيداً عن
المدينة ، لرعى أغنامنا في بواديها ، فقال بعضنا لبعض : لا خير
فينا - والله - إذا نحن لم نقدم على رسول الله ﷺ ، يوماً بعد
يوم ، ليفقهنا في ديننا ، ويُسمعنا مما ينزل عليه ، من وحي
السماء ، فليمض كل يوم واحد منا إلى يثرب ، وليترك غنمه لنا ،
فنرعاها له ، فقلت : اذهبوا أنتم إلى رسول الله ﷺ ، واحداً بعد
آخر ، وليترك لي الذهاب غنمه ، لأنني كنت شديد الإشفاق على
غنيماتي ، من أن أتركها لأحد ، ثم طفق أصحابي يغدو الواحد

منهم بعد الآخر ، على رسول الله ﷺ ، ويترك لي غنمه أرواحها له ، فإذا جاء أخذت منه ما سمع ، وتلقيت عنه ما فقه ، لكنني ما لبثت أن رجعت إلى نفسي ، وقلت لها : ويحك يا نفس ! أمن أجل غنيمات ، لا تُسمن ولا تغني ، تفوتين عليك صحبة رسول الله ﷺ ، والأخذ عنه مشافهة ، من غير وساطة ، ثم تخلت عن غنيماتي ، ومضيت لأصحاب رسول الله ﷺ .

لم يكن عقبة بن عامر الجهني ، يخطر له على بال ، حين اتخذ هذا القرار ، قرار صحبة رسول الله ﷺ ، وترك غنيماته ، لم يكن يخطر له على بال ، حينما اتخذ هذا القرار الحاسم ، والحازم ، أنه سيغدو بعد عقد من الزمان ، عالماً من أكابر علماء الصحابة ، وقارئاً من شيوخ قرائها ، وقائداً من قواد الفتح المرموقين ، ووالياً من ولاة الإسلام المعدودين ، ولم يكن يخطر له على بال أيضاً ، وهو يتخلى عن غنيماته ، ويمضي إلى رسول الله ﷺ ، أنه سيكون طليعة الجيش الذي يفتح أم الدنيا وقتها ، دمشق ، ويتخذ لنفسه داراً بين رياضها النضرة ، عند باب توما ، ولم يكن يخطر له على بال ، أنه سيكون أحد القادة الذين سيفتحون زمردة البلاد مصر ، وأنه سيغدو والياً عليها ، ويتخذ لنفسه فيها داراً في سفح جبلها المقطم ، وبعدها . . . اشترك هذا الصحابي الجليل في قيادة حملة بحرية لفتح جزيرة رودس ، في البحر الأبيض المتوسط .

ماذا نقول ؟ . . .

لقد صدق رسول الله ﷺ ، حينما قال :
« إنك لن تدع شيئاً لله عز وجل إلا بذلك الله به ما هو خير لك
منه » .

وقد ورد في الحديث القدسي :
« من شغله ذكرى عن مسألتي ، أعطيته فوق ما أعطي
السائلين »^(١) .



هذا عن الهجرة في سبيل الرحمن ، فماذا عن الهجرة في
سبيل الشيطان ؟ فهذا موضوع آخر .

حينما يرفض المرء الحق وأهله ، وينضم إلى الباطل وأهله ،
حينما يؤثر المرء الدنيا الفانية ، على الآخرة الباقية ، حينما يفضل
الرجل مصالحه ، على مبادئه ، وحاجاته على قيمه ، حينما تكون
الهجرة ، ابتغاء دنيا يصيبها الرجل ، أو ابتغاء مال وفير ، يحصله
على حساب مصيره الأبدي .

حينما تكون الهجرة بذلاً للخبرات والطاقات لغير بلاد
المسلمين .

حينما تكون الهجرة إضعافاً للمسلمين ، وتقويةً لأعدائهم ،

(١) أخرجه البخاري في (خلق أفعال العباد) وأبو نعيم في (المعرفة) والبيهقي في
(شعب الإيمان) عن ابن عمر وهو حسن .

حينما تكون الهجرة هروباً من تحمل المسؤولية ، وفراراً من البذل والتضحية . حينما تكون الهجرة تمكيناً للعدو من احتلال الأرض واستثمار خيراتها . حينما تكون الهجرة من بلد تقام فيه شعائر الدين ، إلى بلد فرغت منه كل القيم ، وحينما تكون الهجرة تضييعاً للعرض والدين ، وكسباً للدرهم والدينار ، فهي هجرة في سبيل الشيطان ، وشتان بين الهجرتين .



صعقت قريش ، حينما علمت أن محمداً ﷺ خرج من مكة ، أعلنت في القبائل ، أنه من يأتيها بمحمد ﷺ حياً أو ميتاً ، فله مئة من كرائم الإبل ، وكان سراقة بن مالك فارساً من فرسان قومه المعدودين ، طويل القامة ، عظيم الهامة ، بصيراً باقتفاء الأثر ، صبوراً على أهوال الطريق ، فلما سمع بالنوق المئة ، اشربأت إليها أطماعه ، واشتد عليها حرصه ، فلبس لأمته (أي درعه) وتقلد سلاحه ، وامتطى جواده ، وطفق يغدُّ السير ، ليدرك محمداً ﷺ ، قبل أن يسبقه أحدٌ إليه ، وإلى الجائزة ، ومضى يطوي الأرض طياً ، إلى أن أدرك محمداً وصاحبه ، فمد يده إلى قوسه فجمدت في مكانها ، لأنه رأى قوائم فرسه ، تسيخ في الأرض (أي تغوص) ، ويتصاعد الغبار من بين يديها ، ويغطي عينيه وعينها ، فالتفت إلى الرسول ﷺ وصاحبه ، وقال بصوت ضارع : يا هذان ، ادعوا لي ربكما ، ليطلق قوائم فرسي ، ولكما علي أن أكف عنكما ، فدعا له النبي ﷺ ، فأطلق الله له قوائم

فرسه ، لكن أطماعه ما لبثت أن تحركت من جديد ، فدفعت فرسه نحوهما مرة ثانية ، فساخت قوائمها أكثر من ذي قبل ، فاستغاث بهما ، مرة ثانية ، وقال : إليكما زادي ، وإليكما متاعي ، وإليكما سلاحي ، فخذاه ، ولكما علي عهد الله ، أن أردّ عنكما من ورائي من الناس ، فقالا له : لا حاجة لنا بزادك ، ومتاعك ، ثم دعا له الرسول ﷺ ، وكان أرحم الخلق بالخلق ، دعا له ربه ، مرة ثانية ، فانطلقت فرسه .

﴿ يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

[المائدة : ٦٧] .

هذه عصمة الله عز وجل . ولما هم سراقاة بالانصراف قال له النبي ﷺ : كيف بك ياسراقاة ، إذا لبست سوارى كسرى ، قال سراقاة : كسرى بن هرمز صاحب القصر الأبيض في المدائن ، قال عليه الصلاة والسلام : كسرى بن هرمز - وكان من أقوى الأقوياء في عصره - ودارت الأيام دورتها ، فإذا بمحمد ﷺ الذي خرج من مكة طريداً ، شريداً ، مستتراً بجنح الظلام ، مهدوراً دمه ، يعود إليها سيداً ، فاتحاً ، تحفه الألوف المؤلفة ، من بيض السيوف ، وسمر الرماح ، ويأتي سراقاة النبي ﷺ ، ويعلن إسلامه ، بين يديه ، ويتراءى له ذلك اليوم الذي هم فيه بقتل محمد ﷺ ، من أجل مئة من النوق ، وبعد أن أسلم ، أصبحت نوق الدنيا ، لا تساوي عنده قلامة من ظفر النبي ﷺ ، ودارت الأيام دورتها ، كرة ثانية ، وآل أمر المسلمين إلى الفاروق عمر ،

رضوان الله تعالى عليه ، وفي ذات يوم من آخر أيام خلافته ، قَدِمَ على المدينة رُسُلُ سعد بن أبي وقاص ، يبشرون عمر بالفتح ، ويحملون إلى بيت مال المسلمين الغنائم ، وكان من بين هذه الغنائم تاج كسرى المرصع بالدر ، وثيابه المنسوجة بخيوط الذهب ، ووشاحه المنظوم بالجوهر ، وسواراه ، وما لا حصر له من النفائس ، نظر عمر إلى هذا كله في دهشة ، وجعل يقلبها بقضيب ، كان بيده ، زهداً بها ، ثم قال : إن قوماً أدوا هذا لأمناء ، وكان في حضرته سيدنا علي كرم الله وجهه ، قال : يا أمير المؤمنين ، أعجبت من أمانتهم ، لقد عففت فعفوا ، ولو رتعت لرتعوا ، وهنا دعا الفاروقُ عمر سراقه بن مالك ، فألبسه قميص كسرى ، ووضع على رأسه تاجه ، وألبسه سواريه ، ثم قال عمر لسراقه : بخ بخ ! أعيرابي من بني مدلج ، على رأسه تاج كسرى وفي يديه سواره .

قال الله :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥] .

وقال تعالى :

﴿ خَلَفَ مِنْ بَٰعِدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴾ [مريم : ٥٩] .

* * *

رحمة رسول الله ﷺ

في مناسبة مولد رسول الله ﷺ يحسن بنا أن نضع بين يدي القارئ الحقائق التالية :

الحقيقة الأولى : معرفة سنة رسول الله ﷺ ، القولية والعملية ، فرض على كل مسلم ، لأن كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب ، وقد أمرنا ربنا جل جلاله أن نأخذ عن رسول الله ﷺ أمره ، وأن نأتمر به ، وأن نأخذ نهيه ، وأن ننتهي عنه ، وأن يكون ﷺ لنا ، أسوةً وقُدوةً ، أي أُمْرًا أن نتبعه ، وأن نقتدي به ، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

كيف نأتمر بما أمر ؟ وننتهي عما نهى عنه ونزجر ؟ وكيف يكون لنا قدوةً وأُسوة ؟ إن لم نعرف أحاديثه الشريفة الصحيحة ،

وسيرته الطاهرة الموثقة ، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ،
هذه الحقيقة الأولى .

والحقيقة الثانية : أن الله سبحانه وتعالى ما أمرنا أن نطيع
رسول الله ﷺ ، وأن نقف به ، إلا لأنه معصوم في أقواله ،
وأفعاله ، وإقراره ، وأحواله ، معصوم بمفرده ، بينما أمته المتبعة
له ، معصومة بمجموعها ، لقوله ﷺ :
« لا تجتمع أمتي على ضلالة »^(١) .

فهو ﷺ ، فيما يصفه به القرآن الكريم ، لا ينطق عن الهوى ،
إن هو إلا وحي يوحى ، لذلك عدّ علماء الأصول القرآن وحياً
متلوّاً ، وعدّوا أقواله ﷺ التشريعية وحياً غير متلوٍ ، وهو الأصل
الثاني بعد القرآن الكريم .

الحقيقة الثالثة : الاستجابة لرسول الله ﷺ هي عين الاستجابة
لله ، وطاعة رسول الله ﷺ هي عين طاعة الله ، وإرضاء
رسول الله ﷺ هو عين إرضاء الله ، وإليك الأدلة من القرآن
الكريم ، قال تعالى :

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ

(١) رواه الترمذي ٢١٦٦/٤ ، والحاكم ١١٦/١ ، وحسنه الغماري كما في تخريج
أحاديث اللمع .

هُوَ لَمْ يَغَيِّرْ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾

[القصص : ٥٠] .

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾

[النساء : ٨٠] .

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنَّ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة : ٦٢] .

والله ورسوله أحق أن يرضوه (هـ) بضمير المفرد...

الحقيقة الرابعة : الله جل جلاله لا يقبل دعوى محبته إلا بالدليل ، فكل امرئ يستطيع أن يدعي محبة الله ، لكن ما كل مدعٍ بمستطيع أن يقدم الدليل ، لقد جعل الله جل جلاله دليل محبته اتباع رسوله ﷺ ، فقال تعالى :

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران : ٣١] .

الحقيقة الخامسة : قال تعالى :

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود : ١٢٠] .

إذا كان قلب النبي ﷺ ، وهو سيد الخلق ، وحبیب الحق ، يزداد ثبوتاً بسماع قصة نبي دونه ، في المرتبة ، فكيف بمؤمن يستمع إلى قصة سيد الخلق ، وحبیب الحق ، إن قصته ﷺ ، تنور العقول ، وتطمئن القلوب ، وتسعد النفوس ، وتبعث في الإنسان روح البطولة ، لأنه أكمل خلق الله أجمعين .

وأجمل منك لم تر قط عيني وأكمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

الحقيقة السادسة : نخلص من هذا كله أن معرفة رسول الله ﷺ ، معرفة سنته القولية الصحيحة ، ومعرفة سيرته العملية الموثقة ، فرض عين على كل مسلم ، وهي من صلب الدين ، لا في شهر المولد فحسب ، بل في كل أعوام الحياة .

﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يُنْكَرُوا ﴾ [المؤمنون : ٦٩] .



في تاريخ البشرية كلها ، بروادها ، بصفوتها ، بقادتها ، لا نكاد نعرف حياة ، نقلت إلينا أنباؤها ، وحفظت لنا وقائعها ، في وضوح كامل ، وتفصيل عميم شامل ، كما حفظت ، وكما نقلت إلينا ، حياة محمد بن عبد الله ، رسول الله رب العالمين ، ورحمته المهداة إلى الناس أجمعين ، فكل كلمة قالها ، وكل خطوة خطاها ، وكل بسملة تألقت على محياه ، وكل دمعة

تحدثت من مآقيه ، وكل نفس تردد في صدره ، وكل مسعى سار لتحقيق أمره ، كل مشاهد حياته ، حتى ما كان منها من خاصة أمره ، وأسرار بيته ، وأهله ؛ كل ذلك نقل إلينا بحروف كبار ، موثقاً بأصدق ما عرف التاريخ الإنساني ، من وسائل وبيانات ، لقد رحل النبي ﷺ عن دنيانا ، من قرابة ألف وأربعمئة عام وزيادة ، ومع هذا فنحن إذ نقرأ سيرته وتاريخه اليوم ، لا نحس أننا نقرأ عنه ، بل كأننا نسمعه ، ونراه ، ونعيش المشاهد نفسها ، التي نطالعها مكتوبة ، ومسطورة ، ولا عجب في هذا ، فمادام الله قد اختاره ليختم به النبوة والأنبياء ، فمن الطبيعي أن تكون حياته منهجاً ودليلاً لأجيال لا تنتهى لأعدادها ، وأن تكون هذه الحياة بكل تفصيلها ، أشد وضوحاً ، وتألقاً من فلق الصبح ، ورائعة النهار ، لا بالنسبة إلى عصره فحسب ، بل بالنسبة إلى كل العصور والأجيال .

حياة النبي ﷺ ، وشمائله ، وجوانب شخصيته ، ونتائج دعوته ، لا تستوعبها المجلدات ، ولا خطب في سنوات ، فالرحمة مهجته ، والعدل شريعته ، والحب فطرته ، والسمو حرفته ، ومشكلات الناس عبادته ، وحسبنا في هذا الموضوع أن نقف عند الفقرة الأولى من هذه المقولة ، رحمته ﷺ ، هذا هو محور الموضوع .



لقد قال ﷺ عن نفسه :

« إنما أنا رحمة مهداة »^(١) .

لكنها رحمة الأقوياء الباذلين ، لا رحمة الضعفاء البائسين ،
لقد حدث عنها حديث خبير بقيمتها ، محيط بجوانبها ، فقال
عليه الصلاة والسلام :

« الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض ،
يرحمكم من في السماء »^(٢) .

لقد أعلن النبي الكريم أن الرحمة عنده خير من الإفراط في
العبادة وأزكى ، لقد خرج ﷺ عام الفتح إلى مكة في رمضان ،
حتى بلغ موضعاً ، يدعى كراع الغميم ، فصام وصام الناس ،
ولما رأى ﷺ بعض الناس ، قد شق عليهم الصيام بسبب جهد
السفر ، دعا بقدر من ماء ، فرفعه حتى نظر الناس جميعاً إليه ،
ثم شرب ، ولما قيل له إن بعض الناس لا يزال صائماً ، قال عليه
الصلاة والسلام :

« أولئك العصاة »^(٣) .

إن مشقة السفر عذر ، مباح للإفطار في رمضان ، إن الرفق
بالنفس يفوق في ميزان النبي ﷺ كل شيء ، هؤلاء الذين صاموا

(١) حديث صحيح ، أخرجه ابن سعد في الطبقات ، والحاكم وغيرهما ، وهو صحيح
بتعدد طرقه (الصحيحة ٤٩٠) .

(٢) حديث صحيح ، رواه أبو داود والترمذي وأحمد .

(٣) رواه مسلم رقم ١١١٤ ، والترمذي ٧٦٠ عن جابر بن عبد الله .

في السفر ، حتى أدركهم العياء ، فلم يتخلوا عن صيامهم يدمغهم رسول الله ﷺ بالعصيان ، لأنهم رفضوا رخصة أرحم الراحمين ، إنهم حولوا العبادة إلى تعذيب ، إنهم تخلوا عن أعظم فضائل الإنسان ، ألا وهي الرحمة ، ولا سيما الرحمة بالنفس ، واستبقاء عافيتها ، وقوتها ، لأنها رأس مالها .

لا شيء يكشف عن قيمة الرحمة عند رسول الله ﷺ ، كأن توضع الرحمة والعبادة في كفتي ميزان ، عندئذ ترجح كفة الرحمة أيما رجحان .

وأما رحمته بالوالدين فشيء مذهش . . .

رجل يسرع الخطى إلى رسول الله ﷺ ، يغشاه الفرح الكبير ، تغمره الفرحة العارمة ، ليباع النبي ﷺ على الهجرة معه ، وعلى الجهاد في سبيل الله ، تحت رايته يقول : جئت أبايعك على الهجرة والجهاد ، أبتغي الأجر من الله ، قال : « فهل من والديك أحد حي ؟ » قال : نعم ، بل كلاهما . قال : « فتبني الأجر من الله ؟ » قال : نعم . قال : « فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما »^(١) .

جاء رجل إلى النبي ﷺ ، فاستأذنه في الجهاد ، فقال : « أحي والداك » . قال : نعم ، قال : « ففيهما فجاهد »^(٢) .

(١) رواه مسلم ٢٥٤٩ .

(٢) أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : جئت أبايعك على
الهجرة ، وتركت أبويَّ يبيكان قال : « ارجع إليهما فأضحكهما
كما أبكيتهما »^(١) .

إن بسمه تعلقو شفتي أب حنون ، وتكسو وجه أم ملهفة ،
لا تقدر عند محمد ﷺ بثمان ، حتى حينما يكون الثمن جهاداً في
سبيل الله ، يثبت الدعوة ، وينشر الراية في الآفاق ، وإذا كانت
العبادة تتحول إلى تعذيب ، حينما تكون على حساب الرحمة
بالنفس ، فإنها ، أي العبادة ، تتحول إلى عقوق ، إذا تمت على
حساب الرحمة بالوالدين ، هذا عن رحمته بالنفس ، وعن رحمته
بالوالدين ، فماذا عن رحمته بالأهل والزوجة ؟

أما رحمته بالأهل فشيء عجيب ، لقد ربط ﷺ الخيرية
المطلقة برحمة المرء بأهله ، وإحسانه إليهم ، فقال عليه الصلاة
والسلام في الحديث الصحيح :

« خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي »^(٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام :

« استوصوا بالنساء خيراً »^(٣) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

(١) أخرجه أبو داود وغيره من أصحاب السنن عن عبد الله بن عمرو .

(٢) أخرجه الترمذي رقم ١١٦٢ والدارمي وابن حبان وهو صحيح .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي والبيهقي واللفظ لمسلم .

« اللَّهُمَّ ! إِنِّي أَحْرَجُ (أضيق) حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ : الْيَتِيمِ وَالْمَرْأَةِ »^(١) .

ويقول عليه الصلاة والسلام :

« خيركم خيركم للنساء »^(٢) .

وتتجلى رحمته ﷺ بالأزواج ، من خلال هذه القصة القصيرة ، فعن أبي قلابة رضي الله عنه ، قال : حدثنا مالك ، قال : أتينا إلى النبي ﷺ ، ونحن شعبة متقاربون ، فأقمنا عنده عشرين يوماً وليلة ، وكان رسول الله ﷺ رحيماً بنا رقيقاً ، فلما ظن أنا قد اشتقنا إلى أهلنا ، سألنا : عن تركنا بعدنا ، فأخبرناه ، فقال :

« ارجعوا إلى أهليكم ، فأقيموا فيهم ، وعلموهم ، ومروهم ، وذكر أشياء أحفظها ، أو لا أحفظها ، وصلوا كما رأيتموني أصلي ، فإذا حضرت الصلاة ، فليؤذن لكم أحدكم ، وليؤمكم أكبركم »^(٣) .

وتتجلى رحمته بالزوجات ، من خلال زوجة الصحابي الجليل عثمان بن مظعون ، رضي الله عنه ، إذ دخلت على السيدة عائشة

(١) أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وهو حسن (الصحیحة ١١٠٥) .

(٢) حديث صحيح أخرجه الحاكم (السلسلة الصحیحة ٢٨٥) .

(٣) متفق عليه ، البخاري ٩٣/٢ ، مسلم رقم ٦٧٤ .

تشكو بثها وحزنها ، فعثمان زوجها ، مشغول عنها بالعبادة ، يقوم الليل ، ويصوم النهار ، لقي النبي عليه الصلاة والسلام عثمان بن مظعون ، فقال له : يا عثمان أما لك بي أسوة ؟ قال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، وماذا ؟ قال عليه الصلاة والسلام : تصوم النهار وتقوم الليل ! قال : إني لأفعل هذا ، فقال عليه الصلاة والسلام : لا تفعل ، إن لجسدك عليك حقاً ، وإن لأهلك عليك حقاً ، وامثل عثمان نصيحة رسول الله ﷺ ، والتزم أمره ، وقرر أن يؤدي حق أهله ، وفي صبيحة اليوم التالي ، ذهبت زوجة عثمان إلى بيت النبي ﷺ ، عطرة ، نضرة ، كأنها عروس ، واجتمع حولها النسوة ، وأخذن يتعجبن من فرط ما طراً عليها ، من بهاء وزينة ، قلن لها : ما هذا يا زوج ابن مظعون ؟ فقالت وهي تضحك : أصابنا ما أصاب الناس ^(١) .

بل إن النبي ﷺ ، وعد المرأة ، التي تحسن تبثّل زوجها ، بأن لها درجة عند الله ، تعدل درجة المجاهد في سبيل الله ، والجهاد - بحسب النصوص الصحيحة - ذروة سنام الإسلام .

فعن أسماء بنت يزيد الأنصارية ، أنها قالت : يا رسول الله ! أنا وافدة النساء إليك ، إن الرجال فضلوا علينا بالجمع ، والجماعات وعيادة المرضى ، وشهود الجنائز ، والحج ، والعمرة ، والرباط ، فقال لها ﷺ :

(١) حديث صحيح ذكره أبو داود باختصار ، وذكر في سير علام النبلاء بألفاظ مختلفة (١٥٧/١ - ١٥٨) .

« انصرفني أيتها المرأة ، وأعلمي من وراءك من النساء ، أن حسن تبعل إحداكن لزوجها ، وطلبها مرضاته ، واتباعها موافقته ، يعدل ذلك كله »^(١) .

هذا عن رحمته بالنفس والأهل والأزواج . . . فماذا عن رحمته بالأولاد . . . كان ﷺ إذا رأى طفلاً ، يظهر له البشر والسرور ، إيناساً له ، وتطيباً لقلبه ، وكان يأخذ أطفال أصحابه بين يديه ، يحملهم ويداعبهم ، كان إذا مر بصبية يقرئهم السلام ، يقول : السلام عليكم أيها الصبية .

حدث جابر بن سمرة ، رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ رأى صبية يتسابقون ، فجرى معهم تطيباً لهم ، وكان يلقي الصبي ، وهو يركب ناقته ، فيدعوه إلى ركوب الناقة ، ليدخل السرور على قلبه .

قالت عائشة رضي الله عنها : « جاء أعرابي إلى النبي ﷺ ، فقال : أتقبلون الصبيان ؟ نحن لا نقبلهم ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« أو أملك لك إن نزع الله الرحمة من قلبك »^(٢) .

مات لإحدى بنات النبي ﷺ ، طفل صغير ، فلما رفع إليه ، فاضت عيناه ، فقال سعد بن عباد : يارسول الله ،

(١) ذكرت القصة في الاستيعاب لابن عبد البر على هامش كتاب الإصابة .

(٢) أخرجه البخاري ٣٥٩/١٠ ومسلم رقم ٢٣١٩ .

ما هذا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام :

« هذه رحمة ، جعلها الله في قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء »^(١) .

ورد عنه ، أنه « أول من يمسك بحلق الجنة أنا ، فإذا امرأة تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي ، قلت : من هذه يا جبريل ، قال هي امرأة مات زوجها ، وترك لها أولاداً صغاراً ، فأبت الزواج من أجلهم »^(٢) .

هذا المقام الرفيع الذي حظيت به هذه المرأة ، بسبب رحمتها بصغارها ، فكم هي رحمته بالصغار ؟
وقيل : « لآعب ولدك سبعاً ، وأدبه سبعاً ، وراقبه سبعاً ، ثم اترك حبله على غاربه » .

هذا عن رحمته بالأولاد ، فماذا عن رحمته بالصغار عامة؟
يقول ابن سويد : « رأيت أبا ذر رضي الله عنه ، وعليه حلة ، وعلى غلامه مثلها ، فسألته عن ذلك ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ : « هم إخوانكم ، وخولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه »^(٣) .

(١) أخرجه البخاري ١٤٠/٣ ومسلم ٢٣١٥ .

(٢) ورد هذا النص في الأدب المفرد للبخاري (ضعيف) .

(٣) رواه البخاري ٨٠/١ ومسلم رقم ١٦٦١ وأبو داود ٥١٥٧/٥١٥٨ .

أرأيتم إلى رحمته بالصغار عامة ، إذا كانوا مستخدمين ، في مكان ما ؟

وعن أبي مسعود الأنصاري ، قال : كنت أضرب غلاماً لي ، فسمعت من خلفي صوتاً « اعلم ، أبا مسعود ! الله أقدر عليك منك عليه » فالتفت ، فإذا هو رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ! هو حر لوجه الله ، فقال : أما لو لم تفعل ، للفتحك النار ، أو لمستك النار ، وكأنه بهذا ينهاه عن ضربه ^(١) .

بل إن النبي ﷺ ، ينفي عن المرء انتماءه للإسلام ، إن لم يرحم الصغير ، قال عليه الصلاة والسلام :

« ليس منا من لم يُجِلَّ كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه » ^(٢) .

وعن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال :

« إني لأقوم إلى الصلاة ، أريد أن أطول فيها ، فأسمع بكاء الصبي ، فأتجاوز في صلاتي ، كراهية أن أشق على أمه » ^(٣) .

هكذا كانت رحمته ﷺ بالصغار فماذا عن رحمته بالجيران ؟

من رحمته ﷺ ، أنه حرص على أن يشيع الأمن والاستقرار بين المؤمنين ، فالإساءات قل ما تقع بين أناس متبايعين ، إنها

(١) أخرجه مسلم في كتاب العتق ، والبخاري في الأدب المفرد .

(٢) أخرجه أحمد والحاكم عن عبادة بن الصامت وهو حسن .

(٣) رواه البخاري ١٦٩/٢ .

تقع نتيجة الاحتكاك اليومي ، ومن يحتك مع أخيه يومياً ؟ إنهم الجيران ، لذلك يوصي رسول الله ﷺ بالجار :

« مازال جبريل يوصيني بالجار ، حتى ظننت أنه سيورثه »^(١) .

ويشدد النبي عليه الصلاة والسلام في وصيته تلك ، لئلا يطغى الجار القوي على الجار الضعيف ، لهذا كان عليه الصلاة والسلام ينفي الإيمان نفيّاً أكيداً ، عن كل جار ، يخافه جاره ، ولا يأمن شروره ، قال عليه الصلاة والسلام :

« والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن (كررها ثلاثاً) قيل : من هو يا رسول الله ؟ قال : من لا يأمن جاره بوائقه »^(٢) .

قيل له يوماً : يا رسول الله ، إن فلانة تذكر أنها تكثر من صلاتها ، وصدققتها ، وصيامها ، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها ، فماذا كان جواب النبي ؟ قال : « هي في النار »^(٣) .

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام ليشير إلى حقوق الجار ، مطلق الجار فكيف بالجار المسلم ، فكيف بالجار المسلم القريب ، فكيف بالجار المسلم القريب الأدنى ، يقول عليه الصلاة والسلام ، فيما يروى عنه :

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر وعائشة ، البخاري ٣٦٩/١٠ ومسلم ٢٦٢٤/٢٦٢٥ .

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة ، البخاري ٣٧٠/١٠ مسلم ٤٦ .

(٣) جزء من حديث صحيح رواه البخاري في الأدب المفرد وابن حبان والحاكم وأحمد عن أبي هريرة .

« أتدرون ما حق الجار ؟ إن استعان بك أعنته ، وإن استنصرك نصرته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن مرض عدته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، وإن مات شيعة ، ولا تستطل عليه بالبناء ، فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، وإذا اشتريت فاكهة ، فأهد له منها ، فإن لم تفعل فأدخلها سرّاً ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، ولا تؤذ به بقُتار قدرك ، إلا أن تغرف له منها »^(١) .

هذه رحمته بالجيران فكيف رحمته بالناس عامة .

الرحمة عند رسول الله ﷺ ، ليست نافلة من نوافل البر ، بل واجباً من واجبات الرشد ، وتبعة من تبعات الحياة ، لهذا تعبر عن نفسها ، في كثير من صور الخير والمشاركة ، والأعمال النافعة ، يقول أبو ذر رضي الله عنه : سألت رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، ماذا ينجي العبد من النار ؟ قال عليه الصلاة والسلام : الإيمان بالله ، فقال أبو ذر : يا نبي الله ، أمع الإيمان عمل ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : أن تعطي مما رزقك الله ، قلت : يا نبي الله ، فإن كان فقيراً ، لا يجد ما يعطي ، قال عليه الصلاة والسلام : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، قال : فإن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف ، ولا يستطيع أن ينهى عن المنكر ، فقال عليه الصلاة والسلام : فليعن الأخرق (أي : ضعيف الرأي) قلت : يا رسول الله ، أرايت إن كان لا يحسن أن

(١) ذكره صاحب كتر العمال برقم ٢٤٩٣٥ عن ابن عدي ، والخرائطي والحديث ضعيف لكن يشهد لبعض فقراته أحاديث أخرى صحيحة .

يصنع ، قال : فليعن مظلوماً ، قلت : فإن كان ضعيفاً ، لا يستطيع أن يعين مظلوماً ، فتعجب النبي عليه الصلاة والسلام ، فقال : أما تريد أن تترك لصاحبك من خير ، ليمسك أذاه عن الناس ، قلت : يا رسول الله ، أو إن فعل هذا يدخل الجنة ، قال : ما من عبد يصيب خصلة من هذه الخصال ، إلا أخذت بيده ، حتى تدخله الجنة «^(١) .

بقي شيء قد لا يخطر في البال ، رحمته عليه الصلاة والسلام بالحيوان هل وقفت رحمة محمد ﷺ عند الإنسان وحده ؟ لا ، لقد شملت كل كائن حي ، لتدفع عنه الغوائل والشور ، هذه المخلوقات الضعيفة يفيض قلب النبي ﷺ الكبير رحمة بها ، يؤكد حقها في الحياة والرزق ، بل لعلها أحق من غيرها لأنها لا تملك أن تشكو ، أو أن تتوجع ، كان ﷺ لا يطيق أن يرى دابة تحمل فوق طاقتها ، كان يقول :

« عذبت امرأة في هرة حبستها ، حتى ماتت ، لا هي أطعمتها وسقتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض »^(٢) .

وفي رواية أخرى لهذا الحديث « دخلت امرأة النار في هرة حبستها » .

ومن فرط إحساس النبي ﷺ بحاجة الحيوان إلى الرحمة ، كان

(١) رواه البيهقي ، وهو حديث صحيح (انظر صحيح الترغيب والترهيب رقم ٨٦٩) .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

كأنه يستمع إلى شكوى الحيوان المعذب ، وكأنه نداء النجدة ، يقول عبد الله بن جعفر : دخل رسول الله ﷺ بستاناً لرجل من الأنصار ، فإذا فيه جمل ، فما إن رأى النبي ﷺ ، حتى حنَّ إليه وذرفت عيناه ، فأتاه رسول الله ﷺ ، فمسح ذفريه ، فسكن الجمل ، وقال النبي عليه الصلاة والسلام : من صاحب هذا الجمل؟ قال فتى من الأنصار : هو لي يا رسول الله ، قال له النبي الكريم :

« ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها ؟ ! فإنه شكا إلي أنك تجيعه ، وتدبئه (أي تتعبه) »^(١) .



أما رحمته ﷺ بأُمته من بعده ، فقد كان حريصاً على وحدتها من بعده ، فكل ما من شأنه أن يوحد أُمته من بعده ، وأن يجمع شملها ، وأن يرص صفوفها ، أمر به ، وكل ما من شأنه أن يفرقها ، أو أن يشتها ، أو أن يضعفها ، نهى عنه ، ما من منهج دعا إلى الأخوة الحقيقية ، التي تتجسد في الاتحاد ، والتضامن ، والتساند والتآلف ، والتآزر ، والتعاون ، والتكاتف إلا منهج النبي عليه الصلاة والسلام ، لقد حذر من التفرق ، والاختلاف ، والعداوة ، والبغضاء والتشردم ، هذا من صلب منهج النبي عليه

(١) أخرجه أبو داود ، وهو صحيح .

الصلاة والسلام ، يتبدى ذلك من سنته القولية ، والعملية ، حدث في عهد رسول الله ﷺ أن جاهلياً ، في المدينة المنورة ، غاظه ما رأى من ألفة المسلمين ، غاظه ما رأى من صلاح ذات بينهم ، بعد الذي كان بينهم من العداوة والبغضاء في الجاهلية ، أمر شاباً على شاكلته ، أن يجلس مع الأوس والخزرج ، وأن يذكرهم بيوم بعث ، يوم اقتتلهم ، وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوه فيه من أشعار ، فتفاخر القوم ثم تنازعوا ، ثم تواثب رجلان من الحَيَّين وتقاولا ، فقال أحدهما : إن شئتم رددناها الآن جذعةً ، أي حامية ، وغضب الفريقان ، وكادت تقع فتنة ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فخرج إليهم غاضباً ، فيمن معه من المهاجرين ، حتى جاءهم فقال :

« يا معشر المسلمين ، الله ، الله !!! أبدوى الجاهلية ؟ وأنا بين أظهركم ، أبعد أن هداكم الله إلى الإسلام ، وأكرمكم به ، وقطع به عنكم دعوى الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بينكم ، ترجعون إلى ما كنتم عليه ، كفاراً ؟ » .

فعرف القوم ، أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدو لهم ، وبكوا وعانق الرجال بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله ، سامعين ، مطيعين .

لقد وصف النبي ﷺ الخصومة بالكفر ، ثم إن الله جل جلاله ، أنزل بهذه الحادثة ، قرآناً فقال :

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا

تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١١٦﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا
نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ
عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١١٧﴾ وَلِتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ
بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٩﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ
فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿١٢٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٢١﴾ تِلْكَ
ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٢٣﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ
الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٢٤﴾

[آل عمران : ١٠١-١١٠] .

ورد في أسباب النزول أن هذه الآيات نزلت في تلك الحادثة
التي كانت على عهد النبي ﷺ ، صدق الله العظيم .

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ
حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٥﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ
حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾

[التوبة : ١٢٨-١٢٩] .

لقد حرص رسول الله ﷺ على وحدة أمته من بعده ، فعن
جرير بن عبد الله ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ في
حجة الوداع :

« لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض »^(١) .

* * *

(١) متفق عليه .

الجانب الإنساني في شخصية الرسول ﷺ

إننا نرى في سيدنا محمد ، ﷺ ، الإنسان الحاني الرحيم ، الذي لا تفلت من قلبه الذكي شاردة من آلام الناس وآمالهم إلا لبها ، ورعاها ، وأعطاه من ذات نفسه كل اهتمام وتأيد .

نرى فيه الإنسان الذي يكتب إلى ملوك الأرض ، طالباً إليهم أن ينبذوا غرورهم الباطل ، ثم يصغي في حفاوة ورضا إلى أعرابي حافي القدمين يقول في جهالة « اعدل يا محمد فليس المال مالك ولا مال أبيك » .

نرى فيه العابد الأواب الذي يقف في صلاته ، يتلو سورة طويلة من القرآن في انتشاء وغبطة ، لا يقايض عليها بملء الأرض تيجاناً وذهباً ، ثم لا يلبث أن يسمع بكاء طفل رضيع ، كانت أمه تصلي خلفه في المسجد ، فيضحى بغبطته الكبرى ، وحبوره الجياش ، وينهي صلاته على عجل ، رحمةً بالرضيع ، الذي كان يبكي ، وينادي أمه ببيكائه .

نرى فيه الإنسان الذي وقف أمامه جميع الذين شنوا عليه الحرب والبغضاء ، وقفوا أمامه صاغرين ، ومثلوا بجثمان عمه

الشهيد حمزة ، ومضغوا كبده في وحشية ضارية ، فيقول لهم - وهو قادر على أن يهلكهم - : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

نرى فيه الإنسان الذي يجمع الحطب لأصحابه في بعض أسفارهم ، ليستوقدوه ناراً تنضج لهم الطعام ، ويرفض أن يتميز عليهم .

نرى فيه الإنسان الذي يرتجف حين يبصر دابةً تحمل على ظهرها أكثر مما تطيق .

نرى فيه الإنسان الذي يحلب شاته ويخيط ثوبه ويخصف نعله .

نرى فيه الإنسان وهو في أعلى درجات قوته ، يقف بين الناس خطيباً فيقول : « من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه » .

من ومضات رحمته صلى الله عليه وسلم ، أنه قال عن نفسه :
« إنما أنا رحمة مهداة »^(١) .

وقد قال عليه الصلاة والسلام مرشداً المؤمنين إلى التزام الرحمة لأنها سبب استحقاق رحمة الله :

« الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا أهل الأرض ، يرحمكم من في السماء »^(٢) .

(١) حديث صحيح ، أخرجه ابن سعد في الطبقات ، وكذلك الحاكم وغيرهما ، وهو يصح بتعدد طرقه الصحيحة (٤٩٠) .

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد .

وبيّن أيضاً أن الرحمة خير من الإفراط في العبادة ، فقد خرج ﷺ عام الفتح إلى مكة في رمضان ، حتى بلغ موضعاً يدعى (كراع الغميم) فصام وصام الناس ، ولما رأى بعض الناس قد شق عليهم الصيام ، بسبب وعناء السفر ، دعا بقدر من ماء فرفعه حتى نظر الناس إليه ثم شرب ، ولما قيل له إن بعض الناس لا يزال صائماً قال : « أولئك العصاة »^(١) .

رجل يسرع الخطى إلى رسول الله ﷺ ، يغشاه الفرح الكبير ، تغمره الفرحة العارمة ، ليبايع النبي ﷺ على الهجرة معه ، وعلى الجهاد في سبيل الله ، تحت رايته ، يقول له « يا رسول الله جئت أبايعك على الهجرة ، والجهاد ، وتركت أبويّ يبكيان ، فيقول له عليه الصلاة والسلام :

« ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما »^(٢) .

إن بسمة تملو شفتي أب حنون ، وتكسو وجه أم متلهفة ، لا تقدر عند محمد ﷺ بثمن ، حتى حينما يكون الثمن جهاداً في سبيل الله ، يثبت دعوته وينشر في الآفاق البعيدة رايته ، وحينما تتم العبادة على حساب رحمة الوالدين ، تتحول إلى عقوق ، والنبي ﷺ يركز على الرحمة تركيزاً شديداً ، كلما اشتدت إليها الحاجة .

(١) حديث صحيح ، رواه مسلم والترمذي .

(٢) حديث صحيح ، أخرجه أبو داود برقم (٢٢٠٥) .

هؤلاء المساكين... الذين تسوقهم ضرورات العيش إلى الدين ، ثم تعجزهم ضحالة الدخل عن السداد ، فيعانون من أجل الديون همَّ الليل ، وذل النهار ، هؤلاء يأسو النبي ﷺ جراحهم ، إنه لا يملك أن يقول للدائن : تنازل عن حقك ، فمحمّد ﷺ خير من يصون الحقوق ، لكنه يهب الدائن شفاعته ، وقلبه وحبّه ، إذا هو أرجأ مديناً ، وصبر عليه ، حتى تحين ساعة فرج قريب ، فقال عليه الصلّاة والسلام :

« من أنظر معسراً ، أو وضع له ، أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه ، يوم لا ظل إلا ظله »^(١) .

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً :

« كان رجل يداين الناس ، فكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه ، لعل الله أن يتجاوز عنا ، قال : فلقي الله فتجاوز عنه »^(٢) .

ويجعل النبي ﷺ الرحمة فوق الفضائل الإنسانية كلها ، فيجعل كل عمل رحيم ، عبادةً من أزكى العبادات ، فعند النبي ﷺ ، أن أعمالنا الرحيمة التي نسديها للآخرين إنما يراها الله قُرَبَات توجّه إليه ذاته ، فإذا زرت مريضاً ، فأنت إنما تزور الله ،

(١) حديث صحيح ، أخرجه الترمذي عن أبي هريرة (١٣٢٩) وهو في صحيح الترغيب (٩٠٠) .

(٢) حديث صحيح ، أخرجه البخاري ومسلم والنسائي .

وإذا أطعمت جائعاً ، فكأنما تطعم الله ، يقول عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه :

« يا بن آدم مرضت ولم تعدني ، قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدي فلان مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ، يا بن آدم استطعمتك فلم تطعمني ، قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ؟ » ^(١) .

ويصور النبي ﷺ رحمة الله ، بصورة باهرة أخّاذة ، حينما رأى أمّاً تضم طفلها إلى صدرها ، في حنان بالغ ، ورحمة بالغة ، فالتفت إلى أصحابه ، وقال لهم :

« أترون هذه طارحةً ولدها في النار ؟ قال أصحابه : لا والله يا رسول الله ، قال : الله أرحم بعبد من هذه بولدها » ^(٢) .

ذات يوم تقدم منه أعرابي في غلظة وجفوة ، وسأله مزيداً من العطاء ، وقال : اعدل يا محمد ، وبيتسم عليه الصلاة والسلام ويقول له :

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٩٠) والبخاري في الأدب المفرد (٥١٧) عن أبي هريرة .

(٢) رواه البخاري في الأدب ، ومسلم في الفضائل ، وهو في جامع الأصول برقم . ٢٦٢٥ .

« ويلك يا أعرابي !! من يعدل إن لم أعدل »^(١) .

إن الطمأنينة التي دفعت هذا الأعرابي إلى هذا الموقف المسرف في الجراءة ، هذه الطمأنينة - وحدها - تصور عدل محمد ﷺ ، فما كان هذا الأعرابي قادراً على أن يقول مقالته تلك ، لو كان محمد ﷺ ، أقام بينه وبين الناس حجباً ، وبث في نفوسهم الخشية والرغبة ، لكن هذا النبي الكريم حطم كل معالم التمايز بينه وبين الناس ، وحينما دخل عليه رجل غريب يختلج بل يرتجف من هيئته ، استدناه ، وربت على كتفه - في حنان ، وفرط تواضع - وقال له قولته الشهيرة :

« هون عليك فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة »^(٢) .

لقد هياه تفوقه ﷺ ليكون واحداً فوق الجميع ، فعاش واحداً بين الجميع ، يسأله أعرابي يوماً ، في بداوة جافة : يا محمد ، هل هذا المال ، مال الله ، أم مال أبيك ؟ ويتدره عمر ، يريد أن يؤنبه ، فيقول عليه الصلاة والسلام :

« دعه يا عمر إن لصاحب الحق مقالاً » .

وانطلاقاً من قيم العدل ، التي آمن بها ﷺ ، ودعا إليها ، يبين عليه الصلاة والسلام حقوق المسلم على المسلم فيقول :

(١) حديث صحيح متفق عليه .

(٢) حديث صحيح أخرجه ابن سعد ، وابن ماجه ، والحاكم ، والطبراني (الصحيحه ١٨٧٦) .

« إن كل المسلم على المسلم حرام ؛ ماله ، ودمه ، وعرضه »^(١) .

ويقول أيضاً :

« زوال الدنيا كلها أهون عند الله من قتل رجل مسلم »^(٢) .

ولم تكن رحمته الغامرة ، لتخدش عدالته الباهرة ، ها هو ذا يقول :

« . . . إنما أهلك من كان قبلكم ، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإن سرق فيهم الضعيف ، أقاموا عليه الحد ، والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »^(٣) .

لو أن إنساناً استطاع بطلاقة لسانه ، وقوة حجته ، أن ينتزع من فم النبي ﷺ ، حكماً ، ولم يكن محقاً فيه ، لا ينجو من عذاب الله ، يقول عليه الصلاة والسلام :

« إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إليّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضي له بنحو ما أسمع ، فمن

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم .

(٢) رواه الترمذي عن عبد الله بن عمر ، وحسنه ، قال في الفتح في باب الديات ، وأخرجه النسائي بلفظ : لقتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا .

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة .

قضيت له بحق أخيه ، فإنما أقطع له قطعةً من النار .

ومضات من محبته ﷺ :

محمد ﷺ محب ، ودود أطاع الله كثيراً ، لأنه أحبه كثيراً ، برّ الناس كثيراً ، لأنه أحبهم كثيراً ، أحب عظامم الأمور ، وترك سفسافها ودنيها ، أحب عظامم الأمور ، ومارسها في شغف عظيم ، ممارسة محب مفطور ، لا ممارسة مكلف مأمور ، لقد سجد وأطال السجود ، وسُمع وجيبُ قلبه ، ونشيج تضرعه ، وبكائه لأنه في غمرة شوق جارف ، ومحبة أخاذة ، كان ينتظر الصلاة على شوق ، فإذا دخل وقتها ، قال : « أرحنا بها يا بلال » أرحنا بها لا أرحنا منها ، وهذا هو الفرق بين الحب والواجب .

ذات يوم كان في الطائف ، يدعو قومه إلى الله ، فقابلوه بالتكذيب والسخرية والإيذاء ، أغروا به سفهاءهم ، ألجؤوه إلى حائط ، رفع رأسه إلى السماء ، وناجى ربه ، فقال : « إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي » . أي إنه لا يخشى العذاب والألم ؛ إلا إذا كان تعبيراً عن تخلي الله عنه .

ثم أدرك ﷺ ، أنه لا ينبغي للمحب الصادق ، أن يشغله استعذاب التضحية ، عن رجاء العافية ، فيستدرك ، ويقول : « لكن عافيتك هي أوسع لي » .

ذات يوم . . . أقبل على محمد ﷺ رجل فظ غليظ ، لم يكن رآه من قبل ، غير أنه سمع أن محمداً يسب آلهة قريش ، والقبائل

كلها ، فحمل سيفه ، وأقسم بالله لئسوين حسابه مع محمد ، ودخل عليه... وبدأ حديثه عاصفاً مزجراً ، والنبي ﷺ يتسم ، وتنطلق مع بسماته أطياف نور آسر ، وما هي إلا لحظات حتى انقلب المَغِيْظُ المتجهم محباً ، يكاد من فرط الوجد والحياء يذوب ، وانكفاً على يدي محمد ﷺ يقبلهما ، ودموعه تنحدر غزيرةً ، ولما أفاق قال : يا محمد والله لقد سعت إليك ، وما على وجه الأرض أبغض إليّ منك ، وإني لذهاب عنك ، وما على وجه الأرض أحب إليّ منك .

ما الذي حدث ، لقد أحب محمد الرجل من كل قلبه ، فخر جبروت هذا الرجل صريع حب وديع ، قلب محمد ﷺ مفتوح دائماً لكل الناس ، الأصدقاء والأعداء ، وحينما اقترب الرجل من رسول الله ﷺ ، مسّته شعاعة من فيض قلبه الكبير...! معذورة قریش حينما لم تدرك هذا السر ، فقالت إن محمداً لساحر .

من توجيهات النبي ﷺ في الحب والود :

« والذي نفس محمد بيده ، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا »^(١) .

« إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره أنه يحبه »^(٢) .

(١) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه وأحمد والترمذي ، وقد رواه البخاري في الأدب المفرد .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري في الأدب المفرد وأبو داود والترمذي .

« إذا آخى الرجل الرجل ، فليسأله عن اسمه ، واسم أبيه ،
وممن هو ، فإنه أوصل للمودة »^(١) .

« إذا كان ثلاثة ، فلا يتناجى اثنان دون ثالث ، فإن ذلك
يحزنه »^(٢) .

« ومن هجر أخاه سنة ، فهو كسفك دمه »^(٣) .

« وكفى بك إثماً أن لا تزال مخلصاً »^(٤) .

ومن كمال الإيمان ، أنه من آتاه أخوه متصلاً ، فليقبل ذلك
محققاً كان أو مبطلاً ، وشرار الخلق هم الذين لا يقبلون عشرةً ،
ولا يقبلون معذرة ، ولا يغفرون ذنباً ، والمؤمن يصل بين
الناس ، إذا تفسدوا ، ويقرب بينهم إذا تباعدوا .



ما دام الحديث عن الحب ، فإليكم هذا الموضوع العلمي ،
والمطلوب من الإخوة القراء ، أن يبحثوا عن علاقة هذا الموضوع
العلمي بالحب .

(١) أخرجه الترمذي وقال حديث غريب .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم .

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري في الأدب المفرد ، وأبو داود وأحمد وابن سعد ،
انظر الصحيحة رقم ٩٢٨ .

(٤) أخرجه الترمذي وقال حديث غريب .

هناك في الإنسان جهاز خاص للشفاء الذاتي ، لم تأت على ذكره فهارس كتب الطب ، أو قواميسه ، فهناك حالات مرضية مستعصية شفيت بشكل غامض ، ومن دون سبب واضح ، وهذا الجهاز المسؤول عن الشفاء الذاتي ، هو جهاز المناعة ، وهو من الأجهزة الرائعة ، التي أبدعها الخالق جل وعلا ، ليس لهذا الجهاز مكان تشريحي ثابت ، بل هو جهاز جوال ، مبرمج على أن يتعرف على أية خلية غريبة عن خلايا الجسد ، ليقوم بتمييزها ، وأهم ما في هذا الجهاز ذاكرته العجيبة ، فهو لا ينسى - أبداً - أي سلاح واجه به عدواً من أمد طويل ، ولولا هذه الذاكرة العجيبة ، لما كان هناك من فائدة إطلاقاً من التلقيح ضد الأمراض ، تُصنع عناصر هذا الجهاز في نقي العظام ، ويتم إعدادها القتالي في الغدة الصعترية (التيموس) ، معهد إعداد المقاتلين ، وعناصر هذا الجهاز موزعة بين مهمات الاستطلاع ، وتصنيع المصل المضاد ، والقتال ، والخدمات ، لكن فيروس الإيدز ، يدخل إلى الجسم متخفياً ، بشكل مشابه لعناصر هذا الجهاز ، ثم يقضي عليها تماماً ، ومن بين عناصر هذا الجهاز ، فرقة المغاوير ، ذات كفاءة عالية جداً ، وقد اكتُشفت في أواخر السبعينات ، وتستطيع عناصر هذه الفرقة التعرف على الخلايا السرطانية ، وتتجه إليها وتدمرها في وقت مبكر جداً ، أخطر ما في هذا الجهاز ، أن القوة التي تشكله ، وتطوره ، وتأمره ، ليست من داخل الجسم ، بل من خارجه ، إن هذه القوة هي الله جل جلاله ، وأخطر ما في هذا الجهاز أيضاً ، أن الاكتئاب ، والحزن ، والتوتر ، والقلق ، والحقد والشدة النفسية ، تضعف من قوة هذا الجهاز ، وأن

الأمّل ، والحب والهدوء ، والتفاؤل ، تقوي إمكانات هذا الجهاز ، ومن هنا يعدّ التوحيد صحّةً - بالمعنى الدقيق للكلمة - ويعدّ الشرك سبباً للخوف والقلق ، والخوف والقلق سبب لإضعاف جهاز المناعة ، الذي أبدعه الله من أجل الشفاء الذاتي ، قال الله تعالى :

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٣] .

فالعلاقة أصبحت واضحة بين الراحة النفسية ، الناتجة عن التوحيد ، وبين الشفاء ؛ وعن علاقة الشدة النفسية ، الناتجة عن الشرك الخفي ، وبين الوباء .

* * *

إليك قصة جابر بن عبد الله مع رسول الله ﷺ هذه القصة تصور مودة النبي ﷺ بأصحابه ورفقه بهم واهتمامه بمشكلاتهم وتواضعه ومؤانسته لهم :

عن جابر بن عبد الله ، قال : خرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع ، مرتحلاً على جمل لي ضعيف ، فلما رجع رسول الله ﷺ جعلت الرفاق تمضي (أي تسبقني) وجعلت أتخلف (لأن جملي ضعيف) حتى أدركني رسول الله ﷺ ، فقال : مالك يا جابر ؟ قلت : يا رسول الله ، أبطأ بي جملي هذا ، قال : فَأَنْخُهِ ، وأناخ رسول الله ﷺ جمله ، ثم قال :

أعطني هذه العصا من يدك ، ففعلت ، فأخذها رسول الله ﷺ
فنخس بها الجمل نخسات (أي وخزه بها) ثم قال : اركب ،
فركبت فانطلق جملي ، والذي بعثه بالحق ، صار جملي يجاري
ناقة رسول الله ، وتحديث معي رسول الله ﷺ ، قال : أتبعني
جملك هذا يا جابر ؟ قلت : يا رسول الله ، بل أهبه لك ، قال :
لا ولكن بعني ، قلت : فسمني به ، قال : أخذته بدرهم ،
قلت : لا إذاً يغبنني رسول الله ﷺ ، (درهم قليل) قال :
فبدرهمين ، قلت : لا ، فلم يزل يرفع لي رسول الله ﷺ الثمن
حتى بلغ الأوقية ، فقلت : قد رضيت ، قال : قد رضيت ؟
قلت : نعم هو لك ، قال : قد أخذته ، ثم قال لي : يا جابر هل
تزوجت ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، قال : أثيباً أم بكرأ ؟ قلت :
بل ثيباً ، قال : أفلا تزوجت بكرأ ؟ قلت : يا رسول الله ، إن أبي
أصيب يوم أحد ، وترك بنات له سبعاً ، فتزوجت امرأة جامعة ،
تجمع رؤوسهن ، وتقوم عليهن ، فقال : قد أصبت ، إن
شاء الله ، قال : أما إنا لو جئنا (صراراً) [مكان في ظاهر
المدينة] أمرنا بجزور فنحرت ، وأقمنا عليها يومنا ذلك ، فسمعت
بنا (أي : زوجتك) فنفضت نمارقها ، ، قلت : يا رسول الله ،
ما لنا من نمارق ، قال : إنها ستكون إن شاء الله ، فإذا أنت
قدمت فاعمل عملاً كيبساً ، قال : فلما جئنا (صراراً) أمر
رسول الله ﷺ بجزور فنحرت ، فأقمنا عليها ذلك اليوم ، فلما
أمسى رسول الله ﷺ دخل (أي : المدينة) ودخلنا ، قال :
فأخبرت امرأتي الحديث ، وما قال لي رسول الله ﷺ ، قالت :
سمعاً وطاعة (يعني بع جملك لرسول الله) قال : فلما

أصبحت ، أخذت برأس الجمل ، فأقبلت به ، حتى أنخثه على باب رسول الله ﷺ ، ثم جلست في المسجد قريباً منه ، قال : وخرج النبي عليه الصلاة والسلام ، فرأى الجمل ، قال : ما هذا ؟ قالوا : هذا جمل ، جاء به جابر ، قال : فأين جابر ؟ فدعيت له ، فقال : تعال . . . يا بن أخي ، خذ برأس جملك ، فهو لك ، ودعا بلالاً فقال : اذهب بجابر وأعطه أوقية ، فذهبت معه ، وأعطاني أوقية ، وزادني شيئاً يسيراً ، قال : فوالله ما زال ينمو هذا المال عندنا ، ونرى مكانه في بيتنا^(١) .

أرأيتم إلى ملاطفته ﷺ ، إلى رفته ، إلى رفقه بأصحابه ، إلى تواضعه لهم ، هكذا كانت أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام ، قال الله تعالى :

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ٤] .

* * *

ومضات من حرصه على أصحابه :

كان من بين أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، صحابي جليل هو عثمان بن مظعون ، وكان عثمان متبتلاً ، غير مشفق على نفسه ، حتى لقد هم ذات يوم أن يتخلص كلياً من نداء غريزته ، وذات يوم دخلت زوجته على السيدة عائشة رضي الله

(١) حديث جابر في البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وغيرهم .

عنها فوجدتها عائشة رثة الهيئة ، مكتئبة المحيا ، فسألته عن أمرها ، فقالت : إن زوجي عثمان صوام قوام (يعني يصوم النهار ويقوم الليل) فأخبرت السيدة عائشة رسول الله ﷺ بحال هذه المرأة ، امرأة عثمان بن مظعون ، فالتقى النبي عليه الصلاة والسلام بعثمان وقال له : يا عثمان ، أما لك بي من أسوة ، قال عثمان : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، وماذا ؟ قال له رسول الله ﷺ : تصوم النهار ، وتقوم الليل ، قال عثمان : إني لأفعل ، قال عليه الصلاة والسلام :

« لا تفعل ، إن لجسدك عليك حقاً ، وإن لأهلك عليك حقاً ، فأعط كل ذي حق حقه »^(١) .

وفي صبيحة اليوم التالي ، ذهبت زوجة عثمان إلى بيت النبوة ، عطرة نضرة ، كأنها عروس ، واجتمع حولها النسوة اللاتي كانت تجلس بينهن بالأمس ، رثة بائسة ، وأخذن يتعجبن من فرط ما طراً عليها من بهاء وزينة ، قلن لها : ما هذا يا زوج ابن مظعون ؟ قالت وهي مغتبطة : أصابنا ما أصاب الناس .

إنسانية النبي عليه الصلاة والسلام لم تحتل حال زوجة ، يؤرقها هجر زوجها ، فذكر زوجها بما لها عليه من حق .

* * *

(١) حديث صحيح ذكره أبو داود في اختصار ، وذكر بتمامه في سير أعلام النبلاء ١٥٧/١ - ١٥٨ بالفاظ مختلفة .

كان عليه الصلاة والسلام أرحم الخلق بالخلق ، فمن أقواله ﷺ المؤكدة لهذه الحقيقة :

« من كان في حاجة أخيه ، كان الله في حاجته »^(١) .

سئل ﷺ : « يا رسول الله ، أي الناس أحبهم إلى الله ؟ قال : « أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس »^(٢) .

والمؤمن الذي يكون وصلةً لأخيه إلى ذي سلطان ، في مبلغ برٍّ ، أو إدخال سرور ، أو تيسير عسير ، أعانه الله في شؤون حياته كلها .

ويقول أيضاً :

« إن لله أقواماً ، اختصهم الله بالنعم لمنافع العباد ، يقرهم فيها ما بذلوها ، فإذا منعوها نزعها منهم ، فحولها إلى غيرهم »^(٣) .

وقد ورد في الأثر أنه : من استعمل رجلاً في جماعة وفيهم من هو أرضى لله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ، وإن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع .

هذا جانب واحد من جوانب شخصية النبي ﷺ ، وهو الجانب

(١) حديث صحيح ، أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي .

(٢) حديث صحيح أخرجه الطبراني ، وابن عساكر .

(٣) حديث صحيح : أخرجه الطبراني والخطيب وأبو نعيم (انظر الصحيحة ١٦٩٢) .

الإنساني إنه محمد ﷺ سيد الخلق وحيب الحق ، إنه الرحمة
المهداة والنعمة المزجاة ، إنه أرحم الخلق بالخلق ، أحرص
الخلق على هداية الخلق ، سيد الأنبياء والمرسلين ، أقسم الله
بعمره الثمين ، فقال :

﴿لَعَزَّكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر : ٧٢] .

وأثنى على خلقه القويم ، فقال :

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ٤] .

إن النبي ﷺ في نظر المنصفين من خصومه ، الإنسان الأول
من بين المئة الأوائل في تاريخ البشرية كلها ، من حيث قوة
التأثير ، ومن حيث نوع التأثير ، ومن حيث امتداد أمد التأثير ،
ومن حيث اتساع رقعة التأثير .

وأجمل منك لم تر قط عيني	وأكمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرراً من كل عيب	كأنك قد خلقت كما تشاء
وأسدت للبرية بنت وهب	يداً بيضاء طوقت الرقابا
لقد وضعته وهّاجاً منيراً	كما تلد السماوات الشهابا

* * *

الباب السابع

موضوعات محاضرة

الإيدز

الإيدز خطر داهم يهدد العالم بأسره ، ينتشر بمتوالية انفجارية ، ولا سبيل إلى الوقاية من هذا الخطر ، إلا بالتزام منهج الله القويم ، وصراطه المستقيم ، الذي ارتضاه لعباده .

يقول الله تعالى :

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم : ٤١] .

صنع الله متقن غاية الإتقان ، محكم غاية الأحكام ، كامل غاية الكمال ، قال تعالى :

﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل : ٨٨] .

وقال تعالى :

﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك : ٣] .

وقال تعالى :

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَنذِرْ
الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [المك : ٣] .

ذلك لأن كمال الخالق يظهر في كمال الخلق ، وكذلك علمه ، وقدرته ، وحكمته ، أما الفساد ففي تعريفه الدقيق ، هو خروج الشيء عن كمال خصائصه ، وصفاته ، فخصائص الماء - مثلاً - الكاملة أنه لا لون له ، ولا طعم له ، ولا رائحة له ، ففساده تلوثه بعناصر غريبة عنه ، وجراثيم فتاكة لشاربه ، وكذلك فساد الهواء ، وكذلك فساد الأخلاق ، وكذلك فساد العلاقات ، فساد الشيء خروجه عن كمال خصائصه ، وصفاته .

الفساد مستحيل في أصل الخلق ، لأن كمال الله مطلق ، ولكن الفساد ممكن من جهة المخلوق ، ممكن من جهة مخلوق ، أودعت فيه الشهوات ، ليرقى بها صابراً ، أو شاكراً إلى رب الأرض والسموات ، الفساد ممكن من جهة مخلوق ، منح حرية الاختيار ، ليثمن عمله ، ووضع له منهج دقيق ، إذا تحرك من خلاله ، وقاه الضلال والشقاء ، قال تعالى :

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه : ١٢٣] .

لكن الإنسان حينما جهل حقيقته ، وشرد عن ربه ، جعل شهوته هدفاً ، بل إلهاً عبدها من دون الله ، قال تعالى :

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾

[الفرقان : ٤٣] .

وجعل حريته تفلتاً من كل قيد ، قال تعالى :

﴿ إِن هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٤] .

وجعل المنهج القويم ، الذي أنزله الله على رسوله ، جعله وراء ظهره ، ولم يعبا به :

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَذَرُ إِن قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾

[الفرقان : ٣٠] .

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

هذه هي أسباب الفساد مخلوق تفلت من منهج ربه واستخدم حرية الاختيار ليفعل ما يشاء ، وجعل شهوته هدفاً ، عبدها من دون الله .

من النتائج الحتمية لاتباع الهوى - بغير هدى من الله - أن الإنسان الضال يظلم نفسه ، فيشقيها ، ويظلم مجتمعه ، فيفسده ، ويشقيه ، ويظلم البيئة ، فيلوثها ، قال تعالى :

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص : ٥٠] .

ومما يؤكد هذه الحقيقة ، أن الله سبحانه وتعالى ، قال في محكم تنزيله :

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء : ٧٨-٨٢] .

لقد عزي الخلق إلى الله ، وعزيت الهداية إلى الله ، وعزي الرزق إلى الله ، ولكن المرض عزي إلى الإنسان ، بسبب خروجه عن منهج الله :

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء : ٧٨-٨٢] .

بل إنه ما من مصيبة تحل بالبشرية إلا بسبب خروج الإنسان عن منهج ربه ، قال تعالى :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾

[الشورى : ٣٠] .

الفساد يستحيل أن يكون في أصل الخلق ، بل هو طارئ من كسب الإنسان ، وهذا ما تؤكد به الآية الكريمة :

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] .

ولحكمة بالغة جُعِلَتْ علاقة المعصية بنتائجها علاقةً علمية ،
 أي علاقة سبب بنتيجة ، ففي كل معصية بذور نتائجها ، وهذا
 ما يليق بالتشريع الإلهي ، تشريع الخير ، الذي هو في حقيقته
 تعليمات الصانع ، لكن هذه النتائج الويلة للمعاصي ليست هي
 كل النتائج ، بل بعضها ، فالعاصي - فضلاً عن أنه يخسر الدنيا -
 يخسر الآخرة ، وفضلاً عن أنه يعذب في الدنيا ، يعذب في
 الآخرة ، لكن عذاب الدنيا ليس بشيء ، إذا قيس بعذاب
 الآخرة ، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة : ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي
 عَمِلُوا﴾ [الروم : ٤١] قال : بعض الذي عملوا ، ولم يقل كل الذي
 عملوا ، كل هذا... من أجل أن نرجع إلى الله ، في الوقت
 المناسب ، وقبل فوات الأوان ، قال تعالى :

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ
 يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة : ٢١] .

آية أخرى قال تعالى :

﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ
 هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

[القصص : ٥٠] .

هناك باعثنان ، وراء كل أعمال الإنسان ؛ باعث العقل ، أو
 باعث الشهوة ، باعث المبدأ ، أو باعث الحاجة ، باعث
 الآخرة ، أو باعث الدنيا ، باعث إرضاء الله تعالى ، أو باعث

إرضاء الذات ، باعث الخير ، أو باعث الشر ، هذه الاثنيية في
البواعث ليس لها ثالث ، لذلك قال تعالى :

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَنۢبَغُونَكَ أَهۡوَاءُ هُمۡ وَمَنۢ أَضَلُّ مِمَّنۢ أَتَعَ
هُنَا بِغَيْرِ هُدًى مِّنۢ أَللّٰهِ إِنَّ أَللّٰهَ لَا يَهۡدِي الْقَوۡمَ الظَّالِمِينَ ﴾

[القصص : ٥٠] .

يفهم من معاني هذه الآية ، أنه من اتبع هواه ، وفق
هدى الله ، ومنهجه ، وشرعه فلا شيء عليه ، فمن أراد أن يقضي
وطره من الجنس الآخر فتزوج ، لأن الزواج - كما قال عليه
الصلاة والسلام - :

« أغض للبصر وأحصن للفرج »^(١) .

فلا شيء عليه ، إنه اتبع هواه وفق هدى الله ، وشرعه ، ومن
أراد أن يحوز المال ، الذي زين للناس تملكه ، فسلك في كسبه
الطرق المشروعة ، فلا شيء عليه ، لأنه اتبع الهوى ، وفق
هدى الله ، ومنهجه ، وشرعه ، لكن انهيار المجتمعات ، وشقاء
البشرية يتأتى من اتباع الهوى ، بغير هدى من الله .

حينما يصبح الهوى هدفاً ، يسعى إليه الإنسان ، فلا بد أن

(١) رواه البخاري ١٠٦/٢ ومسلم رقم ١٤٠٠ وأبو داود ٢٠٤٦ والترمذي ١٠٨١ .

عدواناً على الآخرين يقع بسببه ، يقع على حقوقهم ، وعلى أموالهم ، وعلى أعراضهم ، وهذا من أشد أنواع الظلم ، قال تعالى : بعد أن قال ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

الإنسان بين هدفين متعاكسين في الاتجاه ، فكلما اقترب من إحداهما ابتعد حكماً عن الآخر ، فإذا اقترب من الهوى ، ابتعد عن سبيل الله ، وإذا اقترب من سبيل الله ، ابتعد عن الهوى ، قال تعالى :

﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص : ٢٦] .

بل إن الجنة ، التي خلق الإنسان لها ، والتي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، إن هذه الجنة التي لا تعلم نفس ما أخفي لها من قرة أعين فيها ، إن هذه الجنة ثمنها مخالفة الهوى ، قال تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾

[النازعات : ٤٠-٤١] .

* * *

هذا الإنسان أعقد آلة في الكون ، هو المخلوق الأول ، هو

المخلوق المكرم ، هو المخلوق المكلف ، في خلاياه وأنسجته ، في أعضائه وأجهزته ، من التعقيد ، والدقة ، والإتقان ما يعجز عن فهم بنيتها وطريقة عملها أعلم علماء الطب ، وفي هذا الإنسان نفس تعتلج فيها المشاعر ، والعواطف ، وتصطرع فيها الشهوات والقيم ، والحاجات والمبادئ ، بحيث يعجز عن إدراك خصائصها أعلم علماء النفس ، وفي هذا الإنسان عقل ، فيه من المبادئ والمسلمات ، والقوى الإدراكية ، والتحليلية ، والإبداعية ما أهله ليكون سيد المخلوقات ، لقد خصه الله جل وعلا بأجهزة دفاع بالغة الدقة .

أولى هذه الأجهزة الجلد ، وهو درع سابعة على البدن ، ترد عنه الجراثيم والأخطار ، وهو خط الدفاع الأول ، وخص المولى جل وعلا كل عضو ، وكل جهاز ، وكل حاسة ، بجهاز دفاع خاص به ، فللعين - مثلاً - الأهداب والأجفان والدمع ، وهذه الأجهزة الخاصة بكل عضو وبكل جهاز هي خط الدفاع الثاني ، وأما خط الدفاع الثالث فهو الدم وجنوده كريات الدم البيضاء ، وعددها خمسة وعشرون مليون كرية في أيام السلم ، ويتضاعف هذا العدد في أيام الاستنفار ، وقد يصل إلى مئات الملايين في حال القتال ، في مدة زمنية لا تتجاوز الساعات والأيام .

لهذه الجيوش الجرارة من الكريات البيضاء ، سلاح إشارة ، مؤلف من بضع مواد كيماوية ، يُعد هذا السلاح وسيلة التفاهم فيما بينها .

أما خطة جهاز المناعة في الدفاع عن الجسم ؛ فهي من الدقة

والتنسيق والفعالية بحيث يصعب تصديقها ، ذكية جداً خلايا الدم البيضاء - كما يقول بعض العلماء - إن في نظام عملها ، أو في توزيع الأدوار القتالية على أفرادها ، أو في تحقيق المهمات المنوطة بها ، فبعد ثوان معدودات ، من اجتياز أي جسم غريب لخطوط الدفاع الأولى ، والثانية ، تتوجه هذه الكريات البيض إلى الجسم الغريب بمهمة استطلاعية فقط ، حيث تأخذ الشيفرة الكيماوية ، من هذا الجسم الغريب ، وتحتفظ بها ثم تنقلها إلى المراكز للمفاوية ، مراكز تصنيع السلاح ، وهنا تنتهي مهمتها ، وفي المراكز للمفاوية ، تقوم الكريات البيض الأخرى ، الكريات المحصنة ، الصانعة بتفكيك رموز هذه الشيفرة ، تمهيداً لصنع المصل المضاد ، وهذه الكريات البيض اسمها الكريات المصنعة ، المحصنة ، وبعد صنع المصل المضاد تنتهي مهمتها ، ثم تأتي الكريات المقاتلة ، وتحمل هذا المصل المضاد ، والسلاح الفعال ، وتتوجه به لتهاجم الجسم الغريب ، وتنشب المعركة بين هذه الكريات المقاتلة ، وهذا العدو المهاجم إلى أن تصرعه ، وعندئذ تنتهي مهمتها ، ثم تأتي الكريات اللاقمة ، لتنظف ساحة المعركة من جثث الأعداء .

كريات مستطلعة وكريات مصنعة وكريات مقاتلة وكريات منظفة وهذه الكرية لا يزيد قطرها عن خمسة عشر ميكروناً ، وفي المليمتر المكعب هناك سبعة آلاف كرية :

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿١﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾

[التين : ٤-٥] .

لكن الإنسان حينما ينحرف عن منهج ربه ، ويستجيب لنداء
 غريزته ، من دون ضابط من شرع ، أو رادع من فطرة ، أو زاجر
 من عقل ، يبطل عمل هذا الجهاز ، ويموت الإنسان لأدنى
 سبب ، وما مرض نقص المناعة المكتسب بالإثم (الإيدز) إلا
 تأكيد لهذه الحقيقة ، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم - فمن
 انحرف عن منهج ربه - ثم رددناه إلى أسفل سافلين .

لو نظرت إلى شاب مصاب بهذا المرض الخطير ، مرض
 نقص المناعة المكتسب بالآثام ، لرأيت هزيل الجسم منجرداً :

متواصل الأنفاس مضطرب	متلجلج الألفاظ مضطرب
كسراج كوخ نصف متقد	عيناه عالقتان في نفق
ورق الخريف أصيب بالبرد	تهتز أنمله فتحسبها
منديله قطع من الكبد	ويمج أحياناً دماً فعلى
وإذا ترقى تقول بعد غد	قطع تقول له تموت غداً

والموت الزؤام ، هو المصير المحتوم ، لكل مسرف ، مصاب
 بهذا المرض .

مستوحش الأرجاء منفرد	مات الفتى فأقيم في جدث
سطراً به عظة لذي رشد	كتبوا على حجراته بدم
فإذا مررت بأختها فحد	هذا قتيل هوى بنت هوى

من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام ، ما رواه ابن ماجه ، والبيهقي ، واللفظ له ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال :

« يا معشر المهاجرين ، خصال خمس ، إن ابتليتم بهن ، ونزلن بكم ، أعوذ بالله أن تدركوهن ، لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشت فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم ، ولم ينقصوا المكيال والميزان ، إلا أخذوا بالسنين ، وشدة المؤنة ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم ، إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله ، وعهد رسوله ، إلا سلط عليهم عدو من غيرهم ، يأخذ بعض ما في أيديهم »^(١) .

لقد عمَّ العالم مرض وبائي معد ، سببه فيروس ، لم يكن معروفاً من قبل ، وبحسب إحصائيات منظمة الصحة العالمية ، قبل ستة أشهر ، هناك أربعة وثلاثون مليون مصاب في العالم ، لكن هناك خبراء يؤكدون أن العدد الحقيقي قد يكون ضعف هذا العدد أو أكثر ، ومما يزيد الحالة سوءاً ، عجز العالم بكل مؤسساته ، وهيئاته العلمية وإمكاناته المالية ، عن صنع لقاح مضاد لهذا المرض ، إن هذا الفيروس لا ينتشر في أكثر حالاته إلا

(١) رواه ابن ماجه رقم ٤٠١٩ والحاكم في المستدرک وقال هذا حديث صحيح الإسناد ورواه البزار والبيهقي ومالك في الموطأ موقوفاً ، والحديث صحيح بكثرة طرقه وشواهده (١٠٦) .

من خلال الإباحية ، والفوضى الجنسية ، والإدمان على المخدرات ، ومن خلال انتشار السياحة من أجل الجنس ، أي إنه - وهذه حكمة الخالق - مرتبط بالسلوك الشخصي ، في الدرجة الأولى ، وهناك مفارقة حادة يختص بها هذا الوباء ، فبينما نجد أن معالجته مستعصية إلى درجة الاستحالة ، فالموت الزؤام مصير كل مصاب به ، نجد في الوقت نفسه أن الوقاية منه سهلة ، إلى درجة أن كل إنسان - لم يصب بهذا المرض - يملك الوقاية التامة ، من خلال التزامه بالمنهج الإلهي ، من حيث العفة والاستقامة ، فكل شهوة أودعها الله بالإنسان جعل الله لها قناة نظيفة تتحرك فيها ، وأوامر الدين ضمان لسلامتنا ، وليست قيوداً لحريتنا .

الشيء المحير ؛ أن هذا الفيروس يستطيع أن يغير شكله في أي وقت ، فلو أنفقت ألوف الملايين في البحث العلمي عن لقاح مضاد له ، تذهب هذه الأموال أو تلك الجهود أدراج الرياح ، حينما يغير هذا الفيروس شكله ، فضلاً عن أن لهذا الفيروس سلالات عديدة ، فمن نجا من سلالة أردته أخرى ، وكأن الله جل جلاله يريد من الإنسان المتفلسف ، أن ينجو من هذا المرض ، بالعفة والاستقامة ، لا باللقاح والدواء ، قال تعالى :

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم : ٤١] .

وشيء آخر يقوله العلماء ، وهو أنه لو افترض ، جدلاً ، وهذا أقرب إلى المستحيل ، أن جهود العلماء في السنوات الخمس القادمة توصلت إلى لقاح مضاد لهذا الفيروس ، فإن تكاليف معالجة المريض الواحد تزيد على عشرة ملايين ليرة سورية .

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] .

في دراسة إحصائية دقيقة ، أجريت في بلد تفاقم فيه انتشار هذا المرض ، بسبب الإباحية والفوضى الجنسية ، وجدوا أنه في كل عشر ثوانٍ ، يموت إنسان بهذا المرض ، وأُذِيعَت هذه الدراسة في بعض الإذاعات العالمية ، ذلك بأن هذا المرض ينتشر بمتوالية هندسية ، ويبدو أن المتوالية الهندسية لا تعبر عن حجم انتشاره ، ينبغي أن نقول إن هذا المرض ينتشر بمتوالية انفجارية مخيفة ، وهناك دراسات إحصائية أخرى ، تتوقع أن يكون عدد المصابين في العالم في عام ألفين مئة وعشرين مليون مصاب ، نشر هذا في صحيفة تصدر في دمشق ، وهناك من يعتقد أن هناك مصاباً بهذا المرض ، وحاملاً له ، لكنه وجد أن الحامل لفيروس هذا المرض مصاب به حتماً ، لكنه لا يزال في دور الحضانة ، وأما أعراضه المرعبة ففي طريقها إلى الظهور ، فلا معنى للتفريق بين المصاب والحامل ، لأن الفرق بينهما فرق وقت ، لا فرق نوع .

من المفارقات الحادة ، أن العالم كله ، ولاسيما الدول المتقدمة بمقياس العصر المادي ، العالم كله بكل إمكانياته المادية ، والعلمية يقف عاجزاً ، مكتوف اليدين أمام أضعف فيروس حتى الآن ، يفتك بالملايين الذين انحرفوا بأخلاقهم ، عن المنهج القويم ، وكأن هذا الفيروس جند من جنود الله ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، جعله الله عقاباً عاجلاً لمن خرج عن الفطرة السليمة ، فضل وأضل ، وفسد وأفسد ، إذ لا سبيل إلى الخلاص منه ، إلا بالعودة إلى المنهج القويم ، والصراط المستقيم ، ومما يؤكد ذلك - وهذا ما حير العلماء - أن البعوضة تغرس خرطومها في جسم مصاب بهذا المرض ، وتأخذ من دمه الملوث ، ثم تنتقل إلى إنسان سليم من هذا الفيروس ، وتغرس خرطومها في دمه النظيف ، ويختلط دم السليم بدم المصاب ، ولا ينتقل المرض ، أليست هذه آية صارخة ، تدل على أن الله جل جلاله جعل هذا المرض الفتاك عقاباً على السلوك الإباحي ، ليس غير ، ولم يجعل الإصابة به عشوائية .

لو أن بلدةً تشرب ماءً ملوثاً ، فظهر في أبنائها الأمراض ، والأوبئة فهل من العقل والحكمة ، أن ندع الماء الملوث يفتك بأبناء هذه البلدة ، ثم نبحث عن المصل المضاد ، واللقاح الشافي ، وأن نستقدم الأطباء ونشيد المشافي ، ونستورد الأجهزة ؛ أم العقل والحكمة يقتضي أن نوقف الماء الملوث ، أو أن نظهره من التلوث ، وعندها نطوق المشكلة ، ونحد من انتشارها ، ثم نلتفت إلى معالجة المصابين .

من المؤسف أن هذا ما لا يجري في العالم كله ، إنهم لا يقفون في وجه أسباب المرض ، بل يحاولون أن يمنعوا أعراضه ونتائجه ، إن درهم وقاية خير من قنطار علاج .

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَمَلِهِ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَّبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مَن بَعْدَ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة : ٢٣] .

الشباب الذي يبحث عن عمل ، ثم يبحث عن زوجة ، هو في الظاهر يبحث عن كفايته ، ويقضي حاجته ، وهو في الحقيقة يسهم في بناء أمته ، لأن الأسرة النظيفة المتماسكة هي الخلية الأولى في جسم المجتمع السوي المتقدم ، والشباب الذي يهمل عمله ، ويقضي وطره من طرق غير مشروعة ، ومع فتيات ساقطات ، يسهم من حيث يريد أو لا يريد ، من حيث يعلم أو لا يعلم في تدمير نفسه ، وأسرته ومجتمعه ، وهل الأمة إلا بشبابها ، الأصحاء ، الأقوياء ، المستقيمين وشاباتها .

يا بناء الجيل هيا حصنوا هذا البناء
احفظوا جيل الشباب أرشدوهم للصواب
فهم النبع الغزير ولكم عذب الشراب
حصنوا كل الشباب لينيروا كالبدر
يسروا أمر الزواج لا تغالوا بالمهور
واحذروا داء التباهي بالأثاث والقصور

إنما نبع السعادة كامن ضمن الصدور
احذروا الفيروس فهو الآن جمر يختفي تحت الرماد
إن تجاهلنا الحقيقة فاجأتنا النار يوماً واكتوى كل العباد
بددوا الجهل بعلم أيقظوا أهل الرقاد
توجوا العلم بطهر صادق فهو العماد
هاهو الفيروس يغتال الضحايا قاصداً كل البلاد
وهو أعمى عن شباب طاهر يأبى الفساد
إنما العفة ماء بارد عذب زلال
يطفىء الجمر ويروي كل من طلب الحلال
واحدروا الغفلة عما في سما الدنيا يطير
فالسوم يجري بثها عبر الأثير
من محطات الأعادي عبر شاشات صغيرة
تعرض الجنس قبيحاً في الليالي والظهيرة
يزرعون الشوك في درب الزفاف

ولكن ينبغي أن ننوه أنه بفضل الله علينا ، وبسبب من تمسك
مجتمعنا بمبادئ دينه القويم ، فإن هذا المرض الخطير الذي يعد
الطامة الكبرى في العالم كله ، لا يعد مشكلة في بلدنا الطيب ،
فالإصابات لا تزيد على مئة أو أكثر بقليل ، وأكثر هذه الإصابات
من الوافدين من بلاد أجنبية ، وهناك إجراءات حازمة تحد من
انتشاره :

﴿ فَأَمَّا يَا لَيْتَكُمْ مَنِ هَدَىٰ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

[طه : ١٢٣] .

﴿ فَمَنِ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨] .

من يتبع هدى الله لا يضل عقله ، ولا تشقى نفسه ، ولا يندم
على ما فات ، ولا يخشى مما هو آت .

* * *

الدخان

أوراق التبغ تتكون من ثلاثمئة مادة ، تختلف بحسب نوع التبغ ، أما السم الأساسي في أوراق التبغ فهو النيكوتين ، هذا السم يُعد من أهم مكونات التبغ .

لو أننا حقنا كلباً بواحد على عشرة من الغرام من هذا السم لمات فوراً .

لو أن قطرة من هذا السم ، حُقنت في دم الإنسان ، لمات فوراً .

لو أن أربع قطرات ، حُقنت في وريد حصان ، لمات بعد أربع دقائق .

هناك سم آخر في الدخان ، يحتوي على مئتي ضعف ، مما تسمح به منظمات الصحة ، والهيئات الصحية ، في الصناعة الغذائية .

هناك سم آخر يضعف عمل الكريات الدم الحمر ، هذا السم يتحد مع كريات الدم الحمر ، فيعيق تبادل الأكسجين مع غاز الفحم ، وهذا الذي يتعب المدخن .

في الدخان غازان سامان ، هذان الغازان مسرطانان ، وفي هذين الغازين - أيضاً - فحوم مسرطنة أيضاً ، هذا البحث العلمي مأخوذ من أوثق المصادر الرصينة .

إحصاء رسمي في أمريكا ، هناك ألف وفاة كل يوم ، بسبب الدخان .

هذا العدد يزيد سبعة أضعاف ، على عدد الذين يموتون في حوادث السير ، مع أن أعلى نسبة يموت فيها الناس ، هي في حوادث السير .

منظمة الصحة العالمية تقول : إن التدخين يُعد سبباً حتمياً لأمراض مميتة .

وهناك من يتوهم أن هناك دخاناً مصفى ، ودخاناً غير مصفى ، فالدخان المصفى صفي عن طريق الفلتر ، الحقيقة العلمية الصارخة أن الفلتر يمنع دخول القطران إلى الرئتين ليس غير ، بينما كل السموم التي في الدخان تنتقل عبر الفلتر ، فهذا الوهم أن هناك دخاناً مفلتراً محض وهم لا يقوم على أساس من الصحة .

أخطر ما في الدخان أن أضراره لا تنحصر في المدخن نفسه ، بل تنتقل إلى من حوله ، من زوجة ، وأولاد ، وزملاء في العمل ، فإذا كنت جالساً في غرفة لمدة أربع ساعات ، فيها مدخن ، فكأنما دخنت عشر دخينات ، وأنت في المصطلح الطبي مدخن سلبي ، أنت لا تدخن لكنك تجالس مدخناً ، فهذا الذي يدخن ويستمتع بنكهة الدخان يؤذي غيره ، وهو لا يدري .

حتى تكون المعالجة علمية ، هناك حالات نادرة جداً ، إنسان يدخن ولا يصاب بشيء ، هذه الحالات النادرة ، هل بإمكانك أن تتأكد أنها تنطبق عليك .

طبيب لامع جداً ، له أب تجاوز الثمانين ، وهو يدخن ، ولم يصب بأذى ، توهم هذا الطبيب من خلال هذه التجربة التي أمامه أن الدخان لا يؤذيه ، فأفرط في الدخان ، في الثانية والخمسين أصيب بمرض عضال في قلبه ، وأوعيته ، فلما عاد من أمريكا ، وقد أجرى عملية زرع الشرايين ، سُئل كيف تدخن ، وأنت الطبيب اللامع ؟ فقال : توهمت من خلال تجربة والدي ، أن الدخان لا يضر .

هل أنت متأكد ، أنك أحد هذه الحالات النادرة ، التي لا تتأثر بالدخان ؟

الحقيقة الثابتة : أنه لا الطبيب ، ولا المدخن ، يستطيع أن يتنبأ بأنك ستنجو من أخطار التدخين ، وهذه الحالات النادرة لها عدة تفسيرات معقدة جداً .



وسنستعرض أجهزة الجسم ، وعلاقتها بالدخان ، واحداً واحداً .

جهاز التنفس :

ما علاقته بالدخان ؟ قال العلماء : إن أشد الأجهزة تأثيراً بالتدخين هو جهاز التنفس ، لأن جهاز التنفس كعنقود العنب ، كل حبة هي حويصل رئوي ، الحويصل فراغ ، تتم في هذا الفراغ مبادلة غاز الفحم بالأكسجين ، هذه المبادلة حيوية وأساسية جداً ، فماذا يفعل التدخين في هذه الحويصلات ؟

التدخين يخرب الأنسجة المبطنة للأسناخ الرئوية التي هي الحويصلات .

وفي القصبة الهوائية أهداب مزروعة في كل جدرانها ، هذه الأهداب تتحرك نحو الأعلى دائماً ، لطردها أية مادة غريبة ، مادة إنتانية ، مادة التهابية ، قشع ، أشياء أخرى ، هذه الأهداب تدفعها نحو الأعلى دائماً ، سُم النيكوتين يشل عمل هذه الأهداب ، لذلك تجتمع هذه القطوع ، هذه الإنتانات ، هذه المخلفات في القصبة الهوائية ، وتتخذها موطناً ، لأن جهاز الطرد نحو الأعلى مُعطل .

المدخن معرض أكثر من غيره للإصابة بمرض ذات القصبات وذات الرئة ، ومرض انتفاخ الرئة ، وهناك علاقة إيجابية جداً بين التدخين ، والإصابة بسرطان الرئة .

الإحصائية العلمية الدقيقة تؤكد أنه من خلال ألف مدخن ، ستون مدخن يُصاب بسرطان الرئة .

ومن بين ألف إنسان غير مدخن ، شخصان فقط يُصابان بسرطان الرئة .

قال بعض العلماء : سموم الدخان تسبب طفرات في الخلية ،
والطفرة في الخلية تحدث بسبب التخرش ، وهي - أي الطفرة -
أحد أسباب سرطان الأنسجة .

القلب والأوعية :

إن معظم الإصابات القلبية ، والوعائية القاتلة ، معظمها يعود
إلى التدخين .

أطباء جراحة القلب يؤكدون : أن أكثر المداخلات الجراحية ،
التي يجرونها على القلب ، بسبب آفات ، تعود أسبابها - في
الدرجة الأولى - إلى التدخين .

طبيب آخر يعالج الأنف والأذن والحنجرة ، حينما يأتيه إنسان
مصاب بسرطان الحنجرة ، يضع يده فجأة على صدره ، فإذا في
جيبه علبة لفائف تبغ ، يقول هذا السرطان من هذه العلبة .

السبب الأول لهذه الأمراض الوييلة ، أن سم النيكوتين ،
يتحد مع خضاب الدم ، فيمنع أخطر وظيفة حيوية ، وهي تبادل
الأكسجين بغاز الفحم .

حقيقة خطيرة جداً وهي ، أن ربنا جل جلاله - تكريماً لهذا
الإنسان ، وتحقيقاً لسلامته ، وصوناً له من العطب - جهزه بآليات
بالغة التعقيد لحفظه من الأخطار .

فلو أن أحدنا شاهد شيئاً مخيفاً - أفعى مثلاً - ماذا يحدث ؟
صورة الأفعى تنطبع على شبكية العين وتحس بها ، وشبكية العين
تنقلها إلى الدماغ عبر العصب البصري ، ليدرك معنى هذه

الصورة ، بحسب المفهومات المكتسبة ، والدماغ ملك الجهاز العصبي ، يخاطب ملكة الجهاز الهرموني (الغدة النخامية) عن طريق ضابط اتصال ، هو الجسم تحت السرير البصري ، هذه الغدة النخامية تتلقى أمراً من الدماغ بالتصرف من أجل السلامة ، هي ملكة ، وعندها عناصر هرمونية فعالة ، ترسل هذه الغدة النخامية أمراً إلى الكظرين بإفراز خمسة هرمونات ، الأول يسرع القلب ، والثاني يزيد وجيب الرئتين ، والثالث يضيق الأوعية المحيطة من أجل أن يذهب الدم إلى العضلات لا إلى الجلد ، والرابع يزيد سكر الدم ، والخامس يزيد هرمون التجلط . كل هذا بفعل هرمون الأدرينالين الذي يفرزه الكظر .

أي إن الخائف يزداد نبض قلبه ، ويزداد وجيب رئتيه فيلهث ، وتضيق لمعة أوعيته المحيطة فيصفر لونه ، ولو فحص دمه لوجدت نسبة السكر عالية ، وكذلك نسبة هرمون التجلط الذي يفرزه الكبد ، سم النيكوتين يفعل فعل الأدرينالين نفسه ، فعند المدخن دائماً ؛ تسرع في نبض قلبه ، وازدياد في وجيب رئتيه ، وضيق في الأوعية المحيطة لذلك يبدو أصفر اللون ، وفي دمه زيادة في هرمون التجلط ، وارتفاع في نسبة السكر في الدم ، فهو معرض أكثر من غيره بثمانية أضعاف للجلطة في الدم ، هذه حقيقة مسلم بها .

أحد أسباب مرض الموت (الغرغرين) ، هو الدخان ، لأن الدخان يرفع نسبة اللزوجة في الدم ، فإذا ارتفعت نسبة اللزوجة ، صار من الصعب أن يسلك الدم في أدق الأوعية ، عندئذ تصاب

أطرافه السفلية والعلوية بالموات لضعف التروية .

الدخان يسبب مرضاً نادراً اسمه (التهاب الأوعية الانسدادي) ، فالأوعية حينما تلتهب تُسد لمعتها ، وانسدادهما يعني ضعف التروية ، الأمر الذي يسبب مرض الموات أيضاً .
وهناك مرض يصيب المدخنين ، ومن أعراضه زرقة الجلد ، واحمرار اليدين .

الدماغ والأعصاب :

الدماغ البشري هو أنبل عضو في الإنسان ، فيه مئة وأربعين مليار خلية استنادية ، لم تُعرف وظيفتها بعد ، وفيه أربعة عشر مليار خلية قشرية ، هي مساحة النشاط الفكري في الإنسان ، هذا العضو النبيل الذي عجز عن فهم نفسه ، والذي هو أعقد ما في الإنسان ، والإنسان أعقد آلة في الكون ، وقد كُرم الإنسان به .

ماذا يفعل التدخين به ؟ سموم التدخين المنحلة في الدم ، إذا وصلت إلى الدماغ ، يتلفها الدماغ بسهولة فائقة ، وبنهم كبير ، هذا الدماغ حينما يأتيه هذا السم يشعر الإنسان بشيء من الخدر ، بشيء من الفتور ، هذا النيكوتين المنحل في الدم ، والذي يصل إلى الدماغ ، يعطي الإنسان شعوراً بالخدر تارةً ، وشعوراً بالنشاط تارةً أخرى ، فالدخان مهديء ومنشط في آن واحد ، وهذا هو سر الإدمان .

هذا السم في الدماغ يضعف تغذية الأعصاب ، فتصاب الأعصاب بالالتهاب ، ومن آثار هذا السم في الأعصاب ، رجفان

في الأعضاء ، فالمدخن ترجف يداه ورجلاه ، هذا الرجفان بسبب أن أعصاب الدماغ التهبت ، والتهابها بسبب ضعف ترويتها .

حاسة الذوق تضعف عند المدخنين . وصداع في الرأس ، وآلام عصبية في الأطراف ، والدخان يضعف الذاكرة ، المدخن كثير النسيان ، ومن أعراض التدخين العصبية فتور النشاط العقلي ، غير المدخن أذكى من المدخن ، وأسرع استجابة منه .
دراسة علمية شملت ستة آلاف وثمانمئة حالة ، من أهم نتائجها ، أن هناك علاقة واضحة جداً ، بين الدخان وضعف الذكاء .

العين :

الدخان يسبب التهاباً في الملتحمة ، وجفافاً في الأجفان ، والتهاباً في العصب البصري ، ويسبب نقصاً في الفيتامين ب ١٢ .

جهاز الهضم :

تسعون بالمئة من سرطان الشفة يصيب المدخنين ، ويكثر عند المدخنين سرطانات اللسان والمري ، وتقرحات اللثة ، واللسان ، والتهاب الغدد اللعابية ، وتضخم هذه الغدد ، وتلوثها ، وعسر البلع أحياناً ، بل إن الدخان يؤدي إلى تسمم الخلية الكبدية ، وقصور الكبد أو تشمعه ، ثم سرطان الكبد .

الجهاز التناسلي :

فالدخان أحد أكبر أسباب إصابة الرجل بالضعف الجنسي ، وتشوه النطف ، يؤدي إلى العقم عند الرجال ، والعقم عند النساء ، ويضعف العلاقة بين الزوجين ، وأكثر حالات الإجهاض والإملاص (ولادة الجنين ميتاً) بسبب الدخان ، والولادة قبل الأوان ، ونقص الوزن سببه الدخان ، وكثرة وفاة الرضع بسبب الأم المدخنة ، والتشوهات الخلقية ، والوفاة في المهد ، وربو الأطفال ، والصمم ؛ كله يعزى إلى الأم المدخنة .

أما الشيء الذي لا يصدق ؛ فهو أن هذا السم القاتل يشربه الطفل المولود حديثاً مع حليب أمه ، فحليب الأم المدخنة فيه هذا السم القاتل ، لذلك تعد الإقياءات المتكررة ، والتشنجات ، وتسرع قلب الوليد ، من آثار سموم الدخان ، التي تدخل جسم الرضيع ، عن طريق حليب أمه المدخنة .

كما أن كثافة سموم الدخان ، في ثدي المرأة ، يؤدي إلى تخرش الثدي ، وهذا التخرش يؤدي إلى سرطان الثدي عند المرأة المدخنة .



العلماء المسلمون السابقون ، لضعف معرفتهم بمضا التدخين ، وقعوا في فتاوى متضاربة ، فالعلامة ابن عابدين صاحب الحاشية في الفقه الحنفي وهي أوسع مرجع في الفقه

الحنفي ، يقول في حديثه عن التن :

منهم من قال بحرمة ، ومنهم من قال بکراهته ، ومنهم من قال بإباحته ، لأن أضراره لم تكن واضحة ، والأصل في الأشياء الإباحة ، فإذا كان عالم قديم أباح الدخان ، وغيره أيضاً أباح الدخان ؛ فبسبب نقص حاد في معرفتهم بأضرار الدخان ، ولو انتهت إلى علمهم الحقائق القاطعة عن مضر الدخان ، لكانوا أسرع منا في تحريم الدخان .

الشيء الثاني : هناك قاعدة أساسية ، أن الأصل في الأشياء الإباحة ، والتحريم يحتاج إلى نص ، أما في العبادات فالأصل فيها الحظر ، وتشريع العبادة يحتاج إلى نص .

وبعد أن استعرضنا هذا الكم الكبير ، عن أخطار التدخين ، لا مجال مطلقاً للحديث عن إباحته ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام ، أرسله الله رحمة للعالمين ، وليحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث .

هل من عاقل واحد ، يمسك دخينة ويشربها ، وقبل أن يشربها ، يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، وبعد أن يشربها ، يقول : الحمد لله اللهم زدنا من هذه النعم ، هذا مستحيل ، إذاً هذا دليل فطري على أن الدخان خبيث .

يقول الله عز وجل :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوَرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي

كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَأَلْذِيْنَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوْهُ وَنَصَرُوْهُ وَاتَّبَعُوا النُّوْرَ الَّذِىۡ اُنْزِلَ
مَعَهُۥٓ اُولٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ ﴿١٥٧﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

هناك حقيقة خطيرة وهي : أن مئة شخص يشربون الخمر ،
خمسـة عشر منهم يدمنون على الخمر ، طوال حياتهم ، فنسبة
الإدمان بين شاربـي الخمر خمسـة عشر بالمئة ، ومئة رجل يشربون
الدخان ، خمسـة وثمانون بالمئة منهم يدمنون على الدخان ،
طوال حياتهم ، فنسبة الإدمان في الدخان ، أعلى من نسبة
الإدمان في الخمر .

إحصائية دقيقة في أمريكا وهي : أن ضحايا التدخين في
الولايات المتحدة الأمريكية - وحدها - ثلاثمئة وخمسون ألف
شخص سنوياً ، بمعنى أن كل يوم يموت ألف مدخن ، وخمسون
ألف من المدخنين السلبيين الذين لا يدخنون ، لكن آباءهم أو
أمهاتهم أو زملاؤهم يدخنون .

مجموع الذين يموتون بسبب التدخين - في دولة واحدة - في
الغرب أربعمئة ألف إنسان بواقع ألف وزيادة كل يوم .

الدخان المستورد أو المهرب من أمريكا دخان رديء جداً ،
نسب سموم الدخان فيه عالية جداً إلى درجة عشرة أضعاف ،
العلبة نفسها ، والعلامة التجارية نفسها ، السعر نفسه ، إلا أن
الدخان الذي يُصدر إلى بلاد الشرق الأوسط ، دخان من الدرجة
العاشرة .

عالم من علماء مصر . . . بلغه أنه - في معامل الدخان - أوراق التبغ تُنقع في الخمر ، ذهب بنفسه إلى أمريكا ، قبل أن يكتب ، أراد أن يكون شاهد عيان ، ورأى بأم عينه ، كيف أن أوراق التبغ تُنقع في الخمر ، وعاد وألف كتاباً ، فإذا قيل في إعلانات هذا الدخان . . . تعال إلى حيث النكهة ، إنها نكهة الخمر الذي نقع فيها الدخان .

دراسة في بريطانيا ، أجريت على ثلاثة وثمانين رجلاً مدخناً ، تؤكد أن ثلاثة أشخاص من كل عشرة أشخاص ، سيلاقون حتفهم بسبب أمراض ، ناتجة عن التدخين ، أما الباقون فسيعانون من أمراض مزمنة لها علاقة بالتدخين .

وأما عن الخسائر الناتجة عن الحرائق بسبب أعقاب السجائر فهي تفوق كل أرباح الشركات ، والضرائب ، التي تُحصل من هذه الصناعة .

وفي بلادنا الجميلة وفي غاباتها المتميزة ، ألقى إنسان متنزه عقب سيجارة فأحرق مئتين وخمسين هكتاراً من الغابات الخضراء كل هذه الخسارة بسبب عقب سيجارة واحد .

وهناك وهم عند بعض المدخنين ، يقول : أنا لا أشكو شيئاً ، أجري وأركض ، وأتمتع بصحة جيدة وأدخن ، لقد غابت عنه حقيقة خطيرة وهي أن أخطار الدخان تتراكم في الجسم ، من دون

أن تظهر آثارها إلا بعد إجراء فحوص دقيقة ، فالإنسان يتوهم أنه خالٍ من كل مرض ، لكن آثار الدخان تتراكم ، هناك خط أحمر ، فإذا بلغ هذا التراكم الخط الأحمر ، ظهرت هذه الأعراض فجأة . هذا يُسمى انكسار خط المقاومة ، أنت تضع في الميزان في إحدى كفتيه خمسة كيلوغرامات ، وفي الكفة الثانية تضع كيلو ، اثنين ، ثلاثة ، أربعة والكفة راجحة ، فجأة عندما يصبح الوزن المقابل خمسة كيلوغرامات تتحرك الكفة ، ما الذي حركها ؟ هذه القشة الأخيرة ، آخر غرام ؟

لا... الذي حركها التراكم السابق ، مضافاً إليه هذه القشة الأخيرة ، هذه القشة التي قصمت ظهر البعير .

أحد العلماء الأجانب ، يقول : شركات التبغ هي شركات القتل ، أو شركات تتجر بالموت .

هناك رجل وسيم جداً ، تتخذة شركات الإعلان وسيلة للإعلان عن الدخان ، يرتدي ثياب رعاة البقر ، ويضع قبعةً على رأسه ، ويدعوك إلى التدخين ، مات في سن الشباب بسبب التدخين ، قال وهو على فراش الموت : كنت أكذب عليكم ، الدخان قتلني ، لا تكن ضحية الكذب ، لا تكن ضحية إعلان رخيص ، لا تكن ضحية شركة تبحث عن الربح ، ولا تعباً بصحة الآخرين ، ربنا عز وجل يقول :

﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

الذي يدخن يلقي بنفسه إلى التهلكة .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٢٩] .

الإسلام حرم الانتحار ، والتدخين يصفه العلماء بأنه انتحار بطيء . هناك انتحار سريع ، أن تطعن نفسك بسكين ، في مكان قاتل ، هذا انتحار سريع ، والانتحار البطيء أن تدخن :
﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ .

« عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا » ^(١) .

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن كل مسكر ومفتر :

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد والدارمي .

« عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ وَمُفْتِّرٍ »^(١) .

الفقير إن دخن اسمه سفيه ، والغني إن دخن اسمه مبذر ،
قال تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾

[الإسراء : ٢٧] .

الأراضي الشاسعة التي تُشغل بزراعة الدخان والتبغ ، لو أنها
زرعت بالخضراوات والفواكه لعمّ الخير ، ولزاد الدخل ،
ولسلمت صحة الناس ، ولكننا بحال غير هذا الحال .

كبير علماء الدولة العثمانية أصدر فتوى في تحريم الدخان .

العلامة إبراهيم اللقاني أصدر فتوى في تحريمه .

الشيخ سالم السنهوري أصدر فتوى في تحريمه .

مفتي المملكة العربية السعودية أصدر فتوى في تحريمه .

الشيخ بدر الدين الحسيني شيخ الشام أصدر فتوى في
تحريمه .

الشيخ علي الدقر أصدر فتوى في تحريمه .

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود بإسناد حسن .

الشيخ محمد الحامد أصدر فتوى في تحريمه .
علماء كبار أصدروا فتاوى تلو الفتاوى في تحريم الدخان .
شيخ الأزهر ، الشيخ جاد الحق - رحمه الله - أصدر فتوى هذا
نصها :

(أصبح واضحاً جلياً ، أن شرب الدخان ، وإن اختلفت
أنواعه ، وطرق استعماله ، يلحق بالإنسان ضرراً بالغاً ، إن
عاجلاً ، أو آجلاً في نفسه ، وماله ، ويصيبه بأمراض كثيرة ،
ومتنوعة ، وبالتالي يكون استعماله حراماً ، بمقتضى النصوص التي
سبق إيرادها ، ومن ثمّ ، فلا يجوز لمسلم استعماله ، بأي وجه
من الوجوه ، حفاظاً على الأنفس ، والأموال ، وحرصاً على
اجتناب الأضرار ، التي أوضح الطب حدوثها) .

هذه الحقائق كلها مأخوذة من منظمات صحة عالمية ، أو من
جامعات راقية جداً ، أو من بحوث متقدمة ، وهذه هي الحقيقة .

لجنة من كبار علماء الطب في العالم الغربي ، قدمت تقريراً
من ثلاثمائة وسبع وثمانين صفحة كبيرة ، عنوان هذا البحث
« الدخان والصحة » ، وهذا البحث يؤكد أن هناك أخطاراً مدمرة ،
وخطيرة ، من جراء التدخين .

مجلة صدرت في سويسرا تقول - بعد إحصاء دقيق - : إن

شركات التبغ في العالم تُنتج دختين يومياً لكل إنسان على وجه الأرض ، أي إن مجموع إنتاج هذه الشركات عشر بلايين دخينة كل يوم ، إن هذه الكمية التي تنتجها شركات الدخان ، فيها مواد سامة ، لو أخذت دفعة واحدة ، في الدم مباشرة ، لاستطاعت أن تبيد الجنس البشري ، بل إن أثرها أشد من أثر أكبر قنبلة ذرية .

منظمة الصحة العالمية... نشرت تقريراً مطولاً في عام ألف وتسعمئة وخمسة وسبعين ، تقول فيه : إن عدد الذين يلاقون حتفهم أو يعيشون حياةً تعيسة من جراء التدخين ، يفوق عدد الذين يلاقون حتفهم نتيجة الطاعون ، والكوليرا ، والجذري ، والسل ، والجذام ، والتيفوئيد ، والتيفوس ، مجتمعين ، والوفيات الناجمة عن التدخين ، هي أكثر بكثير من جميع الوفيات في العالم .

إن مجموع الدخل الذي تحققه الدول الكبرى - من جراء الضرائب الباهظة على إنتاج التدخين - هو أقل بكثير ، من الأموال التي تُنفق لمعالجة الأمراض الناتجة عن التدخين .

هناك ظاهرة جديدة ، وهي أن أمراض القلب ، والأوعية ، وأمراض الدم ، تظهر - عادة - بدءاً من سن الستين فما فوق ، هذه السن بدأت تهبط ، الآن هناك حالات كثيرة أسبوعية ، احتشاء في الثلاثين ، في الخامسة والعشرين ، في الثانية والعشرين ، موت

بسبب الدخان ، هذه ظاهرة جديدة لم تكن من قبل .

أوليات الحياة ثلاثة ، الهداية أولاً ، والصحة ثانياً ، والكفاية ثالثاً ، لذلك لا معنى للكفاية ، من دون صحة ، ولا معنى للصحة ، من دون هداية ، فالصحة ركن أساسي في حياة المؤمن ، فيها يحقق خلافته في الأرض ، وبها يحقق الغاية التي خلق من أجلها ، وبها يسعد بالهدى ، ويستمتع بالمال ، فإذا ثبت لديه أن الدخان يدمر صحته فلا يعقل أن يدخن دخينة واحدة .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي
التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ
الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي
كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ
مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

* * *

الباب الثامن

موضوعات تاريخية

الندوة العالمية

حول

القدس الشريف وتراثها الثقافي

في إطار الحوار الإسلامي المسيحي

انطلاقاً من المكانة السامية للقدس ضمير المؤمنين بعامة ،
والمسلمين بخاصة ، فهي موطن أبينا إبراهيم ، ومتعبد الأنبياء
السابقين ، ومسرى خاتم النبيين ، ولا سيما المسجد الأقصى ،
الذي نوه الله به في الآيات المفصلة ، وتُليت فيه الكتب المُنزلة ،
أولى القبلتين ، وثاني المسجدين ، وثالث الحرمين الشريفين ،
لا تُشَدُّ الرحال بعد الحرمين إلا إليه ، بارك الله حوله ببركات
الدين والدنيا ، والذي أضحى بالإسراء إليه ، والمعراج منه ،
رمزاً للشخصية المعنوية للمسلمين .

انطلاقاً من هذا ؛ فقد دعت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم
والثقافة (إيسيسكو) إلى عقد ندوة عالمية حول القدس
الشريف ، وتراثها الثقافي في إطار الحوار الإسلامي المسيحي ،

في الرباط عاصمة المملكة المغربية خلال المدة الواقعة بين ١٩-٢١/١٠/١٩٩٣ ، وقد أٌكّدت المنظمة الإسلامية أن من أهداف الندوة ؛ التعريف بأهمية القدس ، الدينية ، والتاريخية ، والحضارية ، وكشف مخططات التهويد ، وتغيير طابع المدينة العربي والإسلامي ، ودعوة المنظمات العربية والإسلامية والدولية ، إلى دعم التراث الثقافي في المدينة ، وقد حضر المؤتمر عدد كبير من الشخصيات العربية ، والإسلامية ، والدولية ، منهم مفكرون وباحثون ، وعلماء ، وأكاديميون ، ورؤساء المنظمات ، والهيئات ، والمؤسسات التي تُعنى بشؤون القدس ، وقد شارك في المؤتمر ثلاث عشرة دولة إسلامية ، منها الجمهورية العربية السورية ، وست عشرة منظمة دولية ، وإسلامية ، وعربية ، وعشرون باحثاً أكاديمياً .

وقد انتظمت الندوة خمسة محاور :

المحور الأول : القدس عبر العصور التاريخية .

والمحور الثاني : تراث المدينة المقدس .

والمحور الثالث : طمس الهوية الإسلامية ، وتهويد المدينة .

والمحور الرابع : القدس والمنظمات الدولية .

والمحور الخامس : مستقبل القدس ، والمدن العربية الأخرى في ظل الاحتلال .

وقد كان لي شرف تمثيل سورية في هذه الندوة العالمية . وقد

أعددت بحثاً تاريخياً ، ألقيته في أعضاء المؤتمر ، حول المحور الأول (القدس عبر العصور التاريخية) .

وفيما يلي ملخص ما جاء في هذا البحث ؛ حيث لاقى قبولاً حسناً ، وترك انطباعاً جيداً .

القدس عبر العصور التاريخية :

نحن ، الأمة الإسلامية ، نرجع في معتقداتنا وتصوراتنا ، وفي قيمنا إلى ما جاء به النبي - ﷺ - من وحي متلوّ وهو القرآن ومن وحي غير متلوّ وهي السنة المطهرة ، التي هي بيان وتفصيل لمضمون القرآن ، ونرجع إلى سيرته التي تعد تجسيداً عملياً لفهم النبي - ﷺ - للقرآن وحي السماء إلى الأرض .

أيها السادة والسيدات :

من هذه المبادئ الخالدة ، وتلك القيم السامية ، انطلق أصحاب النبي - ﷺ - ينشرون هذه الرسالة السماوية في الآفاق مجددين من خلالها أهدافهم النبيلة ، ومتخذين لهذه الأهداف النبيلة وسائل نبيلة من جنسها ، فهذه وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأسامة بن زيد قائد الجيش الإسلامي ، قال له :

« لا تخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاةً ، ولا بقرة ،

ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم بالصوامع ، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له . . . اندفعوا بسم الله » .

وفي موقف سيدنا عمر بن الخطاب من أهل القدس ، إنّ في وثيقة الأمان التي أعطاها لأهل القدس ، وإنّ في حفاظه على كنائس أهل الكتاب ، أكبر دليل على مدى التسامح الديني الذي يتحلّى به ذلك الخليفة الراشد .

ولقد زار سيدنا - عمر رضي الله عنه - كنيسة القيامة ، ولمّا حان وقت الصلاة ، قال له البطريك : مكانك صلّ ، فأبى عمر رضي الله عنه ، وخرج يصلي خارج الكنيسة ، وبعد أن أتمها قال :

« يا شيخ ، إنني لو أقمت الصلاة في كنيسة القيامة ، لوضع المسلمون عليها أيديهم في حجة إقامتي الصلاة فيها ، وإنني لأبى أن أمهد السبيل لحرمانكم منها وأنتم بها أحق وأولى » .
وقد قال الدكتور غوستاف لوبون :

« وكان سلوك الفرنجة حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - نحو النصارى ، وقال كاهن مدينة لوبوي : عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها ، قطعوا رؤوس بعض المسلمين ، وبقروا بطون بعضهم الآخر ، فكان المسلمون يضطرون إلى القذف بأنفسهم من على الأسوار ، وحُرّق بعضهم في النار ، فكانوا يموتون بعد ذلك بعذاب طويل ، وكان لا يُرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس

المسلمين ، وأيديهم وأرجلهم فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم ، ولكن هذا لم يكن سوى بعض ما أصابهم » .

ولم يكتف الفرسان الفرنجة بذلك ، فعقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة جميع السكان الباقين الذين كان عددهم نحو ستين ألفاً ، فأفنوهم عن بكرة أبيهم في ثمانية أيام ، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولداً ولا شيخاً .

وبعد فتح القدس من قبل السلطان صلاح الدين ، سمح للفرنجة بمغادرتها بعد جزية بسيطة عن كل شخص ، وامتازت معاملة صلاح الدين بالإنسانية ، فأعفى كثيرين من دفع الجزية ، وسمح للمسيحيين الشرقيين بالبقاء في المدينة .

يقول الإمام الحافظ ابن كثير موضحاً لنا عفو السلطان ورحمته بالمسيحيين بعد فتح المدينة المقدسة :

« وأطلق السلطان خلقاً كثيرين منهم بنات الملوك بمن معهم من النساء والصبيان والرجال ، وشفع في أناس كثيرين فعفا عنهم ، وفرق السلطان جميع ما قبض منهم من الذهب في العسكر ، ولم يأخذ منه شيئاً مما يُقْنى ويُدَّخر وكان رحمه الله حليماً ، مقداماً ، شجاعاً ، رحيماً » .

لقد اشتهر المسلمون الظافرون في الواقع بالاستقامة ، والإنسانية فبينما كان الفرنج منذ سنوات ، يخوضون في دماء ضحاياهم المسلمين ، يقتلون كل من يصادفونهم من الرجال والنساء والأطفال ، سواء في بيوتهم ، أو في مساجدهم ، ولم

يسلم منهم أحد ، حتى اللاجئون إلى المسجد الأقصى وامتلات الشوارع بجثث القتلى . . . وسالت أنهار الدم فيها .

بينما الفرنج يفعلون تلك الأعمال الوحشية ، لم تتعرض أي دار من دور بيت المقدس للنهب من قبل جنود المسلمين ، ولم يحلّ بأحد من الأشخاص مكروه ، بل صار رجال الشرطة المسلمون يطوفون الشوارع والأبواب ، تنفيذاً لأوامر السلطان صلاح الدين ، لمنع كل اعتداء يحتمل وقوعه على المسيحيين ، وقد تأثر الملك العادل لمنظر بؤس الأسرى فطلب إلى أخيه صلاح الدين إطلاق سراح ألف أسير ، فوهبهم له فأطلق العادل سراحهم على الفور ، وأعلن صلاح الدين : أنه سوف يطلق سراح كل شيخ ، وكل امرأة عجوز .

وأقبل نساء الفرنج ، وقد امتلات عيونهن بالدموع ، فسألن صلاح الدين أين يكون مصيرهن بعد أن وقع أزواجهن وآبائهن في الأسر ؟ فأجاب صلاح الدين بأنه وعد بإطلاق سراح كل من في الأسر من أزواجهن وبذلّ للأرامل واليتامى من خزائنه العطايا كلّ بحسب حالته ، فكانت رحمته وعطفه على نقيض أفعال الغزاة الفرنج .

لقد شهد المؤرخون المسيحيون - المعاصرون وغير المعاصرين - بكرم أخلاق صلاح الدين ، وسماحته ، وبأن صلاح الدين عامل النساء الفرنجيات معاملة حميدة ، وسمح لهن بالخروج من بيت المقدس معزّزات مكرّمات ، ومعهن أموالهن ، وأتباعهن وحشمهن .

وكانت زوجة الملك جاي لوز جنان الأسير موجودة في بيت المقدس فطلبت من صلاح الدين السماح لها بمصاحبة زوجها في الأسر في نابلس فأذن لها .

كذلك طلبت الأميرة (أتينت) أرملة أرناط من صلاح الدين الخروج كما طلبت إطلاق سراح ابنها من زوجها الأول ، فأكرمها السلطان ، وسمح لها بالسفر ، ثم أطلق سراح ابنها .

أما اليتامى والشيوخ والأرامل من الفرنجة ، فإن صلاح الدين لم يكتف بإطلاق سراحهم دون فداء ، بل منحهم أيضاً مساعدات مالية من ماله الخاص .

وهكذا بدا الفارق عظيماً بين صلاح الدين عندما استولى على بيت المقدس سنة ١١٨٧م وبين ما فعله الفرنجة بالمدينة وأهلها المسلمين عندما سقطت في أيديهم سنة ١٠٩٩م ، فذبخوا من صادفوه فيها من المسلمين وكتب المؤرخ المسيحي ابن العبري يقول :

« ولبت الفرنج في البلد أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً » .

على أن الخطر الذي هدد أولئك الفرنجة من بيت المقدس ، لم يأت من جانب المسلمين ، وإنما أتى من جانب إخوانهم الفرنجة أنفسهم ، إذ لم يكادوا يدخلون حدود إمارة طرابلس الصليبية حتى انقض عليهم بعض أفراد الفرنجة واعتدوا عليهم ، وعندئذ اتجه أولئك المشردون شمالاً صوب مدينة طرابلس ذاتها ، ولكن أهل طرابلس خشوا على أنفسهم وعلى مدينتهم من

تلك الجموع الخاوية الوفاض ، فأغلقوا أبواب مدينتهم في وجوههم ورفضوا أن يستضيفوا إخوانهم في محنتهم ؛ ليخففوا عنهم بعض آلامهم ، بل إن أهل طرابلس نهبوا ما بقي مع بعضهم من أموال تركها لهم صلاح الدين ، وهكذا لم يجد أهل بيت المقدس من إخوانهم الفرنجة جزءاً من المعاملة الرحيمة التي لقوها من صلاح الدين ، فذهب بعضهم إلى أنطاكية ، حيث وجدوا مقراً ومقاماً إلى حين .

وهكذا نجد أن التدين الصحيح ، يجعل من الإنسان كائناً يفيض رحمة وإنصافاً ، ومروءة ، وما أحوج العالم اليوم إلى قيم إنسانية ، تكون سياجاً يرشد القوة المدمرة التي أبدعها عقل الإنسان .



وبعد أن ألقيت بقية الكلمات ، وجرت المداخلات ، ودارت الحوارات ، ودرست في توسع واستيعاب الجوانب المختلفة المتعلقة بالقدس الشريف ، وبتراثها الثقافي والعمراني والحضاري ، وبحث الأصول التاريخية للمدينة اتخذت الندوة عدداً من التوصيات ، وفيما يلي أهم ما جاء فيها :

١- تؤكد الطابع الإسلامي للقدس الشريف ، وما تمتعت به المدينة المقدسة من أمن وسلام في ظل الحكم العربي الإسلامي عبر العصور .

٢- يدعو المشاركون في الندوة إلى تضافر الجهود كافة ،
للمحافظة على التراث الثقافي والحضاري لمدينة القدس
الشريف ، وتعد الندوة هذه المحافظة مسؤوليةً جماعيةً ، وواجباً
إنسانياً ، يتحمله المجتمع الدولي بعامة ، والمؤمنون بالديانات
السماوية الثلاث بخاصة .

٣- تناشد الندوة الحكومات والمنظمات والهيئات الدولية ،
القيام بتحريك فاعل ، ومؤثّر لإيقاف المحاولات الجارية لطمس
المعالم التاريخية والحضارية لمدينة القدس ، ولمحو الهوية
الثقافية والحضارية للمدينة المقدسة ، ولوضع حد عاجل لسياسة
تهويد القدس الشريف ، وباقي مدن فلسطين المحتلة .

٤- تؤكد الندوة على التوصيات والقرارات السابقة التي
اتخذتها المؤتمرات الإسلامية والعربية ، بشأن تقديم جميع أنواع
الدعم المعنوي والمادي للمؤسسات التربوية والثقافية في القدس
الشريف خاصة ، والأراضي الفلسطينية المحتلة عامة ، وكذلك
للمؤسسات الدينية الإسلامية والمسيحية .

٥- تؤكد الندوة ، بعد أن بحث مستقبل القدس الشريف ،
على أن القدس هي عاصمة الدولة الفلسطينية ، وعلى أنها مدينة
مقدسة مفتوحة أمام أصحاب الديانات السماوية الثلاث ، في إطار
التعايش الإنساني دون مساس بحق من حقوق العرب ، مسلمين
ومسيحيين فيها .

٦- تشيد الندوة بمواقف صمود الشعب الفلسطيني في القدس
الشريف ، وتناشد المجتمع الدولي تقديم الدعم المادي والأدبي

لأبناء القدس لمواصلة محافظتهم على المآثر التاريخية والحضارية ، وعلى دعم المؤسسات التربوية والعلمية ، وعلى حماية المساجد ودور العبادة بمدينتهم المقدسة بوصفها من معالم التراث الثقافي في القدس الشريف .

٧- تؤكد الندوة على ضرورة دراسة الوضع الراهن للأوقاف الإسلامية ، وممتلكات الكنائس المختلفة في القدس الشريف ، وما آلت إليه تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلي .

٨ - توصي الندوة بأن تقوم المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم الثقافية بالتنسيق مع المنظمات الإسلامية والعربية والدولية ، وبصفة خاصة مع منظمة اليونسكو ، من أجل ضمان المحافظة على التراث الثقافي في القدس الشريف .

٩- تندد الندوة بالقرار الصادر عن محكمة العدل العليا الإسرائيلية بتاريخ ٢٣/٩/١٩٩٣م الذي يُعدّ موقع الحرم القدسي الشريف خاضعاً للسيادة الإسرائيلية ، مما يترتب عليه تفويض جماعة ما يُسمى (أبناء الهيكل) السيطرة على هذا الموقع المقدس .

١٠- توصي الندوة بدراسة التراث الحضاري في القدس الشريف والوقوف على متطلبات صيانه والمحافظة عليه ، وذلك من خلال لجنة فنية تؤلف لهذه الغاية ، وتكون تابعة لوحدة القدس بالمنظمة الإسلامية وتكلف بالعمل على توثيقه وصيانه وترميمه .

١١- تدعو الندوة إلى التنسيق والحوار الإسلامي - المسيحي

المستمر من أجل حماية المآثر الثقافية والحضارية والتعليمية
والمحافظة على الأماكن المقدسة في مدينة القدس .
وتعرب الندوة عن تقديرها العميق وشكرها الجزيل للمملكة
المغربية ملكاً وحكومةً وشعباً ، على ما خصت به المشاركين في
هذه الندوة من بالغ الحفاوة وكرم الضيافة وحسن الاستقبال .

* * *

الباب التاسع

موضوعات أدبية

فن المقالة

عناصرها - أنواعها

المقدمة :

تُعد الحياة في البحر مسرفة إسرافاً أبعد من كل خيال ، سواءً في وفرتها ، أو تنوعها ، أو قدمها ، أو غرابتها ، أو جمالها ، أو شراستها بغير تعقل ، وبما ليس له نظير آخر في الطبيعة ، وتتراوح الكائنات البحرية من ملايين بلايين الكائنات الميكرونية ، التي تجوب البحر في المياه الزرق ، إلى حيتان المحيط المتجمد الجنوبي ، الزرق التي يبلغ طول الواحد منها ثلاثين متراً ، ويزن مئة وثلاثين طناً ، وتشتمل هذه الكائنات على أجمل الأنواع ، التي لم تجد الطبيعة بمثلها ، كتلك الأسماك الرائعة الفضية ، وتلك الحيوانات التي تتفتح كالزهور ، وتلك الشعب المرجانية المتلاثة ، وتلك الديدان التي يبلغ طولها سبعة وعشرين متراً ، وتلك الأسماك التي تتلون بأحد ثمانية ألوان ، فإذا وقفنا عند أكبر هذه الكائنات وهو الحوت ، فإنه يحتاج إلى أربعة أطنان من السمك ، تدخل في معدته حتى يشعر بالشبع ، ويحتاج وليده إلى

ثلاثمئة كيلو من الحليب في الرضعة الواحدة .

ويتدفق من جسم الحوت في أثناء صيده ثمانية أطنان من الدم ، وفيه خمسة وعشرون طناً من الدهن ، وخمسون طناً من اللحم وعشرون طناً من العظام ، وتزن أعضاؤه الداخلية ثلاثة أطنان ، ولسانه طنين ونصف ، ويستخرج منه ما يزيد على مئة وعشرين برميلاً من الزيت ، وقد استطاع حوت أن يجر سفينة ثمانية ساعات ونصف ، بسرعة خمس عقد في الساعة ، والسفينة تُعمل محركاتها بأقصى اتجاه معاكس لسيره . . » .

هذه فقرات من مقالة علمية عن الكائنات البحرية ، مأخوذة من مجموعة « لايف » العلمية ، أردت أن أستهل بها هذه المقال عن فن المقالة ، لتكون تجسيداً وامتكاً للأفكار النظرية المتعلقة بهذا الموضوع .



تعريف المقالة :

المقالة - كما يعرفها أدمون جونسون - : فن من فنون الأدب ، وهي قطعة إنشائية ، ذات طول معتدل ، تُكتب نثراً ، وتُلمّ بالمظاهر الخارجية للموضوع ، بطريقة سهلة سريعة ، ولا تعنى إلا بالناحية التي تمسُّ الكاتب عن قرب .

والمقالة - بتعريف آخر - : قطعة من النثر معتدلة الطول ، تعالج موضوعاً ما معالجة سريعة من وجهة نظر كاتبها ، وهي بنت

الصحافة نشأت بنشأتها وازدهرت بازدهارها .

كلمة « موضوعاً ما » في التعريف تعني أن المقالة من أكثر الفنون الأدبية استيعاباً وشمولاً لشتى الموضوعات ، فموضوعات كالتضخم النقدي ، وأساليب الإعلان ، والتخدير بالإبر ، لا يمكن أن تحملها أجنحة الشعر ، ولا حوادث القصة ، ولا حوار المسرحية ، والمقالة وحدها تتقبل مثل هذه الموضوعات ، وأية موضوعات أخرى تجيد توضيحها ، وتحسن عرضها .

وكلمة « معالجة سريعة » في التعريف تعني أن كاتب المقالة ، مازاد على أنه سجل تأملات ، أو تصورات أو مشاهدات تغلب عليها العفوية والسرعة ، فلو كانت المعالجة متأنية فجمعت الحقائق ، وفحصت وصنفت ، واعتمد على الإحصاء ، والتجربة ، والمتابعة ، لعدَّ هذا العمل بحثاً علمياً ، وليس مقالة أدبية .

فلو قرأت في مجلة علمية ، أن طيور البلاكبول ، تطير في الخريف إلى شاطئ المحيط الأطلسي ، ومن هناك تقوم برحلة جوية لا تصدق فوق البحار ، في اتجاه أمريكا الجنوبية ، مجتازة مسافة أربعة آلاف كيلو متر بلا توقف ، خلال ست وثمانين ساعة ، على ارتفاع يزيد على ستة آلاف متر ، لو قرأت هذه الفقرة لعرفت أن هذه الأسطر قد كلفت العلماء سنوات طويلة من الملاحظة ، والمتابعة ، فهذه فقرة من بحث علمي ، وليس مقالة أدبية .

وكلمة من « من وجهة نظر كاتبها » تعني أن المقالة تعبر عن

ذات كاتبها أكثر مما تُعبّر عن موضوعها ؛ لأن كاتب المقالة يرى الأشياء من خلال ذاته ، وما يعمل فيها من مشاعر وانفعالات .

استمعوا معي إلى أحد الكتاب ، يتحدث عن طائفة :

« طائر صغير أحببته شهوراً طوالاً ، غرد لكأبتي فأطربها ، ناجى وحشتي فأنسها ، غنى لقلبي فأرقصه ، ونادم وحدتي فملأها ألحاناً » .



المقالة فن محوري :

كُتب على غلاف إحدى المجلات ذات الطبعات الدولية ، أكثر من مئة مليون يقرؤون هذه المجلة ، في مئة وثمانين بلداً ، وبخمس عشرة لغة . . . فما سر هذا الإقبال الشديد على مطالعة المقالات المتنوعة في الصحف والمجلات ، وفي كل أقطار العالم ؟ .

في هذا العصر الذي طغت فيه المادة على القيم ، ونما العقل على حساب القلب ، وتعددت أنماط الحياة ، وكثرت متطلباتها ، واستهلك كسب الرزق ، معظم الوقت ، واختصر كل شيء ، حتى اختصرت الشهور في ساعات ، والسنون في أيام ، وظهرت الحاجة ملحة إلى مطالعات سريعة خفيفة ، فتطلع الناس إلى الصحف ، والمجلات ، واستهوتهم الكتيبات ، والدوريات ، وكأن الناس أرادوا أن يختصروا البحر في قارورة ، والبستان في

باقية ، وضياء الشمس في بارقة ، وهزيم الرعد في أغرودة ،
وبحثوا عن فن أدبي يدور معهم أينما داروا ، ويرافقهم حيثما
ساروا ، ويكون معهم في حلهم وترحالهم ، وأحزانهم وأفراحهم
في لهوهم ، وجدّهم ، يعبر عن نشاطهم العقلي ، وعن
اضطرابهم النفسي ، كذلك اختصرت الكتب في مقالات ، فجاءت
بلسماً شافياً لمرض العصر ، ودواءً لضيق الوقت ، فكانت المقالة
من أوسع الفنون الأدبية انتشاراً ؛ لأنها أقلها تعقيداً ، وأشدّها
وضوحاً ، وأكثرها استيعاباً ، لشتى الموضوعات وأيسرها مرونة
على الكاتب ، وأسهلها هضماً على القارئ .



عناصر المقالة : المادة والأسلوب والخطبة .

المادة :

هي مجموعة الأفكار ، والآراء ، والحقائق ، والمعارف
والنظريات ، والتأملات ، والتصورات ، والمشاهد ، والتجارب
والأحاسيس ، والمشاعر ، والخبرات التي تنطوي عليها المقالة ،
ويجب أن تكون المادة واضحة ، لالبس فيها ولا غموض ، وأن
تكون صحيحة بعيدة عن التناقض ، بين المقدمات والنتائج ، فيها
من العمق ما يجتذب القارئ ، وفيها من التركيز ما لا يجعل من
قراءتها هدراً للوقت ، وفيها وفاء بالغرض ، بحيث لا يُصاب

قارئها بخيبة أمل ، وأن يكون فيها من الطرافة والجدة ، بحيث تبتعد عن الهزيل من الرأي ، والشائع من المعرفة ، والسوقي من الفكر ، وفيها من الإمتاع ، بحيث تكون مطالعتها ترويحاً للنفس ، وليس عبثاً عليها .

إن مهمة الكاتب ليست في إضعاف النفوس ، بل في تحريك الرؤوس ، كل كاتب لا يثير في الناس رأياً ، أو فكراً ، أو مغزى يدفعهم إلى التطور ، أو النهوض ، أو السمو ، على أنفسهم ، ولا يحرك فيهم غير المشاعر السطحية العابثة ، ولا يقرّ فيهم غير الاطمئنان الرخيص ، ولا يوحى إليهم إلا بالإحساس المبتذل ، ولا يمنحهم غير الراحة الفارغة ، ولا يغمرهم إلا في التسلية ، والملذات السخيفة ، التي لا تكوّن فيهم شخصية ، ولا تثقف فيهم ذهنًا ، ولا تربى فيهم رأياً ، لهو كاتب يقضي على نمو الشعب ، وتطور المجتمع .

الأسلوب :

وهو الصياغة اللغوية ، والأدبية لمادة المقالة ، أو هو قالب الأدبي الذي تصب فيه أفكارها ، ومع أن الكتاب تختلف أساليبهم ، بحسب تنوع ثقافتهم ، وتباين أمزجتهم ، وتعدد طرائق تفكيرهم ، وتفاوتهم في قدراتهم التعبيرية ، وأساليبهم التصويرية ، ومع ذلك فلا بد من حدٍّ أدنى من الخصائص الأسلوبية ، حتى يصح انتماء المقالة إلى فنون الأدب .

فلا بد في أسلوب المقالة من الوضوح لقصد الإفهام ، والقوة

لقصد التأثير ، والجمال لقصد الإمتاع ، فالوضوح في التفكير ،
يفضي إلى الوضوح في التعبير ، ومعرفة الفروق الدقيقة ، بين
المترادفات ، ثم استعمال الكلمة ذات المعنى الدقيق في مكانها
المناسب ، سبب من أسباب وضوح التعبير ، ودقته ؛ فكل كلمة
من هذه الكلمات تؤدي معنى دقيقاً من معاني النظر (لمح - لاح -
حدج - حملق - بحلق - حلق - شخص - رنا - استشف -
استشرف - نظر شزراً -) ووضوح العلاقات ، وتحديدتها في
التركيب سبب في وضوح التركيب ، ودقته ، فهناك فرق شاسع
بين الصياغتين (يُسمح ببيع العلف لفلان - يسمح لفلان ببيع
العلف) ، والإكثار من الطباق يزيد المعنى وضوحاً ، وقديماً
قالوا : وبضدها تتميز الأشياء ، الحرُّ والقرُّ ، والجود والشعُّ ،
والطيش والحلم ، واستخدام الصور عامة ، والصور البيانية
خاصة ، يسهم في توضيح المعاني المجردة ، مثال ذلك :

الأدب اليوم عصاً بيد الإنسانية ، بها تسير ، لامرود ، تكحل
به عينها ، وهو نور براق ، يفتح الأبصار ، وليس حلية ساكنة
بديعة تزين الصدور .

* * *

القوة في الأسلوب :

والقوة في الأسلوب سبب في قوة التأثير ، فقد يسهم
الأسلوب في إحداث القناعة ، لكن قوة الأسلوب تحدث

«موقفاً» وتأتي قوة الأسلوب من حيوية الأفكار ، ودقتها ، ومتانة الجمل ، وروعيتها ، وكذلك تسهم في قوة الأسلوب الكلمات الموحية ، والعبارات الغنية ، والصورة الرائعة ، والتقديم والتأخير ، والإيجاز والإطناب ، والخبر والإنشاء ، والتأكيد والإسناد ، والفصل والوصل .

مثال ذلك :

إذا أردنا أن نعيش سعداء حقاً فما علينا إلا أن نراقب القمح في نموه والأزهار في تفتحها ، ونستنشق النسيم العليل ، ولنقرأ ولنفكر ، ولنشارك تايلر في إحساسه ، إذ يقول :

سلبني اللصوص ما سلبوا ، ولكنهم تركوا لي الشمس المشرقة ، والقمر المنير ، والحياة الفضية الأديم ، وزوجة مخلصة تسهر على مصالحني ، وتربية أطفالي ، ورفقاء يشدون أزرني ، ويأخذون بيدي في كُرْبِي ، فماذا سلبني اللصوص ، بعد ذلك ؟ .. لا شيء ، فهذا هو ذا ثغري باسم ، وقلبي ضاحك ، وضميري نقي طاهر .



الجمال في الأسلوب :

إذا كان الوضوح من أجل الإفهام ، والقوة من أجل التأثير ، فالجمال من أجل المتعة الأدبية الخالصة ، وحينما يملك الكاتب الذوق الأدبي المرفه والأذن الموسيقية ، والقدرات البيانية ،

يستطيع أن يتحاشى الكلمات الخشنة والجمل المتنافرة ، والجرس
الرتيب ، وحينما يوائم بين الألفاظ والمعاني ، ويستوحي من
خياله الصورة المعبرة ، يكون أسلوبه جميلاً .

مثال ذلك :

البرج العاجي الخلقي : هو السمو عن المطامع المادية ،
والمآرب الشخصية ، فليس من حق مفكر اليوم أن ينأى بفكره عن
معضلات زمانه ، ولكن من واجبه أن ينأى بخلقه عن مبادئ
عصره ، وسقطاته ، البرج العاجي عندي هو الصفاء الفكري ،
والنقاء الخلقي ، وهو الصخرة التي ينبغي أن يعيش فوقها الكاتب
مرتفعاً عن بحر الدنيا الذي يغمر أهل عصره ، لا خير عندي
للمفكر الذي لا يعطي من شخصه مثلاً لكل شيء نبيل رفيع
جميل .

والعنصر الثالث من عناصر المقالة : الخطة ويسمونها بعضهم
الأسلوب الخفي ، وهي المنهج العقلي الذي تسير عليه المقالة ،
فإذا اجتمعت للكاتب أفكار وآراء ، يريد بسطها للقراء ، وكان له
من الأسلوب ، ما يستطيع أن تشرق فيه معانيه ، وجب ألا يهجم
على الموضوع من غير أن يهيء الخطة ، التي يدفع في سبيلها
موضوعه .

الخطة :

تتألف من مقدمة ، وعرض ، وخاتمة .

المقدمة هي المدخل ، والتمهيد لعرض آراء الكاتب ، ويجب أن تكون أفكار المقدمة بديهية ، مسلماً بها ، وألا تحتاج إلى برهان ، وأن تكون شديدة الاتصال بالموضوع ، وأن تكون موجزة ، ومركزة ومشرقة .

وأما العرض ، فهو صلب الموضوع ، وهو الأصل في المقالة ، وفيه تعرض أفكار الكاتب عرضاً صحيحاً ، وافياً ، متوازناً ، مترابطاً ، متسلسلاً ، ويُستحسن أن يمهد الكاتب لكل فكرة ، ويربطها بسابقتها ، ويذكر أهميتها ، ويشرحها ، ويعللها ، ويوازنها مع غيرها ، ويذكر أصلها ، وتطورها ، ويدعمها بشاهد أدبي ، أو تاريخي ، ويُفضل أن تُعرض كل فكرة رئيسة في فقرة مستقلة .

والخاتمة تلخص النتائج التي توصل إليها الكاتب في العرض ، ويجب أن تكون واضحة ، صريحة ، حازمة .

ومما يتصل بالحديث عن عناصر المقالة الحديث عن أنواعها :

فمن حيث الموضوع : هناك المقالة الاجتماعية ، والسياسية . ومن حيث الأسلوب : هناك المقالة العلمية ، والأدبية . ومن حيث الطول : هناك المقالة المطولة ، والخطرة . ومن حيث اللبوس الفني : هناك المقالة القصصية ، والتمثيلية ، ومقالة الرحلات ، ومقالة الرسالة . ومن حيث موقف الكاتب : هناك الذاتية ، والموضوعية . ومن حيث طرق نقلها

إلى الجمهور : هناك المقالة المقروءة ، والمسموعة ، والمنظورة .



أنواع المقالة :

المقالة العلمية :

موضوعاتها علمية ، وأهدافها تبسيط الحقائق العلمية ، وتيسير نقلها إلى الجمهور ، يقول قدري طوقان : « الشمس أقرب نجم إلينا ، وتقدر المسافة بثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال ، فلو سار قطار إليها بسرعة خمسين ميلاً في الساعة لوصلها في مئتين وعشرين سنة ، والأمواج اللاسلكية ، التي تدور حول الأرض سبع مرات في ثانية واحدة ، هذه الأمواج لو أرسلت إلى الشمس ، لوصلها في ثماني دقائق وربع ، ولو أرسلت إلى أقرب نجم إلينا بعد الشمس لوصلته في أربع سنين ونصف » .

أسلوب المقالة العلمية المباشر الذي يعتمد على الدقة في استخدام الألفاظ ، والسهولة في صوغ العبارات ، والبعد عن التأنق والزينة ، ولا تلبس المقالة العلمية من الأدب إلا أرق ثوب .

المقالة الأدبية :

وهي قطعة من الشعر المنشور ، تشف عن ذات الأديب ،

وتعبر عن مشاعره ، وتنطلق مع خياله ، وترسم ملامح شخصيته ، أسلوبها أدبي محض ، ففيها ماشئت من عواطف جياشة ، وخيال عريض ، وصور مترفة ، وأسلوب رشيق ، يقول عبد العزيز البشري متحدثاً عن سيد درويش :

« فما إن لحن سيد درويش فكان المعنى شديداً إلا قوي لحنه ، ودعم ركنه وشدَّ بالصنعة متنه ، فسمعت له مثل قعقة النبال ، إذا استعر القتال ، أو مثل زئير الآساد ، إذا تحفزت للصيال ، وإذا جنح الكلام إلى اللين ، كان لحنه أرق من نسج الطيف ، وألطف من النسمة في سحرة الصيف » .

الخطرة :

مقالة قصيرة جداً ، تحتل بعض الزوايا في الصحف ، والمجلات ، وتعتمد على أسلوب الخطف في معالجة الموضوعات ، وتتميز بالطابع الذاتي ، وتشيع فيها السخرية ، ولها مذاق عذب في نفس القارئ ، وهي أشبه شيء بالرسم الكاريكاتوري .



البطولة في تاريخ الأدب العربي

المقدمة :

ليس هناك تعريف جامع مانع للبطولة ، وإذا اختلف الدارسون في تعريفها ، فإنهم يتفقون على أن البطل :

إنسان متميز ، يرى ما لا يراه الآخرون ، ويشعر بما لا يشعرون ، يتمتع بوعي عميق ، وإدراك دقيق ، له قلب كبير ، وعزم متين ، وإرادة صلبة ، هدفه أكبر من حاجاته ، ورسالته أسمى من رغباته ، يملك نفسه ولا تملكه ، ويقود هواه ولا ينقاد له ، تحكمه القيم ، ويحتكم إليها ، من دون أن يسخرها ، أو يسخر منها ، أعطى ولم يأخذ ، هياؤه تفوقه ليكون سيداً فوق الجميع ، لكنه عاش واحداً بين الجميع ، سما حتى اشرأبت إليه الأعناق ، وصفا حتى مالت إليه الأفئدة .

والبطولة لا تتعلق بعصر ، ولا مصر ، ولا جنس ، ولا لون ، ولا بعمر ، ولا بأصل ، ولا بغنى ، ولا بفقر .

أطفال يلعبون في أحد شوارع المدينة ، يمرُّ بهم عمر بن الخطاب وكان شديد الهيبة ، فيتفرقون ، إلا واحداً منهم ، يلزم

مكانه لا يريم فلما حاذاه عمر سألـه : يا غلام . . لِمَ لَمْ تهرب مع
منْ هرب ؟! فقال : أيها الأمير . . . لست ظالماً فأخشى ظلمك ،
ولستُ مذنباً فأخشى عقابك ، والطريق يسعني ويسعك .

والأدب العربي عبر تاريخه ، طافح بـصور البطولة ، في شتى
ميادينها ، لقد صور البطل المنقذ ، وصور بطولة القيادة ، وبطولة
السيطرة على الذات ، والبطولة الحربية ، بطولة الفتوح ، وبطولة
صد العدوان ، وبطولة التحرير ، وبطولة الإباء والكرامة ، وبطولة
الاستشهاد .

أولاً :

تَصَوُّرُ البطولة شيء ، وتصويرها شيء آخر ، إن الإنسان قد
يجمع به خياله نحو نموذج إنساني يدرأ الخطر عن الجماعة ،
ويحقق طموحها الكبير ، وهذا ما كان من لقيط بن يعمر الإيادي ،
الشاعر الجاهلي الذي رأى قبيلته سادرةً في غفلتها ، تمزقها
المنازعات في حين أن خطر الأعداء مُحْدَقٌ بها ، فتمنى عليها أن
تقلد أمرها رجلاً مضطلعاً بأمر الحرب ، بعيداً عن الترف الذي
يفسد إنسانية الإنسان ، جلدأ يتجشم المصاعب ، متطلعاً لما فيه
خيرها .

يقول :

يا لهف نفسي إن كانت أَمْوُزُكُمْ شتى وأحكم أمر الناس فاجتمعوا
مالي أراكم نياماً في بُلْهَنِيَّةٍ وقد ترون شهاب الحرب قد سطعا

قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعا
وقلدوا أمركم الله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده ولا إذا عضَّ مكروهٌ به خشعا
وليس يشغله مالٌ يثمره عنكم ولا وَلَدٌ يبغي له الرفعا

ثانياً :

فإذا انتقلنا إلى المجتمع العربي في العصر الراشدي حيث بدت القيم الجديدة ، قيمُ الحق والخير والعدالة ، في أبهى صورها ، نجد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب يُجسد هذه القيم بمواقفه ، وأحكامه ، فكان بحق بطل مبدأ ، مضى نحو تحقيقه ، من دون أن ينظر إلى الثمن ، لما فتحت مصر أتى أهلها عمرو بن العاص حين دخل يوم من أشهر العجم ، فقالوا : يا أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لايجري إلا بها ، قال : وما ذاك ؟ قالوا : إذا كان إحدى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية حسناء ، بكر بين أبويها ، فأرضينا أبويها ، وجعلنا عليها من الثياب والحلي أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها في هذا النيل ، فقال لهم عمرو : إن هذا لا يكون أبداً في الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ماكان قبله ، فأقاموا والنيل لايجري إلا قليلاً ولا كثيراً حتى هموا بالجلاء . فلما رأى ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك ، فكتب عمر رسالة إلى نهر النيل ، وأمر رسوله أن يسلمها إلى عمرو بن العاص ، ويجمع أهل مصر على ضفاف النيل ، ويقرأ

عليهم الرسالة ، ثم يرميها في نهر النيل ففعل . وفتح الرسالة
وقرأ ما فيها فإذا فيها :

من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر :
أما بعد . . . فإذا كنت تجري من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله
يجريك ، فأسأل الله الواحد القهار أن يجريك ، وألقى الرسالة في
نهر النيل .

فما أصبحوا حتى أجراه الله وأفاضه في الليلة نفسها ، فقطع الله
هذه السنة السيئة عن أهل مصر إلى هذا اليوم .

ثالثاً :

فإذا انتقلنا إلى العصر الأموي ، نجد أن هناك ميادين جديدة
للبطولة منها تلك التي تتمثل في السيطرة على الذات ، فقد يحمل
الإنسان نفسه على مكارم الأخلاق ، ويدفعها نحو معالي الأمور ،
حتى يسمو بها فتغدو محطّ الأنظار ، ومهوى الأفتدة ، وعندئذ
يطغى مخبره على مظهره ، ويبلغ منزلة تتقطع دون بلوغها أعناق
الطامحين ، هذه صورة من صور البطولة الأخلاقية ، يقدمها
الكاتب أحمد أمين ، للأحنف بن قيس ، أحد بناءة تاريخنا
العظيم :

« ضئيل الجسم ، صغير الرأس ، متراكب الأسنان ، مائل

الذقن ، ناتئ الوجنة ، غائر العينين ، خفيف العارضين ، أحنف الرجل ، ليس شيء من قبح المنظر إلا وهو آخذ منه بحظ ، تنبو عن مرآه الأحداق ، وتتفادى من شخصه الأبصار ، وهو مع ذلك سيد قومه ، إذا غضب ، غضب لغضبته مئة ألف سيف ، لا يسألونه فيم غضب ؟ .. تتركز عظمته في خصلتين ، تتصل إحداهما بالأخرى اتصالاً وثيقاً ؛ إنه مُنح نظراً صائباً ، يتعرف به المحاسن والمساوىء ، ومعالي الأمور ، وسفاسفها ، ثم مُنح إلى ذلك إرادة يحمل بها نفسه على ما أدرك ، من معالٍ ومحاسنٍ ، مهما كلفه من مشقة ، وحمله من جهد ، فلو علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه ، ولما أراد معاوية أن يأخذ البيعة لابنه يزيد ، أخذ الناس يتكلمون في مدح يزيد والثناء عليه ، والأحنف ساكت ، فقال له معاوية : مالك لاتتكلم يا أبا بحر ؟ ! وكانت كنيته ، فقال قولته الشهيرة : أخاف الله إن كذبت ، وأخافكم إن صدقت ، فكانت كنيته أبلغ من التصريح .

رابعاً :

وفي العصر العباسي ، من ممّا لا يُعجب بتلك الصورة الرائعة التي رسمها المتنبّي لسيف الدولة الحمداني ، ذلك البطل الفذ الذي قاد أمته إلى النصر ، في معارك مؤزرة ضد الروم ، كتب فيها أروع صفحات الفخار ، وذلك ميدان آخر من ميادين البطولة ، وهي البطولة الحربية :

يكلف سيف الدولة الجيش همه وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم
ويطلب عند الناس ما عند نفسه وذلك ما لاتدعيه الضراغم
وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمرُّ بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم
ومن طلب الفتح الجليل فإنما مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

خامساً :

وفي عصر الانحدار ، حيث انطوت الأعلام العربية ، وكبت
الخيول بأشبال النضال ، سطعت وسط هذه الظلمة القاتمة ،
بطولة فذة نادرة بددت الظلام ، وانتزعت اليأس من النفوس ، إنها
بطولة صلاح الدين وقد وصف عباس محمود العقاد جانباً من
بطولته ، وهي من نوع صد العدوان ، وردع المعتدي ، وقد
أقبلت جيوش الغزو الفرنجي الثالثة ، يقودها سبعة وعشرون ملكاً
وأميراً ، يتقدمهم ريكاردوس ملك إنكلترا ، وقد قال لصلاح
الدين قبل التحام الجيوش :

إني أنا ريكاردوس ، والقوة عندنا هي كل شيء ، وسأريك
البرهان ثم دعا بقضيب من حديد ثم سل سيفه وأهوى عليه ،
فاخترطه نصفين .

فضحك صلاح الدين وقال لريكاردوس :

ليست الحرب صلابة سيف ، وقوة ساعد ، وإنما هي مضاء

حدّ وسداد يد ، ثم قذف بمنديل من الحرير الرقيق الشفاف إلى
أعلى ، ثم تلقاه بسيفه فشطره وقال لريكاردوس : بمثل هذا
السيف سنلقاكم غداً .

وتعلمون من كان المنتصر . .

سادساً :

وفي مطلع عصر النهضة ، شهد الوطن العربي معارك طاحنة ،
مع الاستعمار ، وقد برز من خلال هذه المعارك أبطال عظام ،
ومقاتلون أشداء ، سجل لهم التاريخ بطولاتهم ، وتضحياتهم ،
وكان عمر المختار أحد هؤلاء الذين انتزعوا إعجاب الأجيال من
بعدهم ، فكانوا مشعلاً وضاءً للأجيال الصاعدة ، في طريق
كفاحها ، ونضالها ، وكانوا قدوة ، ومثالاً يحتذى لأبناء أمتنا في
معركة تحررها ، وتقدمها ، وهذا الشاعر أحمد شوقي يؤكد أن
البطولة لها دور كبير في بث روح التضحية والفداء لدى
المناضلين :

ركزوا رفاتك في الرمال لواء	يستنهض الوادي صباح مساء
ياويحهم نصبوا مناراً من دم	يوحي إلى جيل الغد البغضاء
جرح يصيح على المدى وضحية	تلمس الحربة الحمراء
تلك الصحارى غمد كل مهند	أبلى فأحسن في العدو بلاء
خيرت فاخترت المبيت على الطوى	لم تبن جاهاً أو تلم ثراء
إن البطولة أن تموت من الظما	ليس البطولة أن تعب الماء

سابعاً :

وحيثما يكون الأمل في تحقيق النصر ضئيلاً بسبب التفوق الكبير للمعتدي في العدة والعتاد ، وحيثما يكون الاستسلام والخضوع لقوة القهر مهيناً ، تبرز بطولة من نوع خاص ، وهي بطولة الكرامة ، والإباء وهذا ما بدا واضحاً في البطل الشهيد يوسف العظمة ، الذي أثر الموت على أن يرى عدواً مغتصباً ، يدنس بأقدامه ثرى وطنه ، ويقدم أحد الشعراء صورة لهذا النوع من البطولة :

بأبي وأمي في العراء موسد	بعث الحياة مطامحاً ورغاباً
لما ثوى في ميسلون ترنحت	هضباتها وتنفست أطياباً
هذا الذي اشتاق الكرى تحت الثرى	كي لا يرى في جلق الأغراباً
وإذا نبا العيش الكريم بماجد	حر رأى الموت الكريم صواباً

وهكذا نرى أن الأدب العربي واكب بشعره ونثره عبر تاريخه الطويل البطولات العربية ، والإسلامية ، في شتى ميادينها ، فصورها وجعل منها مثلاً يُحتذى للأجيال الصاعدة .

* * *

الفهارس

أهم المصادر والمراجع

تفسير القرآن الكريم منها:

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، محمود الألوسي البغدادي .
- مفاتيح الغيب الشهير بالتفسير الكبير ، فخر الدين محمد الرازي .
- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، محمود بن عمر الزمخشري .
- جامع البيان ، محمد بن جرير الطبري .
- تفسير القرآن العظيم ، عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي .
- الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي .
- تفسير المنار ، رشيد رضا .
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج أ. د. وهبة الزحيلي .

كتب الحديث النبوي وشروحها، منها :

- صحيح البخاري .
- صحيح مسلم .
- سنن الترمذي .

- سنن أبي داود .
- سنن النسائي .
- سنن ابن ماجه .
- صحيح ابن حبان .
- الموطأ .
- جامع الأصول لابن الأثير الجزري .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى .
- سبل السلام للصنعاني .
- نيل الأوطار للشوكاني .
- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير .
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني .
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري .
- شرح صحيح مسلم ، للنووي .
- الجامع الكبير والصغير للسيوطي .
- الأنوار في شمائل النبي المختار للبغوي .

كتب السيرة النبوية ، منها :

- سيرة ابن هشام .
- تاريخ الأمم والملوك للطبري .
- السيرة الحلبية .
- زاد المعاد لابن قيم الجوزية .
- جوامع السيرة لابن حزم .
- البداية والنهاية لابن كثير .
- الأحكام السلطانية للماوردي .

- فقه السيرة للبوطي .
- الكبائر للذهبي .
- إحياء علوم الدين للغزالي .
- مقاصد الشريعة لابن عاشور .
- الموافقات للشاطبي .
- الترغيب والترهيب .
- الفقه الإسلامي وأدلته أ . د . وهبة الزحيلي .
- نهج البلاغة .
- العبادة في الإسلام للقرضاوي .
- خصائص الإسلام للقرضاوي .
- الحلال والحرام للقرضاوي .
- إنسانيات محمد لـخالد محمد خالد .
- رجال حول الرسول لـخالد محمد خالد .
- صور من حياة الصحابة لعبد الرحمن رأفت باشا .
- نظرات في الإسلام لمحمد راتب النابلسي .
- الطب الوقائي ، د . نضال عيسى .
- الجديد في أمراض التدخين ، د . نضال عيسى .

* * *

المحتوى

الموضوع الصفحة

المقدمة ٥

الباب الأول الحقائق

العبادة ٢١

الفطرة ٣٩

الوسطية ٥١

فلسفة المال في الإسلام ٧١

التوحيد ٨٨

تأملات في سورة العصر ٩٤

الباب الثاني العبادات

ذكر الله ١٠١

يوم عرفة ١١٧

مقام إبراهيم ١٣٢

الصيام ١٤٣

المعاملات

الباب الثالث

- ١٦٣ الجانب الاجتماعي في الإنسان
- ١٨١ التعاون واجب ديني

أصول الفقه

الباب الرابع

- ٢٠٥ الحلال والحرام في الإسلام
- ٢٠٧ القاعدة الأولى : الأصل في الأشياء الإباحة
- القاعدة الثانية : التحليل والتحريم ؛ من حق الله تعالى
- ٢٠٨ وحده
- القاعدة الثالثة : تحليل الحرام ، وتحريم الحلال من أكبر
- ٢٠٩ الكبائر
- ٢١٠ القاعدة الرابعة : الحلال طيب ، والحرام خبيث
- ٢١١ القاعدة الخامسة : في الحلال ما يغني عن الحرام
- ٢١٢ القاعدة السادسة : ما أدى إلى حرام فهو حرام
- ٢١٢ القاعدة السابعة : التحايل على الحرام حرام
- ٢١٣ القاعدة الثامنة : النية الحسنة ، لا تسوغ الحرام
- ٢١٤ القاعدة التاسعة : اتقاء الشبهات أولى
- ٢١٥ القاعدة العاشرة : الحرام حرام على الجميع
- ٢١٦ القاعدة الحادية عشرة : حول ضابط الكسب الحلال

مكارم الأخلاق

الباب الخامس

الحب في الله	٢٢٧
الإنسانية	٢٤٣

من سيرة النبي ﷺ

الباب السادس

حقيقة المعجزة في الإسلام	٢٦٣
ماذا تعلمنا الهجرة	٢٨٠
رحمة رسول الله ﷺ	٢٩٣
الجانب الإنساني في شخصية الرسول ﷺ	٣١٣

موضوعات معاصرة

الباب السابع

الإيدز	٣٣٣
الدخان	٣٥٠

موضوعات تاريخية

الباب الثامن

القدس الشريف وتراثها الثقافي	٣٧١
------------------------------	-----

موضوعات أدبية

الباب التاسع

فن المقالة	٣٨٥
المقدمة	٣٨٥
تعريف المقالة	٣٨٦

الموضوع	الصفحة
المقالة فن عصري	٣٨٨
عناصر المقالة	٣٨٩
أنواع المقالة	٣٩٥
البطولة في تاريخ الأدب العربي	٣٩٧

الفهارس

المصادر والمراجع	٤٠٧
المحتوى	٤١١

* * *